



بحرانيات

فن

تاريخ مصر المراتر حارشن

الدراسة الأولى

حضارات ما قبل التاريخ

وحضارة مصر الفرعونية

أحمد رشاد موسى

المنشور
للشؤون
١٩٩٨

المجلس الأعلى للثقافة

دراسات فى تاريخ مصر الإقتصادى

الدراسة الأولى

حضارات ما قبل التاريخ وحضارة مصر الفرعونية

أحمد رشاد موسى

إلى الأميرة فاطمة اسماعيل ...
وإلى أعيان مصر الأفاضل ...
تقديراً و وفاءاً لعطاءهم النبيل ، وجهدهم المخلص ،
فى سبيل إنشاء الجامعة المصرية فى عام ١٩٠٨ ،
التي كانت و لازالت وستظل رائدة التنوير والاشعاع الحضارى .
أ.ر.م.

مقدمة :

بدأت التفكير فى مشروع هذه الدراسة خلال عقد السبعينيات، عندما كنت أهاضر طلبة السنة الأولى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، فى تاريخ مصر الاقتصادى . وكان اختيارى لموضوع هذه الدراسة، وهو تاريخ مصر الاقتصادى فى عصور ما قبل التاريخ والعصر الفرعونى ، لأسباب عديدة، كان من بينها :

١- كان من بين أسباب اختيارنا لدراسة تاريخ مصر الاقتصادى ، خلال تلك الحقبة المبكرة من فجر تاريخها ، أن هذه الحقبة قد أهملت ولم تلق ما تستحقه من اهتمام . إذ ركز جمهور الدارسين والباحثين فى علم التاريخ الاقتصادى ، اهتمامهم على تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، أى منذ حملة بوناپرت على مصر ، ثم بداية عصر " محمد على الكبير " ، الذى وضع اللبسات الأولى فى صرح الدولة الحديثة .

ثم كيف ، ولماذا انهار ذلك الصرح الشامخ من الخلق والإبداع الحضارى، وإن ظل رغم كل هذا ، يثير فضول عقول البشر حتى اليوم.

٢- كذلك ، كان من بين هذه الأسباب، محاولة الكشف عن القوى التى تشكل تاريخ الإنسان وتحكم تطور حضارته ، وهل كان تاريخ الإنسان هو فى الحقيقة تساريخ الصراع بين طبقات المجتمع التى تنتج ولا تملك وتلك التى تملك ، دون أن تنتج، وهل يخضع تطور تاريخ الإنسانية لقانون جبرى، حتمى، لا يمكن أن يحيد هذا التطور عن المسار الذى يحدده ، أو يهرب من إسناره. وهل هذا القانون الحتمى فى حقيقة الأمر، قانون مادى اقتصادى .

بعبارة أخرى، لقد أردت أن أثبت فخر التفسير المادى للتاريخ، تلك "الأسطورة" التى ألبسها كارل ماركس ، "رداء علميا ، وتلقفها من بعده أتباعه ومريديه، ليؤكدوا صحة ما ادعاه، والدهم أو" رسولهم " ، من أن تاريخ الإنسانية هو تساريخ صراع دموى بين طبقات المجتمع.

وقد تبين لنا، أن أهم العوامل التى شكلت تاريخ مصر الحضارى خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، تمثلت فيما يأتى :

١/٢ - لعبت العقيدة الدينية، دوراً حاسماً فى تشكيل تاريخ مصر القديمة ، وما حققته من إنجازات حضارية. لقد كانت العقيدة الدينية أعظم دافع ، وراء تلك الصروح المعمارية الخالدة، التى تمثل منظومة من الإبداع والخلق الحضارى، خير شاهد عليها، تلك المقابر ومعابد الآلهة ، والتى بلغت قمة الإعجاز الهندسى فى مجموعة أهرامات ملوك الدولة القديمة، " خوفو " " وخفرع " " ومنكاورع " .

بل ويمكن القول أن العقيدة الدينية، أثرت فى كل مظاهر الحياة فى مصر بطريقة فريدة أو متفردة، بقدر أن نجد مثيلاً لها فى تاريخ أى شعب من الشعوب. لقد عرف المصريون، منذ عهود موغلة فى القدم تكاد لا تعيها الذاكرة، بأنهم أكثر أهل الأرض تمسكاً بأهداب الدين، وبحكم القطرة. ولا زالت هذه الحقيقة، والتى أكدها "هيرودوت" منذ أكثر من ألفى عام، غير خافية على حتى اليوم.

٢/٢ - كذلك كان " لعظماء الرجال " ، دوراً بارزاً لا يقل أهمية عن العقيدة الدينية ، فى تشكيل تاريخ مصر السياسى والاقتصادى وفى تطور حضارتها. وما اعتراها من ازدهار أو اضمحلال وركود وتدهور.

وكان من بين هؤلاء " الملك سنفرى " " والملك خوفو " من عظماء عصر الدولة القديمة، ذلك العصر الذى يمثل فى رأى البعض، قمة الخلق والإبداع الحضارى فى كل تاريخ مصر الفرعونية. " والملك منتوحتب الثانى " " والملك امنمحات الأول " " والملك سنوسرت الثالث " من ملوك عصر الدولة الوسطى ، أو عصر الرخاء الاقتصادى والحكم العادل، والذين مكنوا مصر من النهوض من كبوة العصر الوسيط الأول ، واعادوا اليها وحدتها التى تمزقت فى ذلك العصر . كما كان من عظماء الرجال ، تلك النخبة الغدة من ملوك عصر الدولة الحديثة او العصر الامبراطورى ، الذين شيّدوا صرح الامبراطورية ، التى امتدت حتى مشارف الخرطوم فى الجنوب ، وحتى بلاد النهرين شرقاً . وكان أهم هؤلاء " الملك أحمنس الأول " ، " والملك تحتمس

الثالث " " والملك المنحني الرابع " ، الذي عرف في تاريخ الامماتية باختاتون ، أول من بشر بوحدة الخالق الواحد الأحد ، ثم " الملك رمسيس الثاني " صاحب معجزة معبد " ابي سمبل " .

وقد تمثلت مقومات العظمة عند هؤلاء ، في قوة العقيدة والشخصية ، وفي الالتزام الصارم في فلسفة الحكم وادارة شئون مصر ، وفي معاملة ابناءها ، وفي حياتهم الخاصة ، بمجموعة من القيود الصارمة ، التي تجد اصل وجودها في منظومة مقدور أحد ، غير ملوك عظماء الالتزام بها طواعية لا جبراً . وكان من بين هذه القيم حرص على اكتساب رضاء الآلهة يوم الحساب طمعاً في الخلود ، والصدق والعدالة ، في القيم الدينية والأخلاقية ، لم يكن احترام القانون وتقاليده البلاط الملكي الموروثة . لقد عاشت هذه القيم في ضمير ووجدان هؤلاء الرجال العظماء ، حتى قدسوها وجعلوا منها آلهة تعبد .

وخلال فترات حكم هؤلاء العظماء ، عرفت مصر أعظم وأبهى وأزهى عصورها ، وارتقت احوالها الحضارية إلى عنان السماء .

وإلى جانب هؤلاء الرجال ، عرفت مصر سيدات عظيمات ، عرفن بقوة الشكيمة والشعور الوطني ، ساندن ملوك مصر القديمة في الدفاع عنها وتطهير أرضها من دنس الاحتلال الأجنبي . وكان من بين هؤلاء السيدات العظيمات ، بعض ملكات الأسرة الثامنة عشر ، اللاتي وقفن في صلابة لمساندة وتشجيع الرعي الأول من ملوك الدولة الحديثة ، الذين وضعوا اللبنات الأولى في صرح الامبراطورية المصرية . وكان اشهرهن " الملكة تتى شري " ، جدة " أحسن الأول " ، والملكة " إع حوتب " أمه ، والملكة أحسن لفرتاري " ، أخت وزوجة كل من " كامس " وأحمن الأول .

وعندما اعتلى عرش مصر ، ملوك ضعفاء ، تقاصوا عن تحمل مسئولية الحكم ، وعاشوا على أمجاد من سبقوهم ، مقلدين لا مبدعين ، شهدت مصر أسوء عصورها وضاعت وحدتها ، وبدأت عوامل الفناء تخرب حضارتها ، حتى توارت في

نهاية الأمر من على مسرح الأحداث. وكان من بين هؤلاء، آخر ملوك الدولة القديمة، وآخر ملوك الدولة الوسطى، ثم آخر ملوك عصر الدولة الحديثة، ذلك العصر الذى شهد بداية انحدار شمس الحضارة نحو المغيب. نعم الظلام !!!

وعلى الرغم من تسليمتنا بأن العوامل الاقتصادية، لعبت دوراً فى تاريخ مصر الاقتصادى، إلا أن أحوال مصر الاقتصادية وما اعتراها من تغير، إنما كانت، إلى حد كبير، انعكاساً لظروفها السياسية، وما اعتري الحكم من قوة أو ضعف، أو نتيجة عوامل طبيعية مثل قصور ماء النيل فى بعض السنوات.

٣- رغبة ملحة لا تقاوم، فى الكشف عن بعض أحاجى تاريخ مصر القديمة : كيف استطاع الإنسان خلال تلك الحقبة الموعلة فى القدم من تاريخ الإنسانية، أن يبدع على ضفاف النيل المقدس، واحدة من أعظم وأخلد الحضارات التى عرفها عبر تاريخه الطويل، كيف استطاع أن يضع اللبنة الأولى فى صرح أولى مدارس الحضارة والمدنية، تلك المدرسة التى علمت الإنسان كيف يزرع نباتاً، ويستأنس طيراً أو حيواناً، ويهتدى إلى لغة يتخاطب بها، ويسطر بها تاريخه وعواطفه وذكرياته. كما علمته كيف يحسب ويعد ويجمع وي طرح، ويهتدى فى لحظة حاسمة من تاريخه إلى أول تقويم للزمن، ويقيم أول بناء من الحجر، ثم يشيد بعد ذلك منظومة الخسود المتمثلة فى أهرامات الجيزة، التى لازالت أسرارها تتحدى العقل حتى يومنا هذا. ثم كيف هداه فيض من الإشراف والحدس الإلهى، إلى تمهيد الطريقة لمعرفة حقيقة الأول: الله الواحد الأحد.

٤- وأخيراً وليس آخراً، اعتقادى فى صحة ما قاله "جوزيف شومبير" Joseph Schompeter أحد كبار رواد الفكر الاقتصادى، بأن التاريخ الاقتصادى، هو أفضل أدوات التحليل الاقتصادى، سواء كان هذا التاريخ حديثاً أو موغلاً فى القدم. وعندما انتهيت من هذه "الدراسة" فى صيف عام ١٩٩٧، وبعد عدة سنوات من القراءة، والتفكير ومحاورة النفس، قدمتها للزميل الأستاذ الدكتور عبد الحليم نور الدين الأستاذ بكلية الآثار بجامعة القاهرة، ففضل مشكوراً بقراءتها وقراءة

متأنية، كما تفضل بتصويب بعض الأخطاء التي وردت بها . وكانت تعليقاته المشجعة حافزا قويا على نشرها . وهذا فضل وجميل سأظل مدينا به للزميل الكريم .
وبمناسبة ظهور الطبعة الأولى من هذه الدراسة أقدم خالص شكرى للمجلس الأعلى للثقافة لموافقته على أن تكون هذه الدراسة ، ضمن إصداراته . كما أتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة وللزملاء الكرام أعضاء لجنة الاقتصاد بهذا المجلس ، الذين أوصوا المجلس بنشرها .
كما أتقدم بخالص شكرى ، للأستاذة خيرية أدهم ، والأستاذة إيمان بدر ، والأستاذة هديل هدايه ، ولإبنى الأستاذ أحمد حلمى عبداللطيف ، والأستاذ حافظ صلاح النجار . فقد بذلوا جميعاً جهداً صادقاً فى مراجعة هذه الدراسة (أثناء عملية الطبع) .

الفيوم : شتاء عامى ١٩٩٧ ، ١٩٩٨ .

أ.ر.م.

نص المرسوم الملكي ، الذي أصدره " الملك تحتّمس الثالث " ، والذي أعلن صرح
الامبراطورية المصرية حتى أصبحت حقيقة ملموسة في عصره ، بتكليف " رخميرع " بتحمل اعباء
ومسئولية الوزارة :

" ياأبي الرب التحيز، وهذه تعاليم نرجو أن تتبع سبيلها، ثم يضيف "

" الملك : تطلع إلى منصب الوزير هذا وكن يقظاً لكل ما يحدث "

فيه، فهو عماد الأرض كلها، ولاحظ أنه ليس بالمنصب السهين ولكنه
مر المذاق ... وهو لا يعنى (مجرد) تقدير الذات واحترام الرؤساء
ورجال البلاط . وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد الشعب ...
فإذا قصدك شئك من الصعيد أو من الدلتا أو من أي بقعة في الأرض
فعليك أن تتأكد من أن كل شئ يجري وفقاً للقانون والعرف، وامنح كل
شئ حقه ...، ولاحظ أن من يلي منصباً كبيراً يردد الهوام والماء
كل ما يفعله، ولا يمكن أن تستمر تصرفاته خافية ... تصرف وفقاً للعدل،
فالمحابة بمقتها الرب ، وإليك نصيحة تخلق بها : عامل من تعرفه كما
تعامل من لا تعرفه ، وانظر إلى المقرب إليك نظرك إلى البعيد عنك ...
لا تشح بوجهك عن صاحب شكوى، ولا تؤمن سريعاً على صدق من
يحادثك ...، لا تغضب على فرد بغير حق واقصر غضبك على من
ينبغي الغضب منه . كن مهيباً بهابك الناس . والنبل هو من يجله
الناس وتتأني مهابته إذا أحق الحق ... ولكنه إذا أخاف الناس
وأسرف في ترويعهم وكانت به تقيصه، نزلوا به "من مصاف الرجال".
ونسوق تسجيج في تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق."
فالناس يتوقعون العدل في كل تصرفات الوزير . وتلك سنة القضاء
منذ حكم الرب على الأرض، كن غليفاً مع المتكبر، فالفرعون "

يفضل من يستحي على من يتكبر ..."

المحتويات

الصفحة	الموضوع
	الفصل الأول : موضوع ومنهج الدراسة
٣	مقدمة :
٩	المبحث الأول : موضوع الدراسة فى التاريخ الاقتصادى
١٠	المبحث الثانى : طبيعة المعرفة التاريخية
١٦	المبحث الثالث : تفسير التاريخ : نظرية التحدى والاستجابة
٤٣	الفصل الثانى : فجر الحضارة : مصر فى عصور ما قبل التاريخ
٤٤	المبحث الأول : حضارات العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط
٥٨	المبحث الثانى : حضارات العصر الحجري الحديث : ثورة الزراعة
	المبحث الثالث : عصر ما قبل الاسرات : تدعيم ثورة الحضارة ووضع أسس المدينة وبداية تدوين التاريخ
٧١	
٨٥	الفصل الثالث : مصر الفرعونية : مولد مدينة الانسان الاولى
٩٠	المبحث الأول : العصر الطينى : مولد مدينة الانسان الاول
٩٤	المبحث الثانى : الاحوال الاقتصادية فى العصر العتيق
	المبحث الثالث : عصر الدولة القديمة أو عصر بناء الاهرام : ذروة الخلق والابداع الحضارى
٩٧	
	الفصل الرابع : ثورة العصر الوسيط الاول : الفصل الاخير فى مأساه السلطة (حوالى ٢٢٨٠ - ٢٠٥٢ قبل
١١٥	الوسيط)
١٢٠	المبحث الأول : الملامح الأساسية للعصر الوسيط الاول
١٢٣	المبحث الثانى : الثورة الاجتماعية
	الفصل الخامس : عصر الدولة الوسطى : عصر الرخاء الاقتصادى
١٣٩	(حوالى ٢١٣٤ - ١١٧٨ قبل الميلاد)

١٤٤	المبحث الأول : سمات العصر
١٤٣	المبحث الثاني : النهضة الاقتصادية والرخاء الاقتصادى
١٦٤	المبحث الثالث : النظم الاجتماعية والاقتصادية
	الفصل السادس : العصر الوسيط الثانى : محنة الهكسوس (حوالى
١٧٣	١٧٧٨ - ١٥٧٥ قبل الميلاد المجيد)
	الفصل السابع : عصر الدولة الحديثة : العصر الامبراطورى
١٨٣	(١٥٧٥ - ٩٤٥ قبل الميلاد)
١٩٤	المبحث الأول : نظام وفلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة
٢٠٠	المبحث الثانى : أهم سمات عصر الدولة الحديثة
٢٠٨	المبحث الثالث : الاحوال الاقتصادية فى عصر الدولة الحديثة
٢١٧	المبحث الرابع : الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية
٢٣٨	المبحث الخامس : تطور الحرف والصناعات
٢٥٤	المبحث السادس : التجارة الداخلية والخارجية
٢٥٩	ملحق

الفصل الأول
موضوع ومنهج الدراسة

مقدمة

نشأة علم التاريخ الاقتصادي :

ظل المؤرخون عموماً ، ولحقبة طويلة من الزمان ، يسيرون فى خطى الفيلسوف الانجليزى "سيلى" " Seeley" ^(١) الذى اعتقد فى إصرار ، أن التاريخ ليس سوى "علم السياسة الماضى". وكان سيلى يعكس فى قوله هذا، الاتجاه السائد بين جبهة المؤرخين، بأن العوامل السياسية، هى أكثر العوامل تأثيراً فى أحداث التاريخ، ومن ثم فهى الأجدر بالاهتمام والدراسة. أن العامل السياسى، فى رأى أنصار هذا الاتجاه، يمثل الجانب الإنسانى فى حركة التاريخ، كما يوضح دور الفرد فى تشكيل وتوجيه الأحداث. وما القضايا الاقتصادية والعسكرية، إلا تابعة للقضايا السياسية.

وخلال القرنين الثامن والتاسع عشر، بدأت تتوالى الدراسات، التى تؤكد أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل الأحداث التاريخية وتطور المجتمعات الإنسانية. وقد مهد هذا لظهور "التاريخ الاقتصادى" كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية، "ومدرسة التاريخ الاقتصادى"، كأحد الاتجاهات الرئيسية فى الدراسات التاريخية المعاصرة.

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

أكد "سان سيمون" " Saint Simon " (١٧٦٠ - ١٨٢٥)، أهمية دراسة الحوادث المتعلقة بحياة الإنسان الماضية. لكى نستكشف قوانين تقدمها ، ونرصد حركتها . ذلك لأننا لا نستطيع التنبؤ بمستقبل الأحداث، إلا إذا فحصنا الماضى الجماعى للإنسان. ولكى يؤكد "سان سيمون" نظريته ، درس تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وانتهى إلى أن صراع المصالح الاجتماعية الكبرى ، هو الذى يشكل حركة التاريخ . وأن حركة التاريخ ما هى إلا صراع متصل ، بين طبقة رجال الكنيسة والتى أسماها الطبقة الأولى وطبقة رجال الإقطاع أو الطبقة الثانية من ناحية والطبقة العاملة من فلاحين وصناع أو الطبقة الثالثة من ناحية أخرى .

^١ يقول " سيلى " فى تعريفه لتاريخ

" History is school of states - manship "

وقد استعرض "سان سيمون" معالم هذا الصراع الاجتماعي، وكيف أن ملوك دول أوروبا في العصور الوسطى، قد انحازوا إلى الطبقة الثالثة، ضد أمراء الإقطاع، ومنحوا سكان المدن من أعضاء هذه الطبقة، حقوقاً خاصة مما أدى إلى ازدهار المدن الصناعية Les bourgeois، وأصبح سكانها الأثرياء بورجوازيين. وقد قاد هؤلاء، الطبقة الثالثة ضد أمراء الإقطاع، ثم بعد ذلك قادوا طبقتهم، للثورة ضد الملكية التي كانت تحميها.

هذا، وقد أثرت أفكار "سان سيمون" التاريخية، تأثيراً كبيراً على بعض مفكرى عصره، ومنهم تلميذه "أوجستان تيرى" "Ugustin Thierry" (١٧٩٥ - ١٨٥٦). كان "تيرى" من أشد أنصار الثورة الفرنسية، وخاصة حكومة "الكوميون الباريسي"، التي أقامها الثوار البعاقبة والتي عرفت بعدائها الدموي للملكية والأرستقراطية. وقد انتهى "تيرى" في كتابه "مجموعة من الآثار غير المنشورة الخاصة بتاريخ الطبقة الثالثة"، إلى أن مصدر الثروة والإنتاج هم رجال الطبقة الثالثة، وأن ما من بطل عظيم، إلا وكان وراءه رجال هذه الطبقة، كقوة دافعة، وبدولهم ما كان في مقدور البطل أن يفعل شيئاً^(١).

هذا، وقد دعم الاتجاه السابق، وأكد خطورة العوامل الاقتصادية، ظهور "كارل ماركس" "Karl Marx" (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الذي ذهب في تفسيره المادى الاقتصادى للتاريخ إلى حد التطرف، عندما انتهى إلى القول بأن تاريخ الإنسانية، تحكمه قوانين حتمية. وأن هذه القوانين هي قوانين اقتصادية بحتة. وأن حضارة المجتمع وثقافته، ونظمه الاجتماعية والسياسية والقانونية، وعقائده وفنونه وقيمه الجمالية، ما هي إلا انعكاسات للبيئة الأساسية الاقتصادية المادية للمجتمع. وأن تاريخ العالم، ما هو إلا تاريخ الأشكال المختلفة للصراع بين الطبقات الاقتصادية، أى الطبقة التي تملك ولا تنتج من ناحية، والطبقة التي تنتج ولا تملك من ناحية أخرى^(٢).

(١) سيد الناصري، من كتابه التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٨ و ٤٤.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: أحمد رشاد موسى، فلسفة ماركس في التاريخ، دراسة نقدية، مجلة القادوس والاقتصاد، ٥، ١٩٧٧.

كذلك كان من الضروري ، لظهور " تاريخ الاقتصاد كعلم مستقل وناظر
مدرسة التاريخ الاقتصادي " . كأحد الاتجاهات الأساسية ، في الفكر التاريخي
المعاصر، أن يصل علم الاقتصاد نفسه ، إلى درجة من التقدم والنضوج ، تمد
المؤرخ الاقتصادي ، بنظام متكامل من الأفكار الاقتصادية وأدوات التحليل الاقتصادي ،
وتبين دور العوامل الاقتصادية في تشكيل الأحداث التاريخية . إن هدف المؤرخ
الاقتصادي، كهدف غيره من المؤرخين، أن يعيد الحياة إلى واقع اقتصادي انقضى مع
مسيرة الزمن . بعبارة أخرى، إن هدف المؤرخ هو كيف يبعث الحياة في ماض ولى .
ولكى يحقق هذا الهدف ، كان لابد له ، بالإضافة إلى متطلبات كثيرة أخرى ، من
منظومة هذه الأفكار وهذه الأدوات . وقد تحقق لعلم الاقتصاد هذه الدرجة من
التقدم والنضوج ، بظهور العمل الخالد " لأدم سميث " "Adam Smith" بحثاً في
أسباب ثروة الأمم " "Wealth of Nations" في عام ١٧٧٦ .

لهذا ليس غريباً ، والأمر كما سبق أن ذكرنا ، أن يعتبر الفصل الثالث من
ثروة الأمم " أول مؤلف في التاريخ الاقتصادي ، كما كان المؤرخون الإنجليز أول من
اهتم بدراسة التاريخ الاقتصادي . ومن الأمثلة على ذلك المؤرخ " اشتون "
"Ashton" ، الذي خصص خمسة مجلدات لدراسة تاريخ بريطانيا الاقتصادية . كما
تناول آخرون تاريخ بريطانيا الاجتماعي وتاريخها الأدبي والفني .

وعموماً ، لم يعد التاريخ ، علم " السياسة الماضية " ، بل أصبح علم
"الاقتصاد الماضي " و " علم الأديان الماضي " و " علم الحضارات الماضي " . بإيجاز
أصبح موضوع الدراسات التاريخية ، كل ما يتعلق بالإنسان وحضارته في الماضي .
بعبارة أخرى ، يجب أن يكون التاريخ شاملاً لكل جوانب الظاهرة الإنسانية :
الاجتماعية ، السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والحضارية ، وكيف تطورت هذه
الجوانب عبر الزمن (١) .

(١) يرى بعض المؤرخين أن دراسة التاريخ السياسي ، وعلم الحكم والقهر ، وتاريخ الحروب والمعارك ، ومؤامرات القصور ،
والجباة الخاصة للنبوك والحكام ، لا تندرج من وجهة نظر كارل بوبر Karl Popper ، الفيلسوف البريطاني ،
الألماني المولد ، دراسة التاريخ السياسي ، لأنه في نظره يمثل تاريخ السلطة وتاريخ الرعناء ، الذين فرضوا على شعوبهم آراء
والهوى ، لأنهم يمتلكون السلطة . إن التاريخ السياسي في نظره ، وليد الخوف والرغبة وعادة السلطة ، أشهر سيد العصر .
المراجع السابق ، ص ٤١ .

فائدة دراسة التاريخ

ولكن لماذا ندرس التاريخ ، وهل هناك فائدة ترجى من دراسة ماضى ولى ؟
الليس من الأجدر بنا أن نكف عن النظر إلى الوراء ، ونهتفم فقط بدراسة الحاضر
ومائه ، خاصة فى عصر يلهث الإنسان ، وهو يحاول تتبع ما يحدث فيه من يوم لآخر .
بل لقد ذهب البعض إلى القول بأن الأمة السعيدة ، هى التى ليس لها تاريخ !!

تمثل الرغبة فى المعرفة ، ظاهرة غريزية فى الإنسان ، خاصة إذا ما تعلق
الأمر بتاريخه وماضيه وتراثه وتكرياته . أن الإنسان يتوق بالفطرة إلى معرفة
تاريخه ، حتى قيل إذا صح القول بأن " الإنسان حيوان اجتماعى ، فهو أيضاً " حيوان
تاريخى " ، بل أنه الوحيد بين الكائنات الحية ، الذى يسعى إلى معرفة وتسجيل تاريخه .
وعلى هذا ، فإن الدراسات التاريخية ، تشبع حاجة غريزية فى الإنسان ، كما
أن ثقافته التاريخية ، تعتبر من خير الوسائل ، للارتقاء بوعيه الحضارى ، وتعمق
شعوره بقوميته ووطنه ، ومدى ارتباطه بأرضه وانتمائه له .

أما دراستنا للتاريخ الاقتصادى ، فتقوم على اعتقادنا بأن دراسة التاريخ
الاقتصادى لعصر من العصور ، إنما تعتبر واحدة من أهم أدوات التحليل الاقتصادى ،
التى تساعدنا على فهم واستيعاب الظواهر والأحداث والأفكار والنظم الاقتصادية ،
ومعرفة العوامل التى شكلت كل هذا ^(١) . ومن المؤكد أن فهم الماضى ، يمهد السبيل
لفهم الحاضر ، كما قد يساعد على التنبؤ بمسار المستقبل وأنماطه . كتب أستاذى
الأستاذ الدكتور رفعت المحجوب عام ١٩٦٠ فى كتابه " النظم الاقتصادية " يقول :

(١) نذكر القارئ بأوجه التشبه فى هذا الخصوص بين تاريخ الإنسان من ناحية ، وأهمية تاريخ الأرض فى فهم التكررات
الجيولوجية المعاصرة فى علم الجيولوجيا . وكذلك أهمية عوامل الوراثة فى فهم التكوين البيولوجى للفرد ، وما قد يصيبه
من نقائص خلقية أو أمراض .

" مع تتابع التاريخ أدلى الماضى ببعضه إلى الحاضر ، وسيدلى الحاضر ببعضه إلى المستقبل . ولكن الحاضر لا يمكن أن يكون قد انحدركلّه من الأزل، كما لا يمكن أن يخلق كنه إلى ما لا نهاية ، فلن يقف التاريخ عن أن يحمل للإنسانية ألواناً جديدة من الفكر والمنظمات."

حقاً لا يمكن أن يكون الحاضر نسيجاً وحده ، إذ لا يمكن فصل حاضر الإنسانية عن تراثها وماضيها . فكثير من الظواهر والأحداث والنظم التى تشكل حاضرها ، تمتد جذورها فى ماضيها . ومن ثم ، فإن فهم الحاضر فهماً عميقاً ، غالباً ما يفرض على الباحث ، النظر إلى الماضى وتاريخه . هذا ، وإن كنا نؤمن إيماناً عميقاً بأن الماضى والحاضر يؤثران فى نمط الحياة فى المستقبل ، إلا أننا نؤمن أيضاً بأن التاريخ لا يسير وفقاً لقوانين حتمية ، تمكن من التنبؤ الكامل بصورة المستقبل ^(١) . فكثيراً ما يخيب المستقبل الكثير ، وهناك من القوى التى لا نراها ، ولا يمكن أن نراها ، والتى تلعب دورها وتغير من مسيرة التاريخ التى توقعناها .

هناك دائماً إرادة الخالق جل شأنه . إذا أراد شيئاً قال كن فيكون، وليس فى مقدور البشر معرفة ما يريد الخالق لنا فى غدنا . من كان فى مقدوره أن يتنبأ برسالات السماء، كما أتى بها موسى والمسيح ومحمد ، ومن كان فى مقدوره أن يتنبأ بآثارها ، وكيف أعادت تشكيل مسيرة الإنسانية، ودفعتها لبعث النور والأمل والعدل والحق بين البشر....!

وهناك دائماً مفاجآت الطبيعة ، وما قد نخبئه من خير أو شر أو كوارث . من كان يتصور كل ما ترتب على فيض الأرض بنفطها ، من تغيرات فى تاريخ العالم المعاصر . ومن كان فى مقدوره أن يتنبأ بكوارثها !

(١) أحمد رشاد مرسى ، المرجع السابق ذكره.

وهناك دائماً اكتشافات العلم وكيف غيرت صورة الحياة على سطح هذا الكوكب. وإذا سلمنا بدور العلم وتطبيقاته في تشكيل أحداث التاريخ ، وإذا سلمنا باستحالة أن نعرف اليوم، ما قد تسفر عنه جهود العلماء من اكتشافات ومفاجآت بل وثورات عظيمة في الغد، فإن هذا يعتبر سبباً منطقياً لإنكار فكرة الحتمية التاريخية . والقول بأن التاريخ يعمل وفقاً لقوانين جبرية ، إذا عرفناها ، أصبح في مقدورنا أن نعرف ، على سبيل اليقين ، مسيرة تاريخ الإنسانية في المستقبل^(١) ١١

نخلص من كل ما سبق ، أننا ندرس التاريخ الاقتصادي ، لأنه قبل أي شيء آخر ، وعلى حد قول " جوزيف شومبيتر " J.Schumpeter ، " أحد أعلام الفكر الاقتصادي المعاصر، من أهم أدوات التحليل الاقتصادي " .^(٢)

ولكن لكي يكون التاريخ الاقتصادي أداة تحليل نافعة ، يجب أن يكون قد كتب، وفقاً لمنهج علمي، يجعل منه تاريخاً جيداً. ولاشك أن هذا أمر جد صعب ، يتطلب الكثير، خاصة :

- ١- المؤرخ المحترف ، ذو المعرفة والثقافة الواسعة ، الذي وهب مقدرة الإحساس بالتاريخ ، أو "الحاسة التاريخية" .
- ٢- المصادر الموثوق بها ، وتوافر القدرة على فهم وتفسير هذه المصادر بطريقة صائبة، حتى يكون هذا التفسير موضوعياً وصادقاً .

1- Acton , H.B. , The History of the English , Marxism : Leninism as A philosophical Creed Cohen and West Ed 2nd , Emphasis on , London 1961 and Tinker , R. , Philosophy and Myth in Karl Marx , 1963, Popper K. R. The open society and its enemies Vol. II, The High Tide of Prophecy : Hegel Marx and the Alter Math , Routledge and Kegan Paul Ltd., 3rd. (revised), London 1957 and Poverty of Historicism , the previously mentioned Publisher , London , 1961 .

2- J. Schumpeter, History of Economic Analysis, Oxford University, New york, 3rd printing, 1959, pp 4-6.

المبحث الأول موضوع الدراسة فى التاريخ الاقتصادى

يتمثل موضوع الدراسة فى التاريخ الاقتصادى من وجهة نظرنا، فى محاولة التعرف على محاولات الإنسان والجماعات البشرية الدالية ، منذ فجر تاريخه وحتى اليوم، للتفكاك من أسار وقيود المشكلة ، التى تواضع الدارسون فى علم الاقتصاد ، على تسميتها بمشكلة الندرة Problem of Scarcity ، أو المشكلة الاقتصادية Economic Problem . وما يبذله من جهد أو نشاط وما صاغه من علاقات ونظم ، للتصدى لهذه المشكلة .

وتجد مشكلة الندرة ، كما هو معروف ، أصل وجودها فى محاولة الفرد أو المجتمع إشباع حاجاته غير المحدودة ، والتى تتفاوت فى أهميتها ، وذلك باستخدام ما لديه من موارد تتسم بكونها محدودة ، وتصلح لاستخدامات متعددة. وخلال تاريخ الإنسان الطويل للتصدى لهذه المشكلة الأزلية ، تنشأ علاقات متنوعة بين أفراد الجماعات البشرية ، ويبندع الإنسان أو يصوغ نظاماً تحتوى نشاط أفراد الجماعة وما ينشأ بينها من علاقات ^(١) . وتؤكد حقائق التاريخ أنساق هذه الحاجات ، وهذه الموارد وهذه العلاقات وهذه النظم ، بالتغير والتطور عبر الزمن .

١ انظر عموماً بحثاً لكناح الإنسان من أجل إشباع حاجاته فى فجر تاريخه ، وكيف اهتدى إلى وسائل إشباع هذه الحاجات فى العمل الخالد لأبي طهليل ، أحد عظماء الفلسفة الإسلامية ، والمعروف "بأبي بن يقطين" . وقد ولد بن طهليل ، بلدة وأدى ابن ثمر بن عزملة فى أوائل القرن السادس الهجرى ومات عام ٥٨١ هـ من الهجرة . عبدالحليم محمود، فلسفة بن طهليل ورسالة حق بن يقطين ، مكتبة الانبار المصرية ، القاهرة دول تاريخ ، وكذلك أحمد رشاد موسى ، بن طهليل : أمكاره الاقتصادية والاجتماعية ودوره فى نشأة نظرية النهج العلمى فى الفكر الأوربى الحديث، مصر المعاصرة، القاهرة، ١٩٩٦ . وكذلك : مصطفى السعيد. وأحمد رشاد موسى ، مقدمة فى علم الاقتصاد، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٩ وما بعدها . طبعات متعددة

المبحث الثانى طبيعة المعرفة التاريخية

يقوم منهج دراستنا للتاريخ الاقتصادى، على الاعتقاد بوجود اختلاف جوهري فى درجة الموضوعية والحياد العلمى فى الدراسات التى تهتم بالظواهر الإنسانية، بما فى ذلك الدراسات التاريخية من ناحية، والدراسات التى تهتم بدراسة الطبيعة من ناحية أخرى. ويقوم هذا الاعتقاد على ما يأتى :-

١- وجود اختلاف جوهري فى طبيعة محل البحث فى كل من هذين الفرعين من فروع المعرفة الإنسانية .

٢- إن هذا الاختلاف العميق فى طبيعة محل البحث، يستلزم اختلافًا فى المنهج العلمى الذى يمكن الأخذ به فى كل منهما .
ونقصل فيما يلى ما سبق إجماله .

فعلى حين يتميز الكثير من الظواهر الطبيعية التى تشكل محل البحث فى العلوم الطبيعية، بقدر من الاستقلال والثبات والاستقرار النسبى، الأمر الذى يمكن من عزل محل الدراسة عن المؤثرات الخارجية، التى يرغب الباحث فى استبعاد تأثيرها عن محل البحث. كما أن طبيعة محل الدراسة فى هذه العلوم، تمكن من إعطاء محل البحث والعناصر التى تشكله مضموناً كمياً. هذا فى حين نجد أن وجود العنصر الإنسانى، كعنصر مميز للظاهرة الإنسانية، سواء كانت هذه الظاهرة اقتصادية أو تاريخية أو غيرها، يلعب دوراً أساسياً فى تشكيلها، يؤدى إلى نتائج خطيرة. فمن ناحية نجد أن وجود هذا العنصر، وما يرتبط به من دوافع إنسانية وحرية إرادة، يؤدى إلى صعوبة تحديد الظاهرة الإنسانية، وجوانبها المختلفة، وصعوبة عزلها والسيطرة عليها، وإجراء تجارب عليها فى معمل اختبار. فضلاً عما سبق، فإن موضوع الدراسة فى العلوم الإنسانية عموماً، هو عادة جانب من جوانب الظاهرة الإنسانية، التى تتسم بالتعقيد والتشابه والتأثير المتبادل، وليس شيئاً مستقلاً فى

وجوده المادى، كما هو الحال فى العلوم الطبيعية . كذلك نلاحظ أن العلاقات التى ترتبط بالظواهر الإنسانية ، لا تنقسم بنفس القدر من الثبات أو البساطة ، التى تنقسم بها العلاقات المرتبطة بالظواهر الطبيعية .

ويترتب على ما سبق ، أن أى محاولة لمعرفة أى العناصر يشكل سبباً وأياًها يعتبر نتيجة، عند دراسة هذه العلاقات ، يعتبر أمراً سهلاً نسبياً عند دراسة الظواهر الطبيعية ، بالمقارنة بالعلاقات التى ترتبط بالظواهر الإنسانية ، حيث يتعذر تحديد طبيعة وأثر كل من المتغيرات، التى تشكل هذه العلاقات بطريقة موضوعية ومجدية . ولعل هذا يفسر لماذا نلجأ عند دراسة العلاقة بين المتغيرات الاقتصادية، إلى افتراض بقاء الأشياء الأخرى على حالها. على الرغم من مفاجأة هذا الشرط للحقيقة، لأن الأشياء الأخرى يندر أن تبقى على حالها .

ويتبع هذا الاختلاف فى طبيعة محل البحث فى هذين الفرعين من فروع المعرفة الإنسانية، اختلاف فى طبيعة منهج البحث. ففى حين يسمح محل البحث فى العلوم الطبيعية، بتطبيق الطريقة أو المنهج الكمي Quantitative method ، بصفة أساسية . كذلك تمكن البساطة النسبية واستقلال أجزاء الوجود الطبيعى الباحث من عزل موضوع البحث وإجراء الدراسة عليه ، فى ظل ظروف منضبطة فى معمل اختبار. وقد كانت التجربة وإمكانية القياس الكمي، هما الأداة الرئيسية التى مكنت من تحقيق ما تنقسم به العلوم الطبيعية من موضوعية وحياد علمي وعالمية القبول . ومن الواضح أنه قد نعدر حتى الآن تطبيق المنهج الكمي أو التجريبي فى دراسة الظواهر الإنسانية ، بنفس القدر من النجاح الذى أمكن تحقيقه فى مجال الدراسات الطبيعية. ويمكن أن نرجع ذلك لأسباب عديدة من أهمها ما يأتى :-

- ١- أهمية العنصر الإنسانى وفكرتى الدافس وحريّة الإرادة الإنسانية ، والاعتبارات الكيفية فى دراسة الظواهر الإنسانية وجوانبها المختلفة .
- ٢- الكثرة النسبية للعوامل التى تشكل الظواهر الإنسانية ، واتساع هذه العوامل بالميل للتغير وارتباط كل منها بالآخر، مع صعوبة أو استحالة عزل وتقدير أثر كل

واحد من هذه العوامل على حدة ، أو معرفة أيها يعتبر سبباً وأيها يعتبر نتيجة في كثير من الأحوال .

٣- عدم توافر الكثير من المعلومات والبيانات الموثوق بها والضرورية لدراسة الظواهر الإنسانية والعوامل التي تشكلها ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالماضي ، كما هو الحال في الدراسات التاريخية . وسوف يتضح ذلك جلياً عند دراسة تاريخ مصر الاقتصادي.

هذا، ويمدنا الخلاف الشهير بين الدارسين في علم الاقتصاد ، حول طبيعة المنفعة Utility وقابليتها للقياس الكمي Cardinal Measurement، بدليل واضح على تعذر الأخذ بالمنهج الكمي في دراسة الظواهر الاقتصادية. كذلك تصادف نفس الصعوبة في نظرية الإنتاج ، عند محاولة دراسة سلوك المنظم وأهدافه، بسبب تأثير هذا السلوك باعتبارات غير نقدية ، منها ما لا يقبل القياس الكمي . كذلك تأثير سلوك المنظم وسياسته ، بتقديراته لمنحنى الطلب والنفقة ، وكلاهما كثيراً ما يتأثر بتوقعات أو تخمينات المنظم الذاتية، لما يحتمل أن تكون عليه هذه المتغيرات في المستقبل . ونضيف إلى ما سبق أهمية العوامل النفسية في تفسير الدورات أو الأزمات الاقتصادية، كانهيار سوق الأوراق المالية في "وول ستريت" Wall Street، والكساد الكبير the Great Depression الذي تبع هذا الانهيار في عام ١٩٢٩ ، وفي تفسير مستوى العمالة والطلب على أموال الاستهلاك وأموال الاستثمار ، ... الخ .

٤- ولعل من بين أهم الأسباب التي تؤكد ضرورة الاختلاف في المنهج وفي درجة الموضوعية والحياد العلمي في كل من العلوم الطبيعية من ناحية، والعلوم الإنسانية من ناحية أخرى، أن دراسة الظواهر الإنسانية يتطلب الاستعانة بمقولات فكرية ، أو بهيكل من الأفكار التي نشأت وتوطنت في المجتمع الإنساني الذي يحتوى الظاهرة محل الدراسة . ويتعين على الباحث أن يعرف مضمون هذه الأفكار ، طبقاً للمفهوم الذي اكتسبته في المجتمع أو البيئة التي نشأت واستقرت فيها . ومن المسلم به أنه ليس هناك ما يحتم أن يكون لهذه الأفكار مدلول واحد ، في كل المجتمعات

الإنسانية ، ويغض النظر عما قد يوجد من اختلافات بين هذه المجتمعات . بل ليس هناك ما يضمن حتى مجرد وجود هذه المقولات الفكرية ، وإن اختلف مضمونها إلى حد ما من مجتمع لآخر. ومثال ذلك أن الاشتراكيين والراسماليين يتكلمون عن الديمقراطية، ولكن ما أشد الاختلاف بين مفهوم هذه المقولة الفكرية عند كل منهما. ومثال آخر : أن " الله " يعنى بالنسبة للمسلم أمراً مختلفاً تماماً، عما يقصده البوذي أو الهندوسي عند الكلام عن إلهه. وبالنسبة لعلم الاقتصاد، يتعين لكى نفهم ظاهرة السوق فى بلد متخلف، أن نعتد على مقولات فكرية، تختلف اختلافاً جوهرياً عن أفكار ومقولات قد تحمل نفس الاسم فى مجتمع أوربي صناعي. بل إن هذه المقولات قد توجد فى مجتمع دون آخر !

٥- يترتب على اختلاف طبيعة موضوع أو محل البحث، واختلاف طرقه ومناهجه فى هذين الفرعين من فروع المعرفة العلمية، اختلافاً فى درجة الموضوعية المتحققة فى كل منهما. من الواضح أن الموضوعية المطلقة للمعرفة العلمية، وإن كانت مثلاً أعلى قد يرغب الباحث فى الارتقاء إليه، تعتبر أمراً بعيد المنال، حتى فى العلوم الطبيعية. فما دام الباحث هو الإنسان، فهناك دائماً احتمال الإخلال بالموضوعية والحياد العلمى، بسبب احتمال خداع الحواس ووجود العنصر الإنسانى. ولكن فيما عدا ذلك، فهناك اختلاف لا يمكن إنكاره فى درجة الموضوعية المتيسرة فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. ويمكن القول بصفة عامة فى حين يتسم التاريخ الفكرى للإنسان بالموضوعية والحياد العلمى فى العلوم الطبيعية ، يلاحظ وجود قدر هام من الذاتية والأحكام التقديرية . Value Judgment والتحيز فى العلوم الاجتماعية، بما فى ذلك دون شك علم الاقتصاد . ويمكن أن نفسر هذا الاختلاف بالعوامل الآتية :-

٥/١- يذهب السراى الغالب فى " النظرية الاجتماعية فى المعرفة " Sociology of Knowledge " وهو العلم الذى يهتم ضمن أشياء أخرى ، بدراسة مدى تأثير المعرفة الإنسانية بالوجود الاجتماعى ، إلى أن النظريات السياسية وعلم التاريخ والعلوم الاجتماعية ، وكذلك أسس نظرية المعرفة نفسها، تعتبر من حيث الشكل

والمضمون ثمرة الوجود الاجتماعي . ويترتب على هذا إقسام هذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية بقدر كبير من الاختلاف في الزمان والمكان . وعلى العكس من ذلك يقرر أصحاب هذا الرأي، أن العلوم الطبيعية لا تتأثر بالوجود الاجتماعي إلى حد كبير^(١).

٢/٥ - يترتب على إمكان التجارب المنضبطة في مجال العلوم الطبيعية، سهولة اختبار النظريات العلمية ونتاجها بطريقة موضوعية، وهو الأمر غير المتيسر عموماً في دراسة الظواهر الاجتماعية .

٣/٥ - تخلو العلوم الطبيعية بشكل واضح من الأحكام التقديرية للباحث^(٢) وعلى العكس نجد أن الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى ، قد تأثرت بشكل ملحوظ ، وبصفة مستمرة ، بالأحكام التقديرية للباحث ، وما تعكسه هذه الأحكام من معتقدات دينية أو فلسفية، أو أخلاقية أو سياسية^(٣) .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك، تأثير "فلسفة القانون الطبيعي" وفلسفة "المنفعيين"، على النظرية الاقتصادية التقليدية، وتأثر الطبيعيين أو "الفيزيوقراط"، وخاصة راندهم كيناي "Quney"، وكذلك "آدم سميث" في تعريف العمل المنتج بتعبهم الريفي للزراعة. كما عارض "ريكاردو" Ricardo "رجل الصناعة والأعمال، فكرة حماية الزراعة في بريطانيا. ومن أهم الأمثلة أيضاً الخلاف التقليدي بين اتباع "ماركس" وأنصار "المدرسة التقليدية الحديثة"، حول تفسير ظاهرة القيمة. وتأثر النظرية التقليدية في التجارة الدولية وغيرها من أفكار النصار مذهب الحرية الاقتصادية، بمصالح بريطانيا كدولة صناعية. إذ لم يتردد كثير منهم في التكرار لفكرة الحرية، عند مناقشة موضوع الحماية الجمركية للزراعة في بريطانيا. وبالمثل نجد أن

Kaufmann, Methodology of Social Sciences .

(١)

(٢) من الاستثناءات البارزة هذه القاعدة ، رفض بعض علماء التاريخ أفكار بعض العلماء اليهود في علم الطبيعة ، كما من ذلك نظرية النسبية ، ورفض بعض اتباع ماركس نظريات علم الوراثة لتعارضها مع الفلسفة الماركسية

(٣) يعتقد شوميتز أن التحليل الاقتصادي Economic Analysis لا يتأثر بالأفكار المسممة للباحثين ، وأن كتابه قد أبتكارهم السياسية .

Robinson, J. Economic Philosophy, 1-25 . Schumpeter, J op cit . p 4-6

أفكار الاقتصادى الألماني "ليست" "List" عن "الصناعة الوليدة" " Infant Industry " تعتبر تعبيراً أميناً عن مصلحة بلاده فى التنمية الصناعية ... الخ .. ولعل هذا يفسر ما يسمعه الإنسان كثيراً من "علم الاقتصاد الرأسمالى"، "وعلم الاقتصاد الاشتراكى" أو "الشيوعى"، ولكن لا يسمع الإنسان عادة بوجود نظريات رأسمالية فى الطبيعة أو الكيمياء أو الأحياء . وأخرى اشتراكية أو شيوعية ، أو نظرية أمريكية وأخرى روسية وثالثة صينية فى الذرة .

نختتم هذا البحث بتساؤل لشومبيتر : هل كان تاريخ علم الاقتصاد هو تاريخ عقائد وأيدولوجيات ، وهل هناك من وسيلة لتحديد موطن هذه العقائد فى هذا العلم للتخلص من أثرها المفسد له .. ؟

يقول شومبيتر : فى حين يعتقد "كارل منهايم" "Karl Mannheim" ، بالرغم من تسليمه بأن "الازدواج الأيدولوجى" " Ideological delusion " هو قدر لا يمكن الهروب منه ، تذهب ضحيته البشرية جمعاء ، إلا أنه يعتقد أن هناك من العقول الذكية التى تمكن أصحابها من أن يهربوا من هذا المصير. وهذا ما يرفضه شومبيتر ، لأن "الازدواج الأيدولوجى" غير معروف للباحث نفسه . فهو يوجد دائماً فى عقله الباطن ، ومن ثم لا يكون على بيئة منه ، حتى يكون فى مقدوره أن يحرر نفسه من تأثيره ، أى أنه قد يستحيل على الباحث أن يعرف أنه ضحية الأيدولوجية التى يدين بها ^(١) .

(١) لمزيد من التفصيل فى هذا الصدد أنظر

Schumpeter, op. cit. , pp-33-47

Mannheim, K. Essay on The Sociology of Knowledge, ed. by Keeskemeter, 1952.

Toyne, op. cit., Introduction, A., The Relativity of Historical Thought, P1-16.

وأنظر أيضاً سعيد الحجار ، مقدمة مبنى الفكر الاقتصادى ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١ وما بعدها

المبحث الثالث تفسير التاريخ : نظرية التحدي والاستجابة

رأينا فيما سبق أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحقيق نفس القدر من الموضوعية المتحققة في العلوم الطبيعية ، عند دراسة الظواهر الإنسانية ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالدراسات التاريخية. فما حدث قد حدث ، والماضي قد يكون بعيداً أو سحيقاً ، وبالتالي لا يمكن للباحث أن يعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة ، كما أن التجربة والاختبار مستحيلان في الدراسات التاريخية ، إذ لا يمكن لحدث تاريخي أن يعيد نفسه مرة أخرى^(١). وبالتالي يتعين على من نعرف حقيقة ما حدث ، أن نرجع إلى مخلفات الماضي وأثاره وسجلاته ووثائقه ، للبحث عن حقائق التاريخ . ومن المسلم به أنه كثيراً ما لا يتوافر لدينا عن الماضي ، القدر الضروري من الحقائق والمعلومات التي يمكن أن نثق بها . فضلاً عن هذا ، فقد نقع عند دراسة أحداث الماضي فريسة للتفسيرات الذاتية للماضي وأحداثه ، اعتماداً على مقولات ونظم فكرية ، قد تتضمن مفاهيم تغاير تلك التي سادت في الماضي . وكما سبق أن ذكرنا قد يكون هذا الماضي موغلاً في القدم . ولما كان الأمر كذلك أصبح من اللازم في تصورنا ، أن نكشف ونميط اللثام عن الفلسفة أو النظرية ، التي نرى من خلالها الحدث التاريخي وظاهرة الحضارة ، حتى يكون القارئ على بينة من هذه الفلسفة ، التي قد تكون سبباً بعيد بنا عن الموضوعية ويفسد الحياد العلمي الذي تسعى إلى تحقيقه . بالإضافة إلى ما سبق ، فإن انحيازنا لهذه الفلسفة ، وما هي إلا واحدة من فلسفات عديدة ، لا يعنى ادعائنا أنها بالضرورة الفلسفة الصحيحة .

وقبل أن نعرض لدراسة هذه النظرية ، ونعنى بها نظرية "التحدي والاستجابة" "Challenge and Response" للمؤرخ الفيلسوف "أرنولد توينبى" "Arnold Toynbee"^(٢).

١ - سيد الناصري ، ص ٧ ، وكذلك :

Toynbee A J A Study of History, London, 1935. 1961, Vol. I, II, III, p. 49 I, p. 49

٢ - تمثل نظرية توينبى في اعتقاده صياغة متطورة وأكثر صراحة ، لفلسفة بن خلدون في التاريخ ، وهذا ما سبرضه في دراسة مستقلة يرجح أن تشير قريباً . انظر أيضاً :

Toynbee op cit , Annex III to vol III , c(ii)(b), the Relativity of Ibn Khaldun's Historical Thought, pp. 473-476

قد يكون مفيداً أن نشير بإيجاز شديد ، إلى المقصود بفلسفات التاريخ والاتجاهات الرئيسية المختلفة التي سادت هذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية .
أولاً: مفهوم فلسفة التاريخ :

انصرف اصطلاح فلسفة التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، إلى تلك المحاولات التي قام بها بعض المفكرين ، كالمؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع ، لتفسير التاريخ بقصد استخلاص المعنى الذي قيل أنه يتضمنه ، أو بقصد معرفة الرسالة الخفية التي قيل أنه يحملها إلى الإنسانية . بعبارة أخرى ، كانت فلسفات التاريخ تهدف بالدرجة الأولى ، إلى معرفة الخطة العاقلة ، التي ادعى هؤلاء أن التاريخ يسير وفقاً لها ، سعياً وراء تحقيق هدف معين ، أو محاولة اكتشاف القوانين التي تحكم تطور المجتمع الإنساني ، والتي سلم فلاسفة التاريخ بوجودها ، ثم محاولة التنبؤ بعد اكتشاف هذه القوانين ، واعتماداً عليها ، بالغاية التي يسعى التاريخ إلى بلوغها .

وقد بدأ هذه المحاولات الفكرية عبدالرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ من الميلاد) في عمله الخالد " المقدمة ، " أي مقدمة كتابه المعروف " بتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " وإن بقيت/محاولة وحيدة ومجهولة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حتى بدأ "فيكو " Vico " (١٦٦٨ - ١٧٧٤) الفيلسوف الإيطالي التيار المعاصر في فلسفة التاريخ.

وبناء على ما سبق يمكن القول أن اصطلاح فلسفة التاريخ كان يعنى :

١- تفسير الأحداث التاريخية لمعرفة القوى الأساسية التي تشكلها ، أو القوانين

التي قيل إنها تحكم تطور المجتمع الإنساني .

٢- محاولة التنبؤ بمسيرة التاريخ ، لمعرفة الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ، وذلك

اعتماداً على هذه القوانين .

ويلاحظ أن فلسفات التاريخ عموماً لم تتبع الترتيب السابق ، أي لم يكن التنبؤ

بههدف التاريخ ، محصلة ما تعلمه على المفكر الذي تنبأ بهذا الهدف ، القوانين التي

سبق له أن اكتشفها . بل غالباً ما سبقت رؤيا Vision الفيلسوف للهدف أو غاية التاريخ ، اكتشافه لأى قانون للتطور التاريخي .

فضلاً عن هذا . لقد قامت هذه المحاولات عموماً على أساس الاعتقاد المطلق بوجود قوانين حتمية تحكم تطور المجتمع الإنسانى ، وأن مسئولية المفكر هى فى الكشف عنها . وكانت الحجة التى تساق لتبرير هذا الاعتقاد ، وبعبارة أدق هذا الادعاء . أنه لا فارق من حيث المبدأ بين المجتمع الإنسانى والوجود الطبيعى ، وأن كليهما يخضع لقوانين حتمية ، وإن كان اكتشاف القوانين التى تحكم تطور المجتمع الإنسانى أكثر صعوبة ، بسبب تعقد الظاهرة الإنسانية . باختصار : أن الفارق بين المجتمع الإنسانى والوجود الطبيعى فى رأى الكثيرين من فلاسفة التاريخ ، هو فارق من حيث الدرجة وليس اختلافاً فى طبيعة الأشياء .

وقد ترتب على هذا الاتجاه الذى ساد الدراسات التاريخية حتى عهد قريب ، أن سلم انصاره بأن :

١- أن ما حدث كان لابد أن يحدث ، وأن ما يحدث اليوم هو نتيجة أحداث أو مقدمات سبق وجودها فى الماضى . بعبارة أخرى : أن الحاضر محكوم بالماضى ، وهما معاً يحددان صورة المستقبل .

٢- إذا أمكن الكشف عن القوانين التى تحكم تطور المجتمع الإنسانى ، أمكن معرفة ما سيكون عليه هذا المجتمع فى المستقبل .

٣- إذا كان التاريخ يسير وفقاً لخطة حتمية ، وإذا كان ما حدث لابد أن يحدث ، إذن فلا محل للمسئولية الأخلاقية فى جانب البشر . ذلك لأن التسليم بحتمية الحدث ، يعنى انعدام حرية الإرادة الإنسانية ، وبالتالي انعدام المسئولية . هذا إذا سلمنا بأن المسئولية الأخلاقية تدور وجوداً وعدماً مع حرية الإرادة الإنسانية .

الاتجاهات الأساسية في فلسفة التاريخ :

يمكن أن نميز بالنسبة للاتجاهات الفكرية الأساسية التي حاولت أن تقدم تفسيراً للتاريخ ، بين ما يمكن وصفه بمرحلة التفسير الدينى والأخلاقى للتاريخ ، والاتجاه الفلسفى فى تفسير التاريخ .

١ - مرحلة التفسير الدينى والأخلاقى :

يقصد بالتفسير الدينى والأخلاقى للتاريخ ، اتجاه الإنسان إلى رد ما يحدث حوله من أحداث ووقائع إلى إرادة قوية عليا خارجة عن إرادته ، وأن هذه القوى العليا هى التى دفعت بالأحداث إلى ما انتهت إليه .

وقد حاول الإنسان فى فجر حياته اكتشاف هذه القوى العليا ، أو القدرة الخارقة التى نظمت الكون على النحو الذى هو عليه . ولما كانت قدرات الإنسان الذهنية فى فجر تاريخه محدودة ، فقد لجأ إلى الأساطير لتفسير ما يحدث حوله من أحداث وظواهر طبيعية .

ولما ظهرت الديانات السماوية : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، قدمت تفسيرات جديدة لخلق العالم وتطوره ، تقوم على أن عين الله الساهرة التى لا تنام تعاقب الطالح وتكافئ الصالح ، وأن النفوس الشريرة لن تهرب من نقمة الله وقصاصه . ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه "القديس أوغسطين" (٣٥٤ - ٤٣٠) من الميلاد) ، وهو من أشهر أباء الكنيسة الأوائل ، إلى أن إرادة الله وعنايته ، هى التى تشكل الأحداث التاريخية فجأة ، ودون أن يكون فى الإمكان توقعها . وقد ذهب "القديس أوغسطين" إلى أن إرادة الله هى التى جعلت من الإمبراطورية الرومانية أعظم الامبراطوريات ، وذلك حتى تكون أداة الله فى إزال العقاب بالأمم الجاحدة الكافرة بنعمته . ولهذا جعل الله "الإمبراطور قسطنطين" ، أول إمبراطور مسيحى ، يؤمن بأنه عبد نقى يلفظ عبادة الأوثان ، ويقود الإمبراطورية نحو إشراق الدين الجديد أى دعوة السيد المسيح " (١) .

١ - سببا التاريخى ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٧٢ ، ويشد البراوى ، التفسير القرائى للذابح ، سلسلة القرآن والعكر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٩٧ ، ما يهدها حسن حنن ، كسادح من الفلسفة المسيحية فى تفسير الوصية ، دار الكتب الجامعة ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١ وما بعدها وذلك

Grant, M, Ancient History, Methuen and Co. Ltd, London, p 14 et seq

ومن بين أنصار التفسير الدينى أو الأخلاقى "فولتير" Voltaire"، الذى أرجع سقوط الإمبراطورية الرومانية، إلى عاملين تمثل أولهما فى هجوم البرابرة الجرمان عليها، وتمثل ثانيهما فى اعتناق الإمبراطورية الدين المسيحى. إذ يرى "فولتير" أن الإمبراطورية عجزت عن التصدى لهذه الهجمات الجرمانية، لعدم وجود رجال عظام من عينة "ماريوس" يتصدون لانتفاذ الإمبراطورية، ولأن الإمبراطورية الرومانية، أصبحت لديها من الرهبان أكثر مما كان لها من الجنود والزعماء.

وينتمى إلى نفس الاتجاه، المؤرخ العظيم، "الدوارد جيبون" Edward Gibbon، الذى أرجع انهيار الإمبراطورية الرومانية، إلى انحطاط طبائع الرومان بسبب ضياع القيم والفضائل القديمة، ولأن المسيحية، فى اعتقاده، قد تسببت فى تدهور الروح المعنوية لهذا الشعب المحارب، وقضت على الطموح القومى، وحولتهم إلى شعب مسالم سلبى. ويضيف إلى ما سبق، أن المسيحية حولت الألفا من الرجال الأقوياء إلى قساوسة ورهبان، يعيشون فى الأديرة. بعبارة أخرى، لقد حرمت الرهبنة، الإمبراطورية الرومانية من قوى بشرية كانت فى أشد الحاجة إليها^(١).

٢- الاتجاه الفلسفى :

يقوم هذا الاتجاه عموماً على الاعتقاد بوجود خطة حتمية يسير التاريخ وفقاً لها، وبوجود هدف يسعى التاريخ لبلوغه ولا بد حتماً أن يبلغه. ولكن عند التساؤل عما هى هذه الخطة، وما هى القوانين التى تسير وفقاً لها، وما هى العوامل التى تشكل تاريخ الإنسانية وتحدد مسار التطور الاجتماعى. وعند التساؤل عما هى الرسالة الخفية التى يحملها التاريخ للإنسانية، فإننا نجد خلافاً عميقاً حول إجابة كل هذه التساؤلات. ونوجز فيما يلى الاتجاهات الرئيسية فى هذا الشأن.

١- سيد الباعرى، المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٣ وكذلك

Pines, "Thoughts on the Decline and Fall of the Roman Empire, Bulletin of Faculty of Arts, Cairo University, vol. xcIII, part I, may 1961.

رابط أيضاً عبدالحامى بن حطرون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٨ وما بعدها.

الاتجاه الأول : نظرية تعاقب الدورات التاريخية :

جوهر هذه الفكرة أن تاريخ الإنسانية يتكون من مجموعة من الدورات التاريخية المتعاقبة . وأن المجتمعات الإنسانية شأنها شأن الكائنات الحية تولد وتكبر وتنضج ، ثم يبلغها الهرم وتموت . وربما كان تعاقب الحضارات ، ومرور كل منها بدورة تكاد تكون واحدة : مولد أو نشأة الحضارة ثم نموها ، هو السند الأساسي لهذه النظرية .

ومن أشهر محبذى فكرة الدورة التاريخية ، "ابن خلدون" الذى قال إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص^(١) وكذلك الفيلسوف الإيطالى "فيكو" ، الذى قال فى كتابه " علم جديد New Science "، إن الأمم لا بد أن تمر فى تاريخها بمراحل معينة. وفى كل مرحلة من هذه المراحل تضيف جديداً إلى التراث الإنسانى. ومن المفكرين المحدثين الذين أخذوا بفكرة الدورة الفيلسوف الألمانى " شبنجلر " "Spengler"، الذى انتهى فى كتابه انهيار الغرب The Decline of the West إلى التنبؤ بانتهاء الحضارة الغربية المعاصرة.

الاتجاه الثانى : فكرة التقدم الإنسانى :

يقول بهذه الفكرة فلاسفة التاريخ الذين يؤمنون باتجاه المجتمع الإنسانى إلى التقدم والارتقاء نحو حياة أفضل . وقد ذهب بعض أنصار هذا الاتجاه ، إلى أن تقدم الإنسانية هو تقدم مطلق لا نهائى، بينما ذهب آخرون إلى أن التقدم الإنسانى محدود ببلوغ التاريخ هدفه، ومتى تحقق هذا الهدف توقف التقدم، أو أصبح غير متصور الحدوث .

ويمثل الفيلسوف الألمانى " كانط Kant " فكرة التقدم اللانهائى . فقد ذهب فى كتابه " فكرة التاريخ العالمى " "The Idea of Univesal History" إلى أن الطبيعة قد وضعت فى الجلس البشرى ، قدرات معينة تمكنه من التقدم والارتقاء إلى مالا نهاية^(٢).

١ - عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص

٢ - أسطر لمريد من التمهيل . أحمد وشاذ موسى ، مسعة ماركس فى التاريخ : دراسة نقدية ، سبق ذكره

أما فكرة التقدم الانساني المحدود ببلوغ التاريخ هدفه ، فيمثلها فى صورتها المثالية، الفيلسوف الالماني " هيغل " Hegel ، وفى صورتها المادية الفيلسوف الالماني "كارل ماركس" Karl Marx . إن جوهر فلسفة هيغل، كما يظهر من كتابه "فلسفة الحق" " Philosophy of Right "، أن تاريخ العالم ما هو إلا انعكاس أو سجل لتطور الفكر الإنسانى. كما يرى هيغل أن تطور الفكر مرده الصراع أو التنازع بين الأفكار.

فكل فكرة لابد أن تجد فكرة منافضة لها، ويؤدى التناقض أو الصراع بين الفكرتين إلى ظهور فكرة ثالثة جديدة ، هى بالضرورة أرقى من الفكرتين السابقتين عليها ، لأنها تتضمن محاسن كل منهما . وهذه الفكرة الجديدة لابد أن تجد نقيضا لها، لأنها ليست فكرة مطلقة . ويؤدى الصراع الجديد إلى ظهور فكرة رابعة وهكذا يتطور الفكر الإنسانى طبقا "لجدلية هيغل" أو "ثلاثيته المقدسة" ، حتى يصل الفكر الإنسانى إلى الفكرة المطلقة ، أو المعرفة المطلقة، وعندئذ يتوقف تقدم الفكر وتقدم الإنسانية .

وقد حل صراع الطبقات عند "ماركس" ، محل صراع الفكر عند "هيغل" . أى صراع الطبقات التى تملك ولا تنتج وتلك التى تنتج ولا تملك ، أى الصراع بين طبقة أصحاب رأس المال من ناحية وطبقة العمال أو " البروليتاريا " من ناحية أخرى . وهذا الصراع لابد أن ينتهى ، فى رأى "ماركس" عندما تصل النظم الرأسمالية إلى قمة تضجها ، إلى انتصار "البروليتاريا" وانهيار المجتمع الطبقي . ومتى تحقق ذلك توقفت مسيرة التاريخ ، لأن هدف التاريخ هو الوصول بالإنسانية إلى مجتمع لا طبقي!!!

القوى التى تشكل الأحداث التاريخية :

رأينا فيما سبق كيف أرجع أصحاب الاتجاه الدينى كل شئ إلى إرادة الخالق جل شأنه. أما الفلاسفة المعاصرون ، فقد اختلفوا فيما بينهم فى تحديد القوى التى تلعب الدور الرئيسى فى تشكيل تاريخ الإنسانية .

ذهب "عبدالرحمن بن خلدون" ، فى المقدمة ، إلى أن هناك ارتباطاً بين ازدهار الدولة أو الحضارة أو المدنية وقوة رابطة العصبية^(١) . فى حين قال آخرون ، إن هناك اختلافات عنصرية بين الاجناس ، وإن التفاوت الحضارى بين الشعوب ، ما هو إلا نتيجة هذه الاختلافات فى الخصائص العنصرية لها . وذهب فريق آخر إلى أن التفاوت الحضارى ، إنما يرجع إلى اختلاف خصائص البيئة الطبيعية والجغرافية والمناخية ، أو ما يعرف بنظرية " الحتم الجغرافى " . وقد رأينا أن " هيجل " اعتبر تاريخ العالم ما هو إلا انعكاس لتطور الفكر ، فى حين أصر " ماركس " على أن تطور المجتمعات البشرية ، إنما يحكمه قانون اقتصادى بحت ، وأن تاريخ العالم ما هو إلا تاريخ الصراع بين الطبقات ، أو تاريخ الاشكال المختلفة لتقسيم العمل . وقال كثيرون بأن عظماء الرجال يلعبون دوراً فذاً فى تشكيل تاريخ أممهم .

وحديثاً أخذت تتضح خطورة الاثار التى تلعبها الغرائز الجنسية وعواطف البشر فى هذا القطاع . وقال " برتراند رسل " " Russel " " وكارل بوبر " Popper " " إن الفكر وحده أو الفكر الذى تسنده الدعاية ، وكذلك القوى السياسية والعسكرية ، تؤثر تأثيراً خطيراً فى تاريخ الشعوب . هذا فى حين يعتقد ابن خلدون وتوينبى " أن العقائد الدينية تقوم بدور خطير فى تطور حضارة الإنسان . بل لقد ذهب " توينبى " إلى حد القول بأن سبب وجود الأديان reason d'être هو حاجة الإنسانية إلى حضارات جديدة .

عرضنا فيما سبق وبصفة عامة المفهوم التقليدى لفلسفة التاريخ . ولكن منذ بداية هذا القرن ، أخذ يقوى اتجاه جديد يقصد بفلسفة التاريخ : دراسة التاريخ دراسة نقدية على أسس موضوعية ، بغية فهم اتجاه ماض ، وتحديد أهم القوى التى تشكل الحدث التاريخى ، وبيان الاتجاهات Trends العامة لتطور الإنسانية . ولكن هذا الاتجاه لا يذهب إلى حد القول بوجود قوانين حتمية تحكم تطور المجتمع ، أو هدف حتمى يسعى التاريخ إلى تحقيقه . ولا شك أن هذا الاتجاه يختلف اختلافاً

١ - عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١١٢ وكذلك : صلاح الدين بسيونى رسائل، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٥ - ٨٤، خاصة ٢١ - ٢٥.

جوهرياً عن المفهوم التقليدي لفلسفة التاريخ، كما لابد أن لاحظ القارئ. ويمثل "ارنولد توينبي" الاتجاه الجديد في كتابة دراسة للتاريخ Study of History الذي ظهر الجزء الأول منه في عام ١٩٣٤. ومن أهم أسباب هذا التطور في معنى فلسفة التاريخ، تهازل المثالية أو فلسفة العقل المجرد، فضلاً عن سيطرة الفلسفة التجريبية والفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism على الفكر الغربي والعالمي. ثم الأخذ بهذه الفلسفة كأساس لنظرية المنهج العلمي، وخاصة فيما يتعلق بالمعرفة الإنسانية عن العالم الخارج عن الذات، وكمعيار لتحديد مفهوم المعرفة العلمية scientific knowledge ، والشروط التي تقرر بالرجوع إليها ما إذا كنا سنقبل أو نرفض نظرية ما .

نظرية التحدي والاستجابة :

لقد عاش الإنسان منذ ظهوره على أرض هذا الكوكب دهوراً طويلة ، قدرها البعض بما لا يقل عن ثلاثمائة ألف عام، في حالة من البدائية والانعطاط الحضاري تجعله أقرب إلى الوحشية منه إلى الإنسانية. وحوالي الألف الخامس والعشرين قبل الميلاد المجيد ، بدأ الإنسان، في لحظة حاسمة في تاريخه، مسيرته الطويلة نحو الحضارة والمدنية.

ما هي الأسباب التي جعلت الإنسان يقف وقفته الطويلة عند مستوى الإنسانية البدائية ، وما هي الأسباب التي دفعته إلى محاولة الفكاك من إسهار بدائيته ليضع أسس حضارات ومدنيت ؟

بعبارة أهم : كيف ترتب هذا على ذلك ؟

تلك كانت مشكلة " توينبي " الأسسمية . ويمثل اهتمامه بها اعتقاده بأن المؤرخ يستجيب في دراسته إلى نداء الله له كي يتتبع خلقه ، بالسعي إلى معرفته تعالى . وأن أقصى ما يتميز به دور المؤرخ في بناء التراث الإنساني ، أنه يقدم لنا في هذا التراث صورة لإبداع الخالق جل شأنه، كما يتمثل في اعتقاده في أن الأعمال

العقلية لكبار المؤرخين، ما هي الأنوع من الاستجابة لحدث خطير ، وأن هذه الاستجابة قد اتخذت شكل محاولة التشخيص التاريخي لهذا الحدث .

ويرى " توينبى " أن كوارث التاريخ ، تشير فى أكثر الحالات أعظم جهود المؤرخ كما تظهر أحسن ما فيه من قدرات . ذلك لأن الكوارث تتحدى نزعة التفاؤل الغريزية فى الإنسان . وهذا ما حدث له ، ولعبد الرحمن بن خلدون من قبله بعدة قرون ، عندما اعتزل فى قلعة بنى سلامة بتملمسان بالجزائر ، هرباً من حياة حافلة بالكوارث والمآسى والمؤامرات ، لينجز عملاً عبقرياً ، يمثل أحد انتصارات الإنسانية الفكرية (١) .

لقد ولد " توينبى " عام ١٨٨٩ ، وعاش ليرى آمال الجيل الذى سبق جيله وقد تبددت فى غلظة . لقد بدا لهذا الجيل أن الحضارة الغربية تسير بالبشرية نحو " الفردوس الموعود " ، فكيف تبددت أحلامه هكذا على نحو مفاجع ؟ عاش " توينبى " ليسمع أصداء السؤال الذى شغله طيلة حياته كيف ترتب هذا على ذلك ؟ وافدق وراء رغبته الصارمة فى كشف اللثام عن أحاجى التاريخ ، متأثراً بعاملين كان لهما فى اعتقاده ابعاد الأثر فى تكوينه الفكرى :

١- أن دراسته للتاريخ الإنسانى واتصال الحضارة الغربية بحضارات أخرى ، جعل من المستحيل عليه أن يتجاهل ، كما فعل بعض المؤرخين ، حضارات الإنسانية الأخرى .

٢- كما أن ثقافته الهيلينية أو الإغريقية ، قد أكسبته مناعة ضد التعصب القومى . إذ يشق على من تلقى مثل هذه الثقافة فى اعتقاده ، أن يقع بسهولة فى خطأ النظر إلى الحضارة المسيحية الغربية ، على أنها أعظم حضارة ظهرت إلى الوجود .

ومن ثم فقد وجد أن عليه أن يكشف ، بقصد المقارنة ، عن أكبر عدد من الظواهر التى تتصل بأنواع المدينات أو المجتمعات Societies المتماثلة ، التى لم تكن

١ - مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، ابن خلدون ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٢ ، ص ٥٣ - ٧٧ .

المدنية أو المجتمع الهيليني أو الغربي سوى اثنين منها. وعندما وجد أن أغلبية هذه المجتمعات أو الحضارات قد أصابها القناء، بدا له أنه لابد من أن يستنتج، أن القناء هو "احتمال" يواجه أى حضارة، بما فى ذلك الحضارة الغربية المعاصرة ١

أثارته كارثة القناء، وأراد أن يكشف عن الباب الذى اختلفت وراءه مدنيات وحضارات عديدة، بعد أن ازدهرت وأبنت حقبة من الزمن . ودفعه ذلك إلى دراسة ظاهرة انهيار المدنية ثم دراسة نشأتها وارتقاءها .

بدا دراسته بتحديد حقل الدراسة التاريخية ، وانتهى إلى أن هذا الحقل ليس الدولة أو الأمة ، لأنه لن يتأتى لتاريخ أى أمة بمفردها أن يفسر نفسه بنفسه ، لهذا رأى أن حقل الدراسة التاريخية هو "مجتمع" Society ، تعتبر الأمم أو الدول أعضاء فيه أو أجزاء منه أو على حد قوله :

'The intelligible field of historical study, in fact, appears to be society containing a number of communities .

ولهذا فإن العوامل المؤثرة فى تاريخ أى أمة من الأمم ، ليست قومية الطابع ، إنما تنبثق عن نطاق أوسع يتخطى الحدود الإقليمية للأمة. ولا يمكن فهم هذه العوامل ، إلا من خلال النظرة الشاملة إلى تأثيرها على المجتمع بأسره . ولكن هذا لا يعنى أن العامل أو السبب العام الواحد ، يؤثر فى أجزاء أو أعضاء المجتمع بطريقة واحدة لا تختلف من جزء لآخر . كما اعتقد توينبى أن كل عضو من أعضاء المجتمع ، إنما يؤثر فى هذا العامل أو السبب بطريقة الخاصة .

ويسواجه المجتمع وكل عضو من أعضائه فى حياته مشكلات متتابعة . وعلى كل عضو من أعضاء هذا المجتمع أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع . وتمثل كل مشكلة من هذه المشكلات ، تحدياً لكل عضو من أعضاء المجتمع ، يفرض عليه محنة أو معاناة يتعين عليه اجتيازها (١) .

(١) اعتمد "توينبى" فى تصنيف المجتمعات على معيار وحدة الكنيسة أو العقيدة العالمية كمعيار أساسى للمجتمعات .

وقد خلص " توينبى " من دراسته إلى تحديد واحد وعشرين مجتمعاً أو مدنية ، تشترك فيما بينها بخصائص أو ظواهر مشتركة . وقد انقرض معظم هذه المدنيات عدا خمس هي : المجتمع الغربى المسيحى ، المجتمع البيزنطى أو المسيحى الارثوذكسى وموطنه روسيا وجنوب شرق أوروبا ، والمجتمع الإسلامى والمجتمع الهندى ، ومجتمع أو مدنية الشرق الأقصى .

ومن بين المجتمعات التى انقرضت ، المجتمع المصرى القديم والمجتمع السومرى ، اللذان يمثلان أولى المدنيات التى عرفتھا الإنسانية . وقد ظهر المصرى ، فى رأى " توينبى " حوالى الألف السادس قبل الميلاد ^(١) . وإلى جانب هذه المجتمعات توجد مجتمعات غير متميزة الشخصية مثل اليهود . وبعض هذه المجتمعات أو المدنيات لا ينتمى إلى غيره ، مثل المدنية المصرية القديمة ، التى لم تتولد عن مدنية سابقة عليها ، كما لا يجوز ، فى رأى " توينبى " ، لأحد ادعاء الانتساب إليها . أما المدنيات الأخرى ، فتوجد بين بعضها علاقة قوية ، أطلق عليها توينبى "علاقة التلمذة" أو "التبعية" Apparentation and Affiliation . وتتمثل هذه أساساً فى بعض الظواهر الاجتماعية التى تربط مدنية وأخرى . ويمكن أن نوضح هذه التبعية بالرجوع إلى العلاقة بين "المجتمع الغربى" و"المجتمع الهيلينى" . ذلك لأن الامبراطورية الرومانية هى الدولة العالمية Universal State ، التى احتوت كل المجتمع الهيلينى وجعلته جماعة سياسية واحدة . وخلال الحقبة الأخيرة من حياته ، انقسم المجتمع الهيلينى إلى عدد من الدويلات ، انبثق المجتمع الغربى الهيلينى ، من بين الأطلال التى استحالت إليها المجتمع الهيلينى ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية .

(١) عاشت المدنية المصرية أطول حقبة عاشتها أى مدنية حتى الآن . ويرى " توينبى " أن المجتمع المصرى لم يكن له أباً ولا يجوز لأحد حق ادعاء الانتساب إليه . وهذا مما يريد من شأن فكرة الحدود التى رمت إليها مصر سد الأول ، وحققتها فى شكل أحرام من الحجر تمثل الدلائل الصامتة على وجود مشايخها . ولا يستبعد " توينبى " أن تبقى حتى بعد ماء الإنسان ذاته ، وحيت لم يبق على وجه السيف ، عقل بشرى واحد يطالع رسائلها .

Townsend , op, cit, pp. 44 - 146.

(٢) أنظر فيما بعد حول تاريخ سفلات الحضارة على أرض مصر .

بعبارة أخرى، لقد سبق ظهور الدولة العالمية، عصر أو زمن المتاعب Time of Troubles، وخلالها كان المجتمع الهيليني قد فقد قدرته على الخلق والإبداع، كما كان قد بدأ في الانهيار. وقد ساعد ظهور الدولة العالمية، على إيقاف هذا الانهيار إلى حين. ذلك لأن "زمن المتاعب" لم يكن في الحقيقة إلا أعراض مرض مميت، دفع "المجتمع الهيليني" في نهاية الأمر إلى الدمار.

وفي ذلك الجزء من الإمبراطورية الرومانية، الذي أصبح فيما بعد مهد المدنية الغربية، وخلال "الفراغ الزمني" "the vacuum in time-dimension" الذي يمثل عصر الانتقال من الحضارة الهيلينية إلى المسيحية الغربية، ظهرت بعض المؤسسات Institutions ذات الطبيعة المرحلية أو الانتقالية Transitional هي "الكنيسة أو العقيدة العالمية" Universal Church وبعض الدويلات المحلية، وإن كان هناك اختلافا جوهريا في طبيعة وأهمية كل من هاتين المؤسساتين.

لقد نشأت "الكنيسة" أو "الدين العالمي" خلال "زمن المتاعب" في تاريخ المجتمع الهيليني، نتيجة انتشار رسالة السيد المسيح عليه السلام، بين المغلوبين على أمرهم في الإمبراطورية الرومانية، أي بين غالبية أفراد المجتمع الهيليني، والذين أسماهم "ارنولد توينبي" البروليتاريا الداخلية "Internal Proletariat". وتمثل "العقيدة العالمية" الملجأ الروحي الذي خلقه المغلوبون على أمرهم من موارد الروحية والمادية، بعد أن تحولوا إلى غرباء داخل وطنهم، وعندما تحول "ورثة الملك الهيليني" إلى أقلية مهيمنة "Dominant Minority" تفرض بلبطش والقوة سلطتها على المغلوبين على أمرهم، بعد أن فقدت قدرتها على الخلق والإبداع الحضاري. كما أنها عجزت عن حمل الرسالة، التي حملها من قبل رواد تجربة من أعظم التجارب في تاريخ الحضارة الإنسانية، وأصبحت هذه الأقلية تعيش حياة هي الموت Life-in-death. حياة تمثل عبئا على من يحيها وعبئا على من يضحى ليجعل حياة هذه الأقلية ممكنة. ومن ثم لم يكن من المتصور إلا أن ينكر

المغلوب على أمره ولاعه على حاكمه الظالم ، وأن يعيش غريباً فى وطنه فى عزله عن حاكمه.

وإلى جانب كون الكنيسة أو العقيدة هى الوسيلة التى يجد المغلوب على أمره فيها خلاصه، فإنها تمثل أيضاً مصدر الخلق والإبداع، أو شرارة الحياة Spark of life أو بذرة الغرس الحضارى الجديد، الذى تولدت عنه الحضارة الغربية فيما بعد. فعندما انهارت الإمبراطورية، أو الشجرة القديمة التى نأكلت جذورها، بدأ الدين الجديد يستنشق نسيم الحياة، ويهبها الفرصة لخلق مجتمع جديد، على أنقاض المجتمع الذى انهار ثم اختفى وراء باب الغناء.

أما الدويلات المحلية، فقد أسسها على أنقاض الإمبراطورية الرومانية بعض القبائل البربرية، التى بدأت تغير على الإمبراطورية خلال فترة زمن المتاعب فى حياة المجتمع الهيلينى، عندما أصبح هذا المجتمع غير قادر على الدفاع عن نفسه. وقد أطلق توينبى على هؤلاء الغزاة " البروليتاريا الخارجية " External proletariat .

ويلاحظ أن هذه الدويلات المحلية التى ورثت الإمبراطورية، لم يكن لوجودها أهمية تذكر فى تاريخ المجتمع الذى اتبثق منه المجتمع الهيلينى، بل أنها انقرضت حتى قبل تمام انهيار الإمبراطورية.

وهكذا يتضح لنا أن "زمن المتاعب" فى تاريخ المجتمع الهيلينى يتسم بوجود ظواهر ثلاث :

" الدولة العالمية " Universal State التى تمثل محاولة أخيرة لإيقاف تدهور الحضارة القديمة دون جدوى، ولكنها فى الحقيقة لم تكن أكثر من بيت بنى على الرمال، انهار فى يسر تحست أقدام غزاة الإمبراطورية من القبائل البربرية. أو على حد تعبير توينبى إن الدولة العالمية تمثل ظاهرة تنتمى انتماء مطلقاً إلى ماضى ولى، وأن "البروليتاريا الخارجية" التى أتت من وراء حدود الإمبراطورية، إنما جاءت لتجهز أو تعجل بقاء حضارة، فقدت قدرتها على الخلق أو حتى على الحياة. وينتمى هؤلاء الغزاة كما هو حال الدولة العالمية ، إلى الماضى وحده. أما " الدين العالمى "

فهو ظاهرة الماضى والمستقبل، هو صرح قام على جبل صخرى، هو وميض الحياة الذى تحول إلى شعلة حملها إلى المجتمع الهيلينى، مواطنون من الشرق، وعلى نورها غرس المغلوبون على أمرهم شجرة الحضارة الجديدة على أرض وطن، أصبح خلال زمن المتاعب، غريباً عليهم لم يكن لهم فيه شأن، لأنه أنكر عليهم كل شئ عدا وجودهم المادى .

وهكذا أنهار المجتمع الهيلينى ، لأنه فقد قدرة الخلق ، وانبثق منه وعلى اتقاضه مجتمع ومدنية جديدة، هى المدنية الغربية .

وبعد أن خلص " توينبى " من دراسته لأصل المدينيات *Genesis of Civilization*، بدأ فى البحث عن الأسباب التى جعلت البشرية تظل أحقاباً طويلة فى إisar البدائية أو الوحشية، والأسباب التى جعلتها فى لحظة حاسمة تخطو خطواتها القذة نحو الحضارة والمدنية.

وقدم تفسيراً لوقف البشرية طويلاً عند مستوى الإنسانية البدائية *Primitive Humanity*، عندما كان الإنسان أقرب إلى الوحشية منه إلى الإنسانية، فكرة القصور الذاتى *Vis inertiae* أو التكامل *Integration* أو مكان الراحة *Resting* . وخلاصة هذه الفكرة، أن وقفة الإنسانية طويلاً عند مستوى البدائية، إنما ترجع إلى أن الراحة أسهل من الحركة خلال كل مراحل الحياة ، كما أن فى الراحة وفر فى الطاقة والجهد. وهذا الوفرة فى الطاقة، على فرض بقاء الأشياء الأخرى على حالها ، يمكن الإنسان من البقاء *Survival* . وهذا يفسر بقاء الكائن العضوى فى حالة تكامل أو راحة. وطالما أن الكائن قد نجح فى التلاؤم مع البيئة ، فقد يبقى دون تغير عصور جيولوجية بأكملها *Geological periods* . ولعل هذا يفسر لنا بقاء بعض الجماعات حتى اليوم فى عصورها الحجرية ، ووجود بعض أشكال الحياة البسيطة حتى اليوم *Archaic forms of life* . وقد أطلق توينبى على هذه المرحلة من تاريخ الإنسان، مرحلة " الين " *Yin-phase* " أو تكامل العادات أو التقاليد *Integration of customs*، وهى المرحلة التى لم يكن الإنسان

قد وصل خلالها إلى اكتمال إنسانيته. كما رأى أن هذه المرحلة تمثل عقبة في سبيل التغير أو التميز **Defferentiation** بشكل ملحوظ ، لأنها تعكس من البقاء دون حاجة إلى الإقدام على جديد . بعبارة أخرى، أن قوة المرحلة الحضارية التي اسمها " توينبى أيضا " "عادات القبيلة" أو "العشيرة" " **Customs of the tribe** " ، إنما تكمن في أن الميل إلى الراحة، متى تحقق للإنسان أمنه وسلامته ، إنما هو أقوى من الدافع الغريزي نحو الجديد أو المجهول ^(١).

وهكذا فسر " توينبى " المشكلة التي تتحدى دائماً فكر الباحثين وهي : لماذا عاشت البشرية كل هذه الدهور الطويلة في أصفاد وأغلال البدائية .

وبعد ذلك حاول أن يقدم تفسيراً لمشكلته الأخرى وهي : لماذا بعد هذه الوقفة الطويلة عند الانسانية البدائية ، بدأ الإنسان في لحظة حاسمة في تاريخه ، يترك " مرحلة لين " إلى "مرحلة الخلق الحضارى " ، أو ما اسمها توينبى "مرحلة اليانج" " **Yang Phase** " . أو بعبارة أخرى، لماذا ترك سكون القصور الذاتى ، ومرحلة تكامل التقاليد ، إلى الحركة الديناميكية التي يمثلها الخلق والإبداع الحضارى . أى لماذا ظهرت كل هذه المذنبات التي كشف عنها ؟ بعبارة أخرى . ما هو سبب نشأة المذنبية ؟

ونوجز فيما يلي آراءه في هذا الصدد :

(١) نظرية السمو أو التميز العنصرى :

بدأت أوروبا في القرن الخامس بعد الميلاد ، محاولتها السيطرة على العالم وفرض حضارتها على الدنيا بأسرها . وبعد قرون قدر لها أن تنجح في محاولتها الظالمة . وكان لبريطانيا الدور الأول في استعمار العالم غير الأوروبى . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الشمس لا تغرب عن إمبراطوريتها .

وشعر البريطانيون ، عند احتكاكهم بالشعوب غير الأوروبية المغلوبة على أمرها ، وتحت تأثير أفكار ومعتقدات ورثوها عن اليهود والعهد القديم ، أنهم أيضا

(١) " توينبى " "عادات القبيلة" أو "العشيرة" " **Customs of the tribe** " ، إنما تكمن في أن الميل إلى الراحة، متى تحقق للإنسان أمنه وسلامته ، إنما هو أقوى من الدافع الغريزي نحو الجديد أو المجهول ^(١).

شعب الله المختار، وأن بريطانيا هي " إسرائيل الجديدة " التي حملها الله رسالة الارتقاء بالجنس البشرى ، وأنهم يمثلون السلالات الممتازة من هذا الجنس . تلك السلالات التي وهبها الله سموا في الصفات نسيج وحده ، وقدرات فريدة في ذاتها ، فتعالوا على العالمين الذين لم يكونوا سوى مجموعة من الحشرات البشرية ، التي لا يمكن أن تقارن بشعب الله المختار الجديد .

وخلال هذه الحقبة ، بدأ الفكر الأوروبي وفي وجدانه كل هذه المعتقدات ، يحاول أن يجد تفسيراً لظاهرة التفاوت الحضارى ، وخاصة التفوق الواضح للمجتمع الغربى والحضارة الغربية ، على المجتمعات والحضارات الإنسانية الأخرى . وكان من بين النظريات التي لاقت رواجاً وظهرت في صياغات عديدة " النظرية العرقية أو العنصرية " Race theory ^(١) .

تذهب هذه النظرية إلى أن مولد أو نشأة الحضارة أو المدنية إنما يرجع إلى وجود صفات عرقية أو عنصرية روحية وبدنية و Distinctive spiritual and physical موروثاً، في الجماعات التي نجحت في الانتقال من حالة السكون إلى الحركة ، لكي تصنع حضارة . ويربط بعض أنصار هذه الفكرة بين السمات الطبيعية التي يتميز بها الإنسان، وما يتسم به من صفات ذهنية وروحية . ولكن أنصار هذه النظرية يختلفون عند تحديد السلالات البشرية التي تنقسم بهذه الصفات الفريدة ، وهل هي الجنس الأبيض كله ، أو النورديين فقط ، أو الأريين فقط ، على كل فإن الشئ المهم أن يكون الداعى لفكرة السمو العنصرى ، واحداً من الجماعة البشرية التي تنقسم بهذه القدرات الفذة !!!

وخلاصة الصياغة الأوروبية لهذه " النظرية " أن الجنس الأبيض أو بعض سلالاته، إنما يحتكر صفات عنصرية فريدة ، هي التي مكنته وحده ، من تحقيق أغلب ما حققته الإنسانية جمعاء من منجزات حضارية !!!

(١) انظر على سبيل المثال

de Gobineau, Le Comte J. A. Essai sur l'Inégalité des Races Humaines, Paris, 1853-5 vol 1, P 293

وقد ظهرت هذه النظرية ، كرد فعل للصراع بين العامة والطبقة الأرستقراطية في فرنسا ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكذلك.

وهكذا عادت إلى الوجود فكرة " شعب الله المختار " التي سيطرت على العقلية اليهودية قروناً طويلة ، فى صورة نظرية يقال إنها علمية ، وإن كانت فى صياغتها الحديثة تعكس الغرور والتعالى الذى عرف به بنساء الامبراطورية البريطانية أو "اسرائيل الجديدة " .

وقد رفض أرنولد توينبى هذه النظرية وانكر عليها أى سمة علمية . واستند فى رأيه على المبررات التالية :

١/١- من الثابت علمياً أنه ليس هناك خلاف يذكر فى التكوين الفسيولوجى بين الأجناس أو السلالات البشرية المختلفة .

٢/١- لا يمكن القول علمياً بأن هناك ارتباطاً بين الصفات الفسيولوجية والبدنية للإنسان ، وما يتسم به من صفات نفسية وروحية .

٣/١- جميع الأجناس البشرية قد ساهمت فى بناء المدنية الإنسانية ، وأنه يندر وجود مدنية لم يساهم فى بنائها أكثر من جنس واحد عدا الجنس الأسود .

٤/١- يمكن أن نفسر عدم قيام الجنس الأسود ، فى الماضى ، بدور يذكر فى بناء المدنية الإنسانية ، بالظروف غير الملائمة التى عاش أفراد هذا الجنس فى ظلها . ولكن ليس هناك ما يحول دون قيام هذا الجنس بدور فعال فى بناء المدنية الإنسانية ، وخاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار ، أن ما مضى من عمر المدنية الإنسانية أى حوالى عشرة آلاف عام ، إنما يمثل نسبة تافهة . مسن العمر المتوقع of life expectation لحضارة الإنسان .

٥/١- أن الكثير من الجماعات البشرية ، التى تنتمى إلى الأجناس التى يدعى أنها وحدها قادرة على الخلق والتميز الحضارى فى بناء المدنية الإنسانية ، لا زالت تعيش حتى الآن فى عصر بدائيتها ووحشيتها أو فى دهورها الحجرية . ومثال ذلك القبائل البدائية ، التى تنتمى إلى الجنس الأبيض فى الهند وأفغانستان وعلى جبال شمال غربى إفريقيا . وهناك جماعات بدائية أخرى ، تنتمى إلى الأجناس الأخرى ، فى كثير

من المناطق فى العالم، مثل استراليا وشمال امريكا الشمالية وغابات الامزون وفى الصين والهند الصينية، وفى الهند، وسومطرة... الخ^(١) .

(٢) نظرية البيئة أو الحتم الجغرافى :

تجد هذه النظرية أساساً لها فى الفكر الهيلينى أو الاغريقى . فعندما بدأت الحضارة الهيلينية فى الانتشار إلى أرض جديدة قرب نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، لاحظ الاغريق ان هناك اختلافاً بيناً بينهم وبين جيرانهم . وقد أرجع الفكر الاغريقى هذا الاختلاف، إلى التباين فى ظروف البيئة الطبيعية ، وأثر ذلك على الطبيعة الإنسانية المتجانسة . وعلى الرغم من أن الحل الاغريقى للمشكلة ، قد سبق الحل الذى قدمه الفكر الغربى المعاصر بعدة قرون، إلا أنه كان أكثر إنسانية وأقرب إلى الحل العلمى الرشيد . وقد حاول بعض المفكرين الاغريق ، اثبات صحة نظرية البيئة . بإعطاء أمثلة تبين أثر الحياة فى وادى النيل الأدنى ، على الخصائص الطبيعية والمعنوية للمصريين وما أقاموه من مؤسسات حضارية^(٢) .

وعلى الرغم من خلو نظرية البيئة من الاعتراضات الاخلاقية التى ترد على نظرية السمو العنصرى ، فقد رفضها " توينبى " هى الأخرى كتفسير لأصل الحضارة . يرى " توينبى " أنه من الضرورى لقبول نظرية البيئة كنظرية علمية أن توجد علاقة حتمية بين السبب والنتيجة . أى بين خصائص البيئة وأصل الحضارة ، فى أى حالة من حالات التحول من حالة السكون إلى حالة الحركة ، وفى ظل جميع الظروف . بعبارة أخرى، إذا كانت خصائص بيئية معينة قد أدت إلى نشأة حضارة معينة ، فلا بد أن تنشأ حضارة أخرى، تتفق فى سماتها مع هذه الحضارة ، فى كل بيئة تتسم بنفس الخصائص . وقد انتهى توينبى من دراساته إلى عدم توافق مثل هذه العلاقة السببية فى جميع الحالات .

(١) أنظر : Lynam, A op cit, vol 1, pp 207 et seq

(٢) أنظر

(٢) أنظر للمقارنة . عبد الرحمن أبى حنون، سبق ذكره، ص ٦٠ وما بعدها . وفى هذا سبق ابن خلدون الفقيه المعروف . المعاصر بعدة قرون .

إذا كانت خصائص البيئة الطبيعية في وادي النيل الأدنى ، هي سبب نشأة مدنية مصر الفرعونية، فقد كان ضرورياً حتى نسلم بتظريسة البيئة أو السحتم الجغرافى ، أن تنشأ حضارة مشابهة للحضارة المصرية، فى كل بيئة تتوافر فيها خصائص وادى النيل الأدنى . وهذا ما لم يحدث فى رأى "توينبى" .

حقاً لقد ظهرت حضارة فذة فى وادى دجلة والفرات حيث تتوافر السمات الجوهرية لبيئة وادى النيل الأدنى ، وكانت هذه الحضارة مستقلة عن حضارة وادى النيل ، ولكن هناك أمثلة كثيرة لأودية أنهار تسود بها ظروف ، تشبه الظروف التى وجدت فى "وادى النيل الأدنى" ، خلال هذه الحقبة من تاريخ الانسانية ، ولكن لم تنشأ بها حضارات فى نفس وقت ظهور حضارة مصر القديمة . وقدم "توينبى" أمثلة على ذلك "وادى الأردن" . فرغم توافر خصائص بيئة تشبه خصائص "وادى دجلة والفرات" ، وعلى الرغم من أن الأردن أقرب إلى مصر من الفرات ، لم تظهر حضارة مشابهة فى "وادى الأردن" . وكذلك تتوافر نفس خصائص بيئة النيل الأدنى فى أودية الأندلس ، ونهر كلورادو ونهر بيوجراندى فى جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية ، ورغم ذلك لم تظهر بها حضارات معاصرة لحضارات مصر القديمة . وقد انتهى توينبى إلى أن حضارتى النيل والفرات تمثل استثناءات لقاعدة عامة .

وقد حاول "توينبى" بيان صحة النتيجة التى وصل إليها بإعطاء أمثلة كثيرة لظهور الحضارة فى منطقة وعدم ظهورها فى مناطق كثيرة أخرى ، رغم توافر نفس الخصائص البيئية فى جميع الحالات .

فضلاً عما سبق ، فعلى الرغم من تشابه البيئة الانسانية فى أمريكا الشمالية وغرب أوروبا وروسيا ، فهناك اختلاف واضح فى ظروف البيئة الطبيعية بين هذه الدول .

(٣) نظرية التحدى والاستجابة :

نخلص مما سبق إلى أن توينبى يرفض قبول نظريسة النمو العنصرى كما يرفض نظرية البيئة " أو " الحتم الجغرافى " ، كتفسير لانطلاق البشرية من حالة

السكون إلى حالة الحركة ، خلال الفترة التي انقضت منذ ان بدأت الانسانية محاولة الفكاك من إسار البدائية إلى الحضارة . بعبارة أخرى لقد رفض توينبى هذه النظريات كتفسير أو كسبب لأصل المدنية.

وبعد أن فرغ من ذلك ، قدم لنا تفسيره لظاهرة الحضارة ، وأعنى بذلك "نظرية التحدى والاستجابة " " Challenge and Response " . تلك النظرية التي تجد أصل الحضارة فى نوع من رد الفعل Reaction أو الحوار Encounter بين البيئة والإنسان. وقد ذهب "توينبى" إلى أن هذه المحاورة بين الإنسان والبيئة تمثل عقدة أو مؤامرة Plot التاريخ ، وإلى أن عملية الخلق ما هى إلا نتيجة هذا الحوار ، أى أن الخلق الحضارى ما هو إلا نتيجة رد فعل أو على حد قوله :

" Creation is the out come of an encounter or-to re-translate the imaginaty myth into terminology of science, that genesis is an outcome of interaction "

وقد حاول "توينبى" معرفة إلى أى مدى يمكن أن تقبل نظرية التحدى والاستجابة كتفسير لأصل الحضارة ، من خلال مراجعة أسباب نشأة الحضارات أو المدنيات التي كشف عنها دراسته لتاريخ الحضارة الإنسانية ، يقصد بيان إلى أى مدى يمكن أن تفسر هذه النظرية نشأة الحضارة أو المدنية .

ويمكن بيان الأفكار الجوهرية فى نظرية التحدى، من خلال عرض موجز لتفسير "توينبى" لنشأة حضارة مصر الفرعونية . يرى "توينبى" أن هذه الحضارة كانت وليدة استجابة بعض سكان منطقة شمال افريقيا ، لنوع من التحدى المادى ، الذى تمثل فى التغير الذى طرأ على الظروف المناخية ، التى كانت سائدة فى هذه المنطقة فى العصر الحجرى القديم .

فبعد نهاية العصر الجليدى The Ice age ، أخذت المنطقة العشبية الممتدة من شمال افريقيا وجزيرة العرب وحتى الهند من ناحية ، وجنوب أسبانيا من ناحية أخرى ، تتعرض لتغيرات خطيرة فى مناخها . وقد أعقب ذلك ظهور مدينيتين أو أكثر

فى المنطقة ، التى كان يعيش فيها من قبل بعض الجماعات البدائية فى العصر الحجرى القديم . وقد اعتقد "توينبى" ان نشأة هذه المدليات إنما يشكل استجابة الانسان للتحدى المادى الذى فرضته البيئة، والذى تمثل فى تقلص الجليد نحو شمال اوروبا ، وما ترتب على ذلك من تحول رياح الاطلنطى المطيرة من حوض جنوب البحر الأبيض ، إلى مسارها الحالى وسط أوروبا^(١). وكان على سكان المناطق العشبية، الذين عاشوا على جمع القوت والصيد خلال أحقاب طويلة، ونتيجة لهذا التغير الخطير فى ظروف البيئة الطبيعية، الاختيار بين البدائل الآتية:

١- أما الهجرة إلى الشمال أو نحو الجنوب، لكى يعيشوا فى ظروف مناخية تشبه الظروف التى اعتادوها .

٢- البقاء حيث عاشوا من قبل ، يلتقطون ما قد تجود به عليهم البيئة التى أجدبت بعد أن عمها الجفاف .

٣- البقاء حيث عاشوا من قبل ، مع محاولة الخلاص من أصفاد الاعتماد المطلق على البيئة ، باستئناس الحيوان وزراعة الأرض .

وقد كان الفناء هو المصير المحتوم لتلك الجماعات البشرية التى عاشت على جمع القوت والصيد، والتى عجزت تماماً عن الاستجابة للتحدى الذى مثله تغير المناخ، بتغير موطنها أو أسلوب حياتها . أما الذين تمسكوا بموطنهم الأسمى ، ولكنهم غيروا أسلوب حياتهم وتحولوا من جامعى قوت وصيادين إلى رعاة فقد أصبحوا رعاة المنطقة. أما الذين اختاروا تغيير موطنهم من أجل الإبقاء على نمط الحياة التى اعتادوه ، واتجهوا نحو الجنوب، رغبة فى الإبقاء على نمط حياتهم ، فكان عليهم مواجهة تأثير الظروف المناخية الرتيبة فى المناطق الحارة . أما الجماعات البشرية التى اتجهت إلى الشمال ، فقابلت تحدياً قاسياً أبقت فيهم قدرات خلاقة . أما الجماعات البشرية التى قابلت التحدى ، بأن غيرت موطنها الأسمى وأسلوب حياتها ، فقد كانت

استجابتهم المزدوجة الفسادة هى التصرف "الديناميكي" **Dynamic act** أو العمل

1- Tynbce, A op cit pp 249et seq, especially, pp 302-315 and the Uniformity Theory and the Deflection Theory, annex to (1) (b), pp 424-440, and Vol 1, pp 128-129, and 136-146

المبدع ، الذى خلق حضارتين رائعتين هما المصرية والسومارية ، وكان التغيير الذى طرأ على أسلوب حياة هذه الجماعات الخلاقة ، هو التحول من جمع القوت ، إلى زراعة وادى النهر الذى كانت تغطيه المستنقعات واحراش الغابات والبردى ،^(١) وهى بيئة لم تكن قد وطأتها قدم انسان من قبل . وكانوا فيما اقدموا عليه افذاذاً مبدعين . إذ جعلوا من الأرض الموحشة التى استعصت على الإنسان فردوساً على اخصب ارض عرفتها الدنيا ، وأفضل مكان لحياة الإنسان^{(٢)(١)} .

وهكذا خلقت حضارة مصر وأرض مصر ، من خلال الاستجابة للتحدي العساذى الذى فرضته الطبيعة ، على جماعات خلاقة من جامعى القوت والصيادين . وأن مصر التى عرفها العيوم هى " هبة الإنسان " بقدر ما هى " هبة النيل " .

وإذا كانت فكرة التحدى والاستجابة تفسر لنا نشأة المدنية المصرية ومدنيات غيرها مثل مدنية سومر ، وهى مدنيات متبئة الصلة بغيرها من المدنيات ، فإن نفس الفكرة تصلح لتفسير نشأة المدنية فى حالة المدنيات التى على صلة بمدنيات سبققتها. وفى هذه الحالة الأخيرة قد يكون مصدر التحدى البيئة الطبيعية، كما قد يكون مصدر التحدى هو البيئة الإنسانية^(٣). ونشير فيما يلى فى شئ من التفصيل الى نشأة المدنية كاستجابة لتحدي فرضته البيئة الإنسانية .

يبدأ التحدى الإنسانى فى الظهور ، عندما تبدأ المدنية تفقد قدرتها على الخلق.

تلك القدرة التى خلقت خلال فترة النمو، فى قلوب أفراد المجتمع وأناس خارج حدوده،

(١) لمزيد من التفصيل عن البيئة الحيوانية والنباتية فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ انظر مثلاً:

Anderson, *Ecology of Egypt*, Newberry P. B. Egypt as a field for Anthropological Research, British Association for the Advancement of Science, Report of the 91 meeting, Liverpool, 1923, Lyons, H. O. *Physiography of the River Nile and its Basin*, Cairo, 1906. National Printing Department; and Teynbee op. cit. pp. 402-415.

(٢) الأراجيح التى نحتت كانت أولاً من مناطق مصادر المياه الأكثر ملاءمة من ناحية الطهارة (١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٢).

شجرة العبرم هى نسب هذه الأماكن، كما سنرى فيما بعد.

(٣) وجد " نوبى " ان التحدى فى حالة المدنيات المتقدمة كان مادياً ، أما فى حالة المدنيات المتخلفة فكان مادياً وروحياً (١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٢، ١٩٠٣، ١٩٠٤، ١٩٠٥، ١٩٠٦، ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦، ١٩١٧، ١٩١٨، ١٩١٩، ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٣، ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٨، ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١، ١٩٣٢، ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٥، ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨، ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١، ١٩٤٢، ١٩٤٣، ١٩٤٤، ١٩٤٥، ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦١، ١٩٦٢، ١٩٦٣، ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٧٨، ١٩٧٩، ١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨، ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٠، ٢٠١١، ٢٠١٢، ٢٠١٣، ٢٠١٤، ٢٠١٥، ٢٠١٦، ٢٠١٧، ٢٠١٨، ٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٢، ٢٠٢٣، ٢٠٢٤، ٢٠٢٥، ٢٠٢٦، ٢٠٢٧، ٢٠٢٨، ٢٠٢٩، ٢٠٣٠، ٢٠٣١، ٢٠٣٢، ٢٠٣٣، ٢٠٣٤، ٢٠٣٥، ٢٠٣٦، ٢٠٣٧، ٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٢٠٤٠، ٢٠٤١، ٢٠٤٢، ٢٠٤٣، ٢٠٤٤، ٢٠٤٥، ٢٠٤٦، ٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٤٩، ٢٠٥٠، ٢٠٥١، ٢٠٥٢، ٢٠٥٣، ٢٠٥٤، ٢٠٥٥، ٢٠٥٦، ٢٠٥٧، ٢٠٥٨، ٢٠٥٩، ٢٠٦٠، ٢٠٦١، ٢٠٦٢، ٢٠٦٣، ٢٠٦٤، ٢٠٦٥، ٢٠٦٦، ٢٠٦٧، ٢٠٦٨، ٢٠٦٩، ٢٠٧٠، ٢٠٧١، ٢٠٧٢، ٢٠٧٣، ٢٠٧٤، ٢٠٧٥، ٢٠٧٦، ٢٠٧٧، ٢٠٧٨، ٢٠٧٩، ٢٠٨٠، ٢٠٨١، ٢٠٨٢، ٢٠٨٣، ٢٠٨٤، ٢٠٨٥، ٢٠٨٦، ٢٠٨٧، ٢٠٨٨، ٢٠٨٩، ٢٠٩٠، ٢٠٩١، ٢٠٩٢، ٢٠٩٣، ٢٠٩٤، ٢٠٩٥، ٢٠٩٦، ٢٠٩٧، ٢٠٩٨، ٢٠٩٩، ٢١٠٠، ٢١٠١، ٢١٠٢، ٢١٠٣، ٢١٠٤، ٢١٠٥، ٢١٠٦، ٢١٠٧، ٢١٠٨، ٢١٠٩، ٢١١٠، ٢١١١، ٢١١٢، ٢١١٣، ٢١١٤، ٢١١٥، ٢١١٦، ٢١١٧، ٢١١٨، ٢١١٩، ٢١٢٠، ٢١٢١، ٢١٢٢، ٢١٢٣، ٢١٢٤، ٢١٢٥، ٢١٢٦، ٢١٢٧، ٢١٢٨، ٢١٢٩، ٢١٣٠، ٢١٣١، ٢١٣٢، ٢١٣٣، ٢١٣٤، ٢١٣٥، ٢١٣٦، ٢١٣٧، ٢١٣٨، ٢١٣٩، ٢١٤٠، ٢١٤١، ٢١٤٢، ٢١٤٣، ٢١٤٤، ٢١٤٥، ٢١٤٦، ٢١٤٧، ٢١٤٨، ٢١٤٩، ٢١٥٠، ٢١٥١، ٢١٥٢، ٢١٥٣، ٢١٥٤، ٢١٥٥، ٢١٥٦، ٢١٥٧، ٢١٥٨، ٢١٥٩، ٢١٦٠، ٢١٦١، ٢١٦٢، ٢١٦٣، ٢١٦٤، ٢١٦٥، ٢١٦٦، ٢١٦٧، ٢١٦٨، ٢١٦٩، ٢١٧٠، ٢١٧١، ٢١٧٢، ٢١٧٣، ٢١٧٤، ٢١٧٥، ٢١٧٦، ٢١٧٧، ٢١٧٨، ٢١٧٩، ٢١٨٠، ٢١٨١، ٢١٨٢، ٢١٨٣، ٢١٨٤، ٢١٨٥، ٢١٨٦، ٢١٨٧، ٢١٨٨، ٢١٨٩، ٢١٩٠، ٢١٩١، ٢١٩٢، ٢١٩٣، ٢١٩٤، ٢١٩٥، ٢١٩٦، ٢١٩٧، ٢١٩٨، ٢١٩٩، ٢٢٠٠، ٢٢٠١، ٢٢٠٢، ٢٢٠٣، ٢٢٠٤، ٢٢٠٥، ٢٢٠٦، ٢٢٠٧، ٢٢٠٨، ٢٢٠٩، ٢٢١٠، ٢٢١١، ٢٢١٢، ٢٢١٣، ٢٢١٤، ٢٢١٥، ٢٢١٦، ٢٢١٧، ٢٢١٨، ٢٢١٩، ٢٢٢٠، ٢٢٢١، ٢٢٢٢، ٢٢٢٣، ٢٢٢٤، ٢٢٢٥، ٢٢٢٦، ٢٢٢٧، ٢٢٢٨، ٢٢٢٩، ٢٢٣٠، ٢٢٣١، ٢٢٣٢، ٢٢٣٣، ٢٢٣٤، ٢٢٣٥، ٢٢٣٦، ٢٢٣٧، ٢٢٣٨، ٢٢٣٩، ٢٢٤٠، ٢٢٤١، ٢٢٤٢، ٢٢٤٣، ٢٢٤٤، ٢٢٤٥، ٢٢٤٦، ٢٢٤٧، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩، ٢٢٥٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٢٥٣، ٢٢٥٤، ٢٢٥٥، ٢٢٥٦، ٢٢٥٧، ٢٢٥٨، ٢٢٥٩، ٢٢٦٠، ٢٢٦١، ٢٢٦٢، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٦٥، ٢٢٦٦، ٢٢٦٧، ٢٢٦٨، ٢٢٦٩، ٢٢٧٠، ٢٢٧١، ٢٢٧٢، ٢٢٧٣، ٢٢٧٤، ٢٢٧٥، ٢٢٧٦، ٢٢٧٧، ٢٢٧٨، ٢٢٧٩، ٢٢٨٠، ٢٢٨١، ٢٢٨٢، ٢٢٨٣، ٢٢٨٤، ٢٢٨٥، ٢٢٨٦، ٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٢٨٩، ٢٢٩٠، ٢٢٩١، ٢٢٩٢، ٢٢٩٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٥، ٢٢٩٦، ٢٢٩٧، ٢٢٩٨، ٢٢٩٩، ٢٣٠٠، ٢٣٠١، ٢٣٠٢، ٢٣٠٣، ٢٣٠٤، ٢٣٠٥، ٢٣٠٦، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨، ٢٣٠٩، ٢٣١٠، ٢٣١١، ٢٣١٢، ٢٣١٣، ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٣١٦، ٢٣١٧، ٢٣١٨، ٢٣١٩، ٢٣٢٠، ٢٣٢١، ٢٣٢٢، ٢٣٢٣، ٢٣٢٤، ٢٣٢٥، ٢٣٢٦، ٢٣٢٧، ٢٣٢٨، ٢٣٢٩، ٢٣٣٠، ٢٣٣١، ٢٣٣٢، ٢٣٣٣، ٢٣٣٤، ٢٣٣٥، ٢٣٣٦، ٢٣٣٧، ٢٣٣٨، ٢٣٣٩، ٢٣٤٠، ٢٣٤١، ٢٣٤٢، ٢٣٤٣، ٢٣٤٤، ٢٣٤٥، ٢٣٤٦، ٢٣٤٧، ٢٣٤٨، ٢٣٤٩، ٢٣٥٠، ٢٣٥١، ٢٣٥٢، ٢٣٥٣، ٢٣٥٤، ٢٣٥٥، ٢٣٥٦، ٢٣٥٧، ٢٣٥٨، ٢٣٥٩، ٢٣٦٠، ٢٣٦١، ٢٣٦٢، ٢٣٦٣، ٢٣٦٤، ٢٣٦٥، ٢٣٦٦، ٢٣٦٧، ٢٣٦٨، ٢٣٦٩، ٢٣٧٠، ٢٣٧١، ٢٣٧٢، ٢٣٧٣، ٢٣٧٤، ٢٣٧٥، ٢٣٧٦، ٢٣٧٧، ٢٣٧٨، ٢٣٧٩، ٢٣٨٠، ٢٣٨١، ٢٣٨٢، ٢٣٨٣، ٢٣٨٤، ٢٣٨٥، ٢٣٨٦، ٢٣٨٧، ٢٣٨٨، ٢٣٨٩، ٢٣٩٠، ٢٣٩١، ٢٣٩٢، ٢٣٩٣، ٢٣٩٤، ٢٣٩٥، ٢٣٩٦، ٢٣٩٧، ٢٣٩٨، ٢٣٩٩، ٢٤٠٠، ٢٤٠١، ٢٤٠٢، ٢٤٠٣، ٢٤٠٤، ٢٤٠٥، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، ٢٤٠٨، ٢٤٠٩، ٢٤١٠، ٢٤١١، ٢٤١٢، ٢٤١٣، ٢٤١٤، ٢٤١٥، ٢٤١٦، ٢٤١٧، ٢٤١٨، ٢٤١٩، ٢٤٢٠، ٢٤٢١، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٢٤٢٤، ٢٤٢٥، ٢٤٢٦، ٢٤٢٧، ٢٤٢٨، ٢٤٢٩، ٢٤٣٠، ٢٤٣١، ٢٤٣٢، ٢٤٣٣، ٢٤٣٤، ٢٤٣٥، ٢٤٣٦، ٢٤٣٧، ٢٤٣٨، ٢٤٣٩، ٢٤٤٠، ٢٤٤١، ٢٤٤٢، ٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٢٤٤٥، ٢٤٤٦، ٢٤٤٧، ٢٤٤٨، ٢٤٤٩، ٢٤٥٠، ٢٤٥١، ٢٤٥٢، ٢٤٥٣، ٢٤٥٤، ٢٤٥٥، ٢٤٥٦، ٢٤٥٧، ٢٤٥٨، ٢٤٥٩، ٢٤٦٠، ٢٤٦١، ٢٤٦٢، ٢٤٦٣، ٢٤٦٤، ٢٤٦٥، ٢٤٦٦، ٢٤٦٧، ٢٤٦٨، ٢٤٦٩، ٢٤٧٠، ٢٤٧١، ٢٤٧٢، ٢٤٧٣، ٢٤٧٤، ٢٤٧٥، ٢٤٧٦، ٢٤٧٧، ٢٤٧٨، ٢٤٧٩، ٢٤٨٠، ٢٤٨١، ٢٤٨٢، ٢٤٨٣، ٢٤٨٤، ٢٤٨٥، ٢٤٨٦، ٢٤٨٧، ٢٤٨٨، ٢٤٨٩، ٢٤٩٠، ٢٤٩١، ٢٤٩٢، ٢٤٩٣، ٢٤٩٤، ٢٤٩٥، ٢٤٩٦، ٢٤٩٧، ٢٤٩٨، ٢٤٩٩، ٢٥٠٠، ٢٥٠١، ٢٥٠٢، ٢٥٠٣، ٢٥٠٤، ٢٥٠٥، ٢٥٠٦، ٢٥٠٧، ٢٥٠٨، ٢٥٠٩، ٢٥١٠، ٢٥١١، ٢٥١٢، ٢٥١٣، ٢٥١٤، ٢٥١٥، ٢٥١٦، ٢٥١٧، ٢٥١٨، ٢٥١٩، ٢٥٢٠، ٢٥٢١، ٢٥٢٢، ٢٥٢٣، ٢٥٢٤، ٢٥٢٥، ٢٥٢٦، ٢٥٢٧، ٢٥٢٨، ٢٥٢٩، ٢٥٣٠، ٢٥٣١، ٢٥٣٢، ٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦، ٢٥٣٧، ٢٥٣٨، ٢٥٣٩، ٢٥٤٠، ٢٥٤١، ٢٥٤٢، ٢٥٤٣، ٢٥٤٤، ٢٥٤٥، ٢٥٤٦، ٢٥٤٧، ٢٥٤٨، ٢٥٤٩، ٢٥٥٠، ٢٥٥١، ٢٥٥٢، ٢٥٥٣، ٢٥٥٤، ٢٥٥٥، ٢٥٥٦، ٢٥٥٧، ٢٥٥٨، ٢٥٥٩، ٢٥٦٠، ٢٥٦١، ٢٥٦٢، ٢٥٦٣، ٢٥٦٤، ٢٥٦٥، ٢٥٦٦، ٢٥٦٧، ٢٥٦٨، ٢٥٦٩، ٢٥٧٠، ٢٥٧١، ٢٥٧٢، ٢٥٧٣، ٢٥٧٤، ٢٥٧٥، ٢٥٧٦، ٢٥٧٧، ٢٥٧٨، ٢٥٧٩، ٢٥٨٠، ٢٥٨١، ٢٥٨٢، ٢٥٨٣، ٢٥٨٤، ٢٥٨٥، ٢٥٨٦، ٢٥٨٧، ٢٥٨٨، ٢٥٨٩، ٢٥٩٠، ٢٥٩١، ٢٥٩٢، ٢٥٩٣، ٢٥٩٤، ٢٥٩٥، ٢٥٩٦، ٢٥٩٧، ٢٥٩٨، ٢٥٩٩، ٢٦٠٠، ٢٦٠١، ٢٦٠٢، ٢٦٠٣، ٢٦٠٤، ٢٦٠٥، ٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨، ٢٦٠٩، ٢٦١٠، ٢٦١١، ٢٦١٢، ٢٦١٣، ٢٦١٤، ٢٦١٥، ٢٦١٦، ٢٦١٧، ٢٦١٨، ٢٦١٩، ٢٦٢٠، ٢٦٢١، ٢٦٢٢، ٢٦٢٣، ٢٦٢٤، ٢٦٢٥، ٢٦٢٦، ٢٦٢٧، ٢٦٢٨، ٢٦٢٩، ٢٦٣٠، ٢٦٣١، ٢٦٣٢، ٢٦٣٣، ٢٦٣٤، ٢٦٣٥، ٢٦٣٦، ٢٦٣٧، ٢٦٣٨، ٢٦٣٩، ٢٦٤٠، ٢٦٤١، ٢٦٤٢، ٢٦٤٣، ٢٦٤٤، ٢٦٤٥، ٢٦٤٦، ٢٦٤٧، ٢٦٤٨، ٢٦٤٩، ٢٦٥٠، ٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٢٦٥٣، ٢٦٥٤، ٢٦٥٥، ٢٦٥٦، ٢٦٥٧، ٢٦٥٨، ٢٦٥٩، ٢٦٦٠، ٢٦٦١، ٢٦٦٢، ٢٦٦٣، ٢٦٦٤، ٢٦٦٥، ٢٦٦٦، ٢٦٦٧، ٢٦٦٨، ٢٦٦٩، ٢٦٧٠، ٢٦٧١، ٢٦٧٢، ٢٦٧٣، ٢٦٧٤، ٢٦٧٥، ٢٦٧٦، ٢٦٧٧، ٢٦٧٨، ٢٦٧٩، ٢٦٨٠، ٢٦٨١، ٢٦٨٢، ٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥، ٢٦٨٦، ٢٦٨٧، ٢٦٨٨، ٢٦٨٩، ٢٦٩٠، ٢٦٩١، ٢٦٩٢، ٢٦٩٣، ٢٦٩٤، ٢٦٩٥، ٢٦٩٦، ٢٦٩٧، ٢٦٩٨، ٢٦٩٩، ٢٧٠٠، ٢٧٠١، ٢٧٠٢، ٢٧٠٣، ٢٧٠٤، ٢٧٠٥، ٢٧٠٦، ٢٧٠٧، ٢٧٠٨، ٢٧٠٩، ٢٧١٠، ٢٧١١، ٢٧١٢، ٢٧١٣، ٢٧١٤، ٢٧١٥، ٢٧١٦، ٢٧١٧، ٢٧١٨، ٢٧١٩، ٢٧٢٠، ٢٧٢١، ٢٧٢٢، ٢٧٢٣، ٢٧٢٤، ٢٧٢٥، ٢٧٢٦، ٢٧٢٧، ٢٧٢٨، ٢٧٢٩، ٢٧٣٠، ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٢٧٣٣، ٢٧٣٤، ٢٧٣٥، ٢٧٣٦، ٢٧٣٧، ٢٧٣٨، ٢٧٣٩، ٢٧٤٠، ٢٧٤١، ٢٧٤٢، ٢٧٤٣، ٢٧٤٤، ٢٧٤٥، ٢٧٤٦، ٢٧٤٧، ٢٧٤٨، ٢٧٤٩، ٢٧٥٠، ٢٧٥١، ٢٧٥٢، ٢٧٥٣، ٢٧٥٤، ٢٧٥٥، ٢٧٥٦، ٢٧٥٧، ٢٧٥٨، ٢٧٥٩، ٢٧٦٠، ٢٧٦١، ٢٧٦٢، ٢٧٦٣، ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، ٢٧٦٧، ٢٧٦٨، ٢٧٦٩، ٢٧٧٠، ٢٧٧١، ٢٧٧٢، ٢٧٧٣، ٢٧٧٤، ٢٧٧٥، ٢٧٧٦، ٢٧٧٧، ٢٧٧٨، ٢٧٧٩، ٢٧٨٠، ٢٧٨١، ٢٧٨٢، ٢٧٨٣، ٢٧٨٤، ٢٧٨٥، ٢٧٨٦، ٢٧٨٧، ٢٧٨٨، ٢٧٨٩، ٢٧٩٠، ٢٧٩١، ٢٧٩٢، ٢٧٩٣، ٢٧٩٤، ٢٧٩٥، ٢٧٩٦، ٢٧٩٧، ٢٧٩٨، ٢٧٩٩، ٢٨٠٠، ٢٨٠١، ٢٨٠٢، ٢٨٠٣، ٢٨٠٤، ٢٨٠٥، ٢٨٠٦، ٢٨٠٧، ٢٨٠٨، ٢٨٠٩، ٢٨١٠، ٢٨١١، ٢٨١٢، ٢٨١٣، ٢٨١٤، ٢٨١٥، ٢٨١٦، ٢٨١٧، ٢٨١٨، ٢٨١٩، ٢٨٢٠، ٢٨٢١، ٢٨٢٢، ٢٨٢٣، ٢٨٢٤، ٢٨٢٥، ٢٨٢٦، ٢٨٢٧، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩، ٢٨٣٠، ٢٨٣١، ٢٨٣٢، ٢٨٣٣، ٢٨٣٤، ٢٨٣٥، ٢٨٣٦، ٢٨٣٧، ٢٨٣٨، ٢٨٣٩، ٢٨٤٠، ٢٨٤١، ٢٨٤٢، ٢٨٤٣، ٢٨٤٤، ٢٨٤٥، ٢٨٤٦، ٢٨٤٧، ٢٨٤٨، ٢٨٤٩، ٢٨٥٠، ٢٨٥١، ٢٨٥٢، ٢٨٥٣، ٢٨٥٤، ٢٨٥٥، ٢٨٥٦، ٢٨٥٧، ٢٨٥٨، ٢٨٥٩، ٢٨٦٠، ٢٨٦١، ٢٨٦٢، ٢٨٦٣، ٢٨٦٤، ٢٨٦٥، ٢٨٦٦، ٢٨٦٧، ٢٨٦٨، ٢٨٦٩، ٢٨٧٠، ٢٨٧١، ٢٨٧٢، ٢٨٧٣، ٢٨٧٤، ٢٨٧٥، ٢٨٧٦، ٢٨٧٧، ٢٨٧٨، ٢٨٧٩، ٢٨٨٠، ٢٨٨١، ٢٨٨٢، ٢٨٨٣، ٢٨٨٤، ٢٨٨٥، ٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٢٨٨٨، ٢٨٨٩، ٢٨٩٠، ٢٨٩١، ٢٨٩٢، ٢٨٩٣، ٢٨٩٤، ٢٨٩٥، ٢٨٩٦، ٢٨٩٧، ٢٨٩٨، ٢٨٩٩، ٢٩٠٠، ٢٩٠١، ٢٩٠٢، ٢٩٠٣، ٢٩٠٤، ٢٩٠٥، ٢٩٠٦، ٢٩٠٧، ٢٩٠٨، ٢٩٠٩، ٢٩١٠، ٢٩١١، ٢٩١٢، ٢٩١٣، ٢٩١٤، ٢٩١٥، ٢٩١٦، ٢٩١٧، ٢٩١٨، ٢٩١٩، ٢٩٢٠، ٢٩٢١، ٢٩٢٢، ٢٩٢٣، ٢٩٢٤، ٢٩٢٥، ٢٩٢٦، ٢٩٢٧، ٢٩٢٨، ٢٩٢٩، ٢٩٣٠، ٢٩٣١، ٢٩٣٢، ٢٩٣٣، ٢٩٣٤، ٢٩٣٥، ٢٩٣٦، ٢٩٣٧، ٢٩٣٨، ٢٩٣٩، ٢٩٤٠، ٢٩٤١، ٢٩٤٢، ٢٩٤٣، ٢٩٤٤، ٢٩٤٥، ٢٩٤٦، ٢٩٤٧، ٢٩٤٨، ٢٩٤٩، ٢٩٥٠، ٢٩٥١، ٢٩٥٢، ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، ٢٩٥٥، ٢٩٥٦، ٢٩٥٧، ٢٩٥٨، ٢٩٥٩، ٢٩٦٠، ٢٩٦١، ٢٩٦٢، ٢٩٦٣، ٢٩٦٤، ٢٩٦٥، ٢٩٦٦، ٢٩٦٧، ٢٩٦٨، ٢٩٦٩، ٢٩٧٠، ٢٩٧١، ٢٩٧٢، ٢٩٧٣، ٢٩٧٤، ٢٩٧٥، ٢٩٧٦، ٢٩٧٧، ٢٩٧٨، ٢٩٧٩، ٢٩٨٠، ٢٩٨١، ٢٩٨٢، ٢٩٨٣، ٢٩٨٤، ٢٩٨٥، ٢٩٨٦، ٢٩٨٧، ٢٩٨٨، ٢٩٨٩، ٢٩٩٠، ٢٩٩١، ٢٩٩٢، ٢٩٩٣، ٢٩٩٤، ٢٩٩٥، ٢٩٩٦، ٢٩٩٧، ٢٩٩٨، ٢٩٩٩، ٣٠٠٠، ٣٠٠١، ٣٠٠٢، ٣٠٠٣، ٣٠٠٤، ٣٠٠٥، ٣٠٠٦، ٣٠٠٧، ٣٠٠٨، ٣٠٠٩، ٣٠١٠، ٣٠١١، ٣٠١٢، ٣٠١٣، ٣٠١٤، ٣٠١٥، ٣٠١٦، ٣٠١٧، ٣٠١٨، ٣٠١٩، ٣٠٢٠، ٣٠٢١، ٣٠٢٢، ٣٠٢٣، ٣٠٢٤، ٣٠٢٥، ٣٠٢٦، ٣٠٢٧، ٣٠٢٨، ٣٠٢٩، ٣٠٣٠، ٣٠٣١، ٣٠٣٢، ٣٠٣٣، ٣٠٣٤، ٣٠٣٥، ٣٠٣٦، ٣٠٣٧، ٣٠٣٨،

رغبة في الولاء والانتماء إلى هذه المدنية . وعندما تفقد المدنية قدرتها على الابداع والخلق ، فعليها أن تدفع ثمن ذلك أو تتحمل عقاب فقدانها لحيويتها . وهذا العقاب هو انقسام أو تفكك Disintegration مجتمع هذه المدنية إلى أقلية مسيطرة Minority Dominant من ناحية ، تحاول جاهدة أن تجد في نظام يقوم على القوة والبطش Regime of power ، بديلاً عن القيادة أو الزعامة Leadership ، التي ضاعت . ومن ناحية أخرى إلى "بروليتاريا داخلية" وأخرى خارجية ، تستجيب لهذا التحدي بأن تحس وتعي Becoming consious . بأن لها روحاً ذاتية ، تعمل عقلها وفكرها لانقاذها وابقائها حية (١) .

وتخلق إرادة القهر فسي "البروليتاريا" إرادة أو "رغبة الاعتزال" "Will to secede" . ويستمر النزاع بين الإرادتين : إرادة القاهرين وإرادة المقهورين ، في حين تقترب المدنية من لحظة سقوطها. وعندما تقدم على لحظة موتها، تحرر البروليتاريا نفسها من مجتمعها القديم، الذي تحول أولاً إلى سجن وأخيراً إلى مدينة خراب ودمار City of distruction .

ومن خلال متابعة الصراع بين "البروليتاريا" والأقلية المسيطرة منذ بدايته حتى نهايته، يمكن أن نشعر على إحدى أنواع ذلك الحوار أو المحاور الروحية الدرامية Dramatic spiritual encounter ، التي تشكل عملية الخلق، من خلال نقل الوجود من ركود أو سكون الخريف، عبر آلام الشتاء، إلى حركة أو ديناميكية الربيع . فاعتزال البروليتاريا هو الفعل الديناميكي الذي يمثل الاستجابة للتحدي . ومن خلال هذا الاعتزال يتم الانتقال من "حالة السكون" إلى "حالة الحركة". وهكذا تبدأ الإنسانية مسيرتها الحضارية مرة أخرى. ومن خلال انفصال "البروليتاريا" عن الأقلية المسيطرة ، تولد مدنية فنية من أخرى دخلت في عداد القاريخ .

(١) يستعمل نوبس اصطلاح البروليتاريا Proletaria مفهوم يختلف عن المفهوم الماركسي فهو يعرف بأنها Any Social element or group which "is in" but not "of" any given society at any given stage of such society's history (s) it is an element or group in a community which has no stage in the community which has no stage in the community beyond the fact of its physical existence, Toynbee, op cit , pp 41-63, especially F N 3, p.41

ويقدم "توينبى" مثلاً آخر لتحديد مصدره البيئة الإنسانية، من دراسته لنشأة الحضارة المصرية القديمة . إذ يرى أن التحدى المادى الذى تمثل فى تغيير الظروف المناخية وانتشار الأحوال الصحراوية، قد اقترن بتحدى إنسانى أو معنوى .

وقد تمثل هذا التحدى المعنوى ، فى رغبة الرواد الأوائل من بنىة الحضارة ، فى التحرر من أصفاد الماضى ، المتمثلة فى الاعتماد المطلق على ما تجود به الطبيعة، تلك الاصفاد التى فرضت على أسلافهم نوعاً من الحياة الراكدة الساكنة .

رأينا أن التحدى قد يكون مادياً أو إنسانياً ، وذكرنا مثلاً لكل منهما . ويمكن أن نذكر القارئ بنوع آخر من التحدى المعنوى، الذى يمكن أن تخلق الحضارة خلال عملية الاستجابة له. ويقصد بهذا التحدى الروحى الذى مثلته الرسالة المياريكة التى حملها إلى البشرية السيد المسيح عليه السلام ، والتى من خلال استجابة المغلوبين على أمرهم فى المجتمع الهيلينى، لهذه الرسالة ولدت الكنسية أو الديانة العالمية، بعد أن اختلف المجتمع الهيلينى وراء باب الفناء. كما يمكن أن تمثل التحدى المعنوى باستجابة الجزيرة العربية ومجتمعها الجاهلى، لدعوة النبى الكريم محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه .

الفصل الثاني

فجر الحضارة : مصر قى مصور ما قبل القاريخ

الفصل الثانى

فجر الحضارة : مصر فى عصور ما قبل التاريخ

يهدف هذا الفصل أساسا إلى عرض الملامح الأساسية للحياة الاقتصادية فى مصر خلال عصور ما قبل التاريخ . والفترة التى نعتينا من هذه الأحقاب الطويلة، هى المرحلة الحضارية التى تبدأ بظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر، حوالى الألف الثانى عشر أو العاشر قبل الميلاد ^(١) . وتقصد "بالإنسان صانع الأدوات"، تلك السلالات البشرية التى عرفت كيف تستخدم عقلها ويديها فى صناعة بعض الأدوات ، التى مكنتها من الدفاع عن ذاتها وساعدتها على استغلال الطبيعة فى تحقيق أغراضها. وتنتهى هذه المرحلة ، بالنسبة لمصر ، باكتشاف الكتابة على أرضها حوالى عام ٤٢٤١ أو عام ٥٧٠١ قبل ميلاد السيد المسيح ^(٢) .

وينقسم هذا الفصل إلى المباحث الآتية :

المبحث الأول : حضارات العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط ^(٣).

المبحث الثانى : حضارات العصر الحجري الحديث .

المبحث الثالث : حضارة عصر ما قبل الأسرات .

(١) هذه مسألة محل خلاف ، إذ يشير البعض إلى احتمال ظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر قبل الرمس الجيولوجى الرابع، أى مد حوالى مائة ألف عام ، اعتمادا على وجود بعض الأدوات الحجرية التى ترجع إلى هذا الرمس ، والتى يعتقد أنها من صنع الإنسان . وتعرف هذه الأدوات الأبوليتية ، أى فجر الأدوات الحجرية . أنظر ، مصطفى عامر ، حضارات عصر ما قبل التاريخ ، تاريخ الحضارة المصرية، العصر المبرعوى ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، د . ت . ص ٣٨ : ٤٠ وكذلك Redman , Charles I. The Rise of Civilization , From Early Farmers to Urban Society in the Ancient Near East , Freeman and Co , San Francisco 1978, pp.46-49, and Hecht , Herman , History of the World Art , op. cit. p.7-25

(٢) هناك خلاف حول تاريخ نشأة الكتابة وبداية تدوين التاريخ فى مصر . أنظر فى ذلك عبد الحميد سمحة ، العلك عا . المصريين القدماء ، المرجع السابق ص ٥٧٦-٥٧٧ ، أحمد مبرى ، مصر ومكانتها فى العالم القديم ، المرجع السابق ذكره ص ٦٠١ ، مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٧١

(٣) يشك الكثيرون فى أهمية المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجري المتوسط فى مصر وبقيّة بلاد الشرق الأدنى . وعلى أى حال فإن هذه المرحلة قصيرة نسبيا ومثل المرحلة الحضارية ما بين العصرين الحجري القديم والحديث .

المبحث الأول حضارات العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط

تمهيد :

يكاد يكون مستحيلا ، على الأقل الآن وربما إلى الأبد ، أن نحدد على سبيل اليقين تاريخ ظهور الإنسان صانع الأدوات على أرض مصر . وعلى أى حال ، يرى بعض الباحثين أن أقدم الأدوات التى صنعها الإنسان فى مصر ، أو ما يعرف بالأدوات " الأيوليثية " " Eoliths " أى فجر الأدوات الحجرية ، ترجع إلى " عصر البلايستوسين " Pleistocene ^(١) . كما يعتقد البعض أن " الحضارة السبيلية " ^(٢) ، التى تمثل المراحل الأخيرة من العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط ، قد اختلفت تماما تحت الظمى فى قاع وادى النيل ، حوالى الألف الثامن قبل الميلاد ، الأمر الذى يدل على أن تاريخ ظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر ، لا يقل عن عدة آلاف من السنين قبل ميلاد السيد المسيح .

وقد تواضع الباحثون على تقسيم المرحلة الحضارية ، التى تبدأ بظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر ، وتنتهى باكتشافها الكتابية وبداية العصور التاريخية ، حوالى ٤٢٤١ قبل الميلاد ، إلى عدة عصور . واعتمدوا فى هذا التقسيم أساسا على التطور الذى طرأ على الأدوات الحجرية ، منذ أن صنعها الإنسان لأول مرة . وتتمثل هذه العصور فيما يلى :

(١) العصر الحجري القديم : Paleolithic or Old Stone Age

وتتميز هذا العصر بظهور الأدوات الحجرية غير المصقولة ويقسم بدوره إلى :

(١) أو العصر الحليدى فى أوروبا ، وهو القسم الأول من الرباعى Quaternary ، يمثل العصر الرئيسى الذى من العصور الجيولوجى الثالث أو راس الحياة الحديثة . أنظر فى ذلك محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة ، المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ص ٢٩٩ - ٣٠٦ .

(٢) نسبة إلى قرية السيل قرب كوم أمبو ، حيث وجدت آثار تنسب إلى هذه المرحلة الحصارية وتكتلات Granger, op cit pp 182-199, Petrie, W.M.F. and Quibell, J.E. Naqada and Ballas, London, 1896. and de Morgan 1 - Recherches sur les origines de l'Égypte, 2 vols , Paris 1896-7

(٣) مشتقة من كلمة Lithic الإغريقية ، وتعنى حجر . وقد اقترح هنا الاسم الباحث الانجليزى "جود" لويسوك Lubbock

١/١ - حضارة العصر الحجري القديم الأسفل :

وهي أقدم حضارات العصر الحجري القديم وتعرف أحيانا " بحضارة القلنس اليدوية " Hand axe ، نظرا لأن هذه القلنس كانت أهم الأدوات الحجرية وأكثرها انتشارا . وقد تميز هذا العصر بالدفاء وعرف الإنسان خلاله كيف يستخدم النار ويسيطر عليها . ويمثل هذا الاكتشاف الثورة الحضارية الأولى للإنسان .

٢/١ - حضارة العصر الحجري القديم الأوسط :

وتتميز بتنوع الأدوات الحجرية وارتفاعها . وخلال هذا بدأت درجة الحرارة في الانخفاض واشتد البرد ، كما وجدت بعض آثار لمواقد ومقابر ، مما يدل على أن الإنسان قد عرف عادة دفن موتاه في مرحلة مبكرة من تاريخه الحضاري .

٣/١ - حضارة العصر الحجري القديم الأعلى :

وهي أحدث حضارات العصر الحجري القديم ، وخلالها ظهرت الصناعات الحجرية المتعددة وارتفعت ، كما كثرت المواقد ، والمقابر ، ووصل الفن البدائي ذروته^(١) . وخلال هذه المرحلة حدث تحول خطير في المناخ في مصر وشمال أفريقيا: أخذ المطر يقل ويزداد الجفاف وتنتشر الأحوال الصحراوية ، الأمر الذي كان له أبعد الأثر في تاريخ الإنسان ونشاطه الحضاري ، كما سيتضح لنا فيما بعد . هذا ويقسم الباحثون كل مرحلة من المراحل الحضارية السابقة إلى أقسام فرعية ، وذلك اعتمادا على تطور طريقة صنع الأدوات والأسلحة ونوع الحيوانات السائدة .

فضلا عما سبق ، فقد شهد العصر الحجري القديم تطورات هامة في السلالات والأجناس البشرية . فقد تميزت المرحلة الأولى والثانية بوجود أجناس بدائية مثل "إنسان نياندرتال " Neanderthal " ، في حين ظهرت في المرحلة الأخيرة الأجناس البشرية المفكرة " Homo Sapiens " التي انحدرت منها في نهاية الأمر السلالات البشرية المعاصرة^(٢) .

(١) عبد العزيز صالح ، الفن المصري القديم ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٧٠

(٢) أنظر الملحق الخاص بهذا الملحق

وتتمثل حضارة العصر الحجري القديم الأسفل فى " الحضارة الشيلية " "Chellian" والحضارة الأشولية "Acheulian" التى وجدت فى فرنسا . كما تمثل الحضارة الليفلوازية "Levalloisian" حضارة العصر الحجري القديم الأوسط ^(١) . أما حضارة العصر الحجري القديم الأعلى فى مصر ، فتتمثل فى "حضارة الخارجة" بالصحراء الغربية "والحضارة السبيلية" فى صعيد مصر وأثارها فى مناطق عديدة قرب القاهرة .

وقد كانت حضارة مصر خلال المراحل المبكرة من هذا العصر ، وخاصة خلال العصر الحجري القديم الأسفل ، جزء من إقليم حضارى كبير . إذ لم يكن هناك ما يميز الأدوات الحجرية المصرية خلال هذه المرحلة . عن غيرها من الأدوات التى وجدت فى مناطق أخرى من العالم . ولكن خلال العصر الحجري القديم المتوسط ، بدأت حضارة مصر تتسم بطابع خاص بها . إذ أخذت تختلف عن غيرها فى طريقة صنع الأسلحة والأدوات الحجرية . وفى نهاية هذه المرحلة وبداية العصر الحجري القديم الأعلى ، بدأ الطابع المحلى أو " الشخصية المصرية " تظهر بوضوح ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور حضارة مصرية متميزة فى الخارجة والسبيل ^(٢) .

وفى نهاية العصر الحجري القديم أخذ نهر النيل ما يقرب من شكله الحالى ^(٣) . ويرى البعض ، أن إنسان العصر الحجري القديم ، قد عرف لغة تخاطب . وقد ساعد ذلك على تقدمه حضارياً ، إذ مكن الأبناء من نقل المعلومات والمعرفة إلى أولادهم ، كما مكنت لغة التخاطب من مناقشة الأفكار ونشر الخبرة .

(١) اشتقت أسماء الحضارة من أسماء الأماكن التى وجدت فيها آثارها مثل : Acheulien أو Mousterien .

Some بالقرب من باريس ، أما الحضارة السبيلية فتسمى إلى قرية السبيل القرب من دمياط .

(٢) لمزيد من التفصيل ، انظر ، مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٣) تشير الدراسات الحديثة بأن نهر النيل بدأ يكون بحده الحالى كما بدأ النيل بحوضه فى مصر الحالية .

وأما أخذ ما يقرب من شكله الحالى فى عصر البلايستوسين Pleistocene ، أى أوائل الزمن الجيولوجى الرابع .

تفصيل ذلك ، سيمان حزين ، البيئة والإنسان فى وادى النيل الأدنى ، المرجع الحضارة المصرية ، ص ١٢٥ و ١٢٦ .

Cardinal , op . cit . , p 189

(٢) العصر الحجري المتوسط Mesoethic or Middle Stone Age :

يطلق اسم حضارة العصر الحجري المتوسط ، على المرحلة الحضارية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. وتتفق هذه المرحلة مع انتشار الدفء، في أوروبا وظهور السلالات البشرية ذات الرؤوس العريضة ، كما تتميز بنشاط إنساني كبير قرب المناطق الساحلية ، واهتمام الإنسان بصيد الأسماك وجمع الأصداف البحرية على نطاق واسع . كما تنوعت الأدوات الحجرية وارتقت بشكل ملحوظ .

وقد وجدت آثار تنتمي إلى هذه المرحلة في فرنسا وإنجلترا. أما في مصر فتتمثل حضارة هذا العصر في "حضارة الصناعة الخارجية " في الصحراء الغربية ، و"الحضارة السبيلية " المتطورة في الفيوم ، " وصناعة حلوان " جنوب القاهرة . وقد تميزت آثار هذا العصر في مصر بظهور الآلات القرمزية ذات الأشكال الهندسية ، والاتصال ورؤوس السهام الصغيرة .

والمعتقد أن المرحلة الحضارية التي يمثلها العصر الحجري المتوسط كانت قصيرة نسبياً ، ولم يكن لها أهمية تذكر في مصر وبقية بلاد الشرق الأدنى ، وإن كانت قد شهدت تدعيم الشخصية الحضارية المصرية ، التي بدأ ظهورها في أواخر المرحلة الحضارية التي يمثلها العصر الحجري القديم^(١).

(٣) العصر الحجري الحديث Neolithic or New Stone age :

تمثل هذه المرحلة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإنسانية جمعاء ، تمثلت في الثورة الحضارية التي تجسدت في اكتشاف الزراعة واستئناس وقرية الحيوان وظهور الأدوات الحجرية المصقولة ، وارتقائها وتنوعها بدرجة لم يسبق لها مثيل . ومع الزراعة بدأ الاستقرار وتزايد تركيز البشر ، وأخذ المسكن والقرية في الظهور ، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى وجود الوحدات السياسية الأولى في تاريخ الإنسانية^(٢) .

(١) (١) و (٢) : انظر هذه المرحلة في رواية وادي الشيخ شرق مماعة . أنظر سيد توفيق وسيد أحمد المصري ، معاني تاريخ مصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠ .

Redman op. cit . pp.1 et seq and Hocht, op. cit pp 23-25

وترجع آثار هذه المرحلة الحضارية فى مصر إلى حوالى الألف الثانى عشر أو العاشر قبل الميلاد، وخلالها حققت مصر إنجازات حضارية فذة، هى التى مهدت الطريق لظهور المدنية، ثم بناء ذلك الصرح الحضارى الفريد فى ذاته، خلال عصر ما قبل الأسرات والعصور الفرعونية^(١).

وتوجد آثار هذا العصر فى أماكن كثيرة فى مصر، كما سنرى فى حينه.

الأحوال الاقتصادية فى العصرين الحجري القديم والحجري المتوسط:

والآن نعود إلى الموضوع الأساسى لهذا المبحث، وهو محاولة إعطاء فكرة تقريبية عن الأحوال الاقتصادية فى مصر خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخها الحضارى.

(أولاً) السمات العامة لهذه العصور:

تميزت هذه العصور فى مصر، بوجود ما يعرف "بالعصر المطير" الذى بدأ فى أواخر "عصر البليوسين". وقد تخللت هذه العصور أدوار أو فترات اتسمت بقلّة المطر والجفاف. وقد أدت كثرة المطر إلى اشتداد جريان الماء وتحت الصخور وجرف الرواسب، من مرتفعات النوبة وشرق السودان ومن بعض مناطق إريتريا والحبشة. وقد ساعدت عملية الارتفاع هذه، على ردم المستنقعات القديمة فى مصر، وتكملة تكوين الدلتا فى شمال مصر وقاع نهر النيل فى مصر الوسطى والعلية. وقد ساعد هذا بدوره على تهيئة البيئة لتقوم مصر بتجربتها الحضارية الفريدة فى عصور لاحقة^(٢).

وقد أدت وفرة المطر إلى وجود ثروة نباتية وحيوانية فى مصر وبقيّة شمال أفريقيا، الأمر الذى مكن من وجود تجمعات بشرية، فى أجزاء متفرقة من هذه المنطقة. وقد عاش خلال العصور المبكرة من هذه المرحلة، أجناس وسلالات بشرية بدائية كانت أقرب إلى الوحشية منها إلى الإنسانية، تعيش فى ظل ظروف قاسية

(١) اعتماداً على الحفائر الحديثة التى قامت بها إحدى بعثات الجيولوجيا بقيادة وسادروغ (الجامعة الأمريكية) و ١٩٣٧.
(جامعة كولومبيا بالمانيا)، من بعض المواقع النيولوتية بمنطقة الكرناتية بأسوان ومنطقة الخلف الكبير بالصحراء العربية. انظر
الدريد، سيريل، الحضارة المصرية، ترجمة عتار السويفى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٠ - ١١.
(٢) سليم حريز، المرجع السابق ذكره، ص ٥ - ٣٥.

تعتمد اعتماداً يكاد يكون مطلقاً، على النقاط ما تجود به الطبيعة . أما المرحلة المتأخرة من هذه العصور ، فقد شهدت ظهور سلالات وأجناس بشرية أكثر تطوراً ، يرجح البعض الحداد السلالات والأجناس المعاصرة منها .

ويبدو أن حضارة مصر خلال المراحل المبكرة كانت جزءاً من إقليم حضارى كبير ، ولم يكن هناك ما يميز حضارتها خلال هذه المرحلة ، عن غيرها من الحضارات التي وجدت في عدة أماكن في الشرق الأدنى وأوروبا . أما المراحل المتأخرة من هذه المرحلة ، فقد شهدت ظهور حضارة مصرية ذات صبغة إقليمية متميزة، كما سبق أن ذكرنا .

(ثانياً) الإنسان ونمط حياته :

يبدو أن الإنسان الأول قد عاش ، خلال العصر المطير ، في شكل جماعات متفرقة في كثير من المناطق العشبية . في الصحراء الغربية والشرقية . وقد استدل على وجوده في هذه المناطق ، مما تركه من أدوات وأسلحة ومن بعض مظاهر الفن البدائي التي تركها على الصخور ، في عدة أماكن من هذه المنطقة ، مثل جبل العوينات والواحات الخارجة في الصحراء الغربية ، وجبال البحر الأحمر ، والشواطئ البحرية القديمة في منطقة وادي النيل وفي منطقة الكوتانية بأسوان ومنطقة الجلف الكبير بالصحراء الغربية^(١).

ولكن عند نهاية العصر المطير ، وما تبع ذلك من انتشار الجفاف والأحوال الصحراوية في إقليم شمال أفريقيا ، أخذت الثروة النباتية والحيوانية في الانحلال ، وضافت سبل العيش . وقد أدى هذا التحول الخطير في المناخ والبيئة ، إلى هجرة الإنسان والحيوان في أواخر العصر الحجري القديم ، إلى وادي النيل ودلتاه والبحيرات الداخلية وعيون الماء في الواحات^(٢)، حتى يكون قريباً من موارد المياه. ومع استمرار هبوط مستوى النهر والبحيرات الداخلية في مصر، أخذ الإنسان يهبط

(١) أندريد ، مرجع السابق ، ص ١٠ - ١١

(٢) و.إ. ، معاهد أخرى في أوروبا وآسيا وأفريقيا في رأي أندريد توماس ، المرجع السابق ، وأيضاً . Herich, op.cit., p 9

تدرجياً من شاطئ إلى آخر، حتى يكون قريباً من المياه. وخلال هذه المرحلة بدأ يظهر في وضوح تركيز الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية في قاع وادي النهر وعلى جوانبه، وانحصر السكان في إقليم ضيق على طول مجرى النهر، أو حول البحيرات القديمة، مثل كوم أمبو والفيوم والخارجة، وبالقرب من القاهرة.

وقد أدى انتشار الأحوال الصحراوية على جانبي وادي النهر، وتركز الحياة في هذا الوادي، إلى بداية العزلة النسبية، التي فرضتها على مصر العوامل الطبيعية. خلال أحقاب طويلة من تاريخها. فقد حدثت البحار والصحراء من صلة مصر بالعالم الخارجي، ولكن صلات مصر بالمناطق الصحراوية حيث سمحت الطبيعة بوجود تجمعات بشرية، وكذلك ببعض أقاليم الشرق الأدنى وأفريقيا، لم تنعدم حتى بعد أن ساد الجفاف والأحوال الصحراوية. وقد ساعد على بقاء هذه الصلات، أن عصر الجفاف قد أعقبه ما يعرف بالدور المطير للعصر الحجري الحديث^(١).

وقد أدت العزلة وضعف المؤثرات الخارجية وتركز الحياة في وادي النهر، إلى ظهور الطابع الإقليمي أو "الشخصية المصرية" في إنجازات مصر الحضارية، وخاصة في العصر الحجري القديم الأعلى كما سبق أن ذكرنا. كذلك أدت هذه الظروف الداخلية إلى زيادة التقارب والتعاون بين التجمعات البشرية، الأمر الذي ساعد فيما بعد على تحقيق وحدة مصر السياسية، كما هيأت هذه الظروف الأرض الملائمة للثورة الحضارية الغدوة التي شهدتها مصر في المراحل الحضارية التالية.

(ثالثاً) مظاهر النشاط الاقتصادي:

سبق القول بأن الأجناس والسلالات البشرية، التي عاشت خلال المراحل الأولى من العصر الحجري القديم، كانت بدائية جداً. ثم أعقب ذلك ظهور أجناس وسلالات أكثر تطوراً ورقياً في المرحلة الحضارية التالية. وقد أطلق العالم الأمريكي "مورجان" Morgan اصطلاح عصر الوحشية Savegery، على المرحلة الحضارية التي يسميها علماء الجيولوجيا بالعصر الحجري القديم^(٢).

(١) سليمان حريس، المرجع السابق ذكره، من ١٥، ٣٠.

(٢)

وقد عاش الإنسان في بداية الأمر تحت رحمة ظروف قاسية وفي خوف وقلق، يعتمد اعتماداً يكاد يكون مطلقاً ، على التقاط ما تجود به الطبيعة . ويبدو أن الإنسانية قد بدأت مسيرتها عبر الزمان ، تحدوها غاية أساسية هي حفظ النوع من أجل البقاء. وكانت هذه الغاية هي القوة الأساسية التي شكلت السلوك الإنساني وحددت أهدافه .

لهذا كانت رغبة الإنسان في إشباع حاجاته الأولية أو الفسيولوجية ، مثل الغذاء والملبس والمأوى ، والتي لا بد من إشباعها حتى يضمن بقاءه ، هي المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي خلال هذه الحقبة من التاريخ . كما كانت هذه الرغبة سبباً في تركل نشاطه الاقتصادي في توفير الغذاء والملبس وكذلك المأوى إذا لزم الأمر ، معتمداً في بداية الأمر على قواه الطبيعية في جمع الثمار والنباتات وصيد الحيوان . وقد سهل عليه تحقيق هذه الغاية ، إن الظروف الطبيعية والمناخية مكنت من وجود ثروات نباتية وحيوانية ، كافية لوجود حياة إنسانية .

وقد تمثلت الثروة النباتية في الكثير من الأشجار والنباتات العشبية ، أما الثروة الحيوانية فتمثلت في الحيوانات العشبية مثل الغزلان والظراف والأغنام الوحشية ، كما وجدت بعض الحيوانات الكاسرة ، التي كثيراً ما كانت تتنازع الإنسان في البقاء.

ثم عرف الإنسان ، بوحى من إدراكه الفطري أو تجاربه ، كيف يستخدم هبات الطبيعة ، كأغصان وفروع الشجر وقطع الحجر ، في إشباع حاجاته . وربما استخدم هذه الأدوات في بداية الأمر ، كما وجدها في الطبيعة . ولا بد أنه عرف بالإدراك العقلي أو من خلال التجربة ، أن اعتماده على هذه الأدوات يوفر من وقته وجهده ويزيد من كفاءته في تحقيق أغراضه .

رابعاً : تطور الحاجات ووسائل إشباعها بظهور صناعة الأدوات الحجرية:

وفي لحظة حاسمة ، لا نعرف موقعها في سجل الزمن ، بدأ الإنسان يستخدم عقله ويديه في تشكيل مواد الطبيعة، ليصنع الشكل الأول لأدوات الإنتاج من الخشب ثم

من الحجر. وهكذا ولدت صناعة الأدوات الحجرية ، لتؤرخ بداية استعانة الإنسان برأس المال المنتج في نشاطه الاقتصادي .

وكانت أهم الأدوات الحجرية التي صنعها الإنسان وكثر انتشارها هي "الغاس اليدوية أو الحجرية" ، الأمر الذي دفع البعض إلى تسمية حضارة العصر الحجري القديم الأسفل "حضارة الغاس اليدوية" كما ذكرنا آنفاً .

ومع الزمن أخذ الإنسان يرتقي حضارياً. فتنوعت وتكاثرت حاجاته ، كما تنوعت وارتقت الوسائل التي اعتمد عليها في إشباع هذه الحاجات . وقد عرف ، ربما بالصدفة أو التجربة ، كيف يستخدم النار في تحقيق بعض أغراضه ، واستعان بالنار في طهي طعامه ، الأمر الذي أدى إلى تحول تدريجي في تكوينه الجسماني واقتراه تدريجياً من الصورة الإنسانية . إذ ترتب على عادة أكل بعض طعامه مطهياً إلى ضمور فكه وصغر فمه وأسنانه تدريجياً . كما بدأ يستخدم النار في التدفئة ، وخاصة عندما بدأت درجة الحرارة في الانخفاض واشتدت البرودة خلال هذه المرحلة . كما ساعدته النار في تبديد الظلام، فهاخذ يتحرر من الخوف الذي أفرغه أحقاباً طويلة ، كما استخدم النار ليخيف الحيوانات ، كما احتسى بها منها وهو يطاردها . وهكذا بدأ الإنسان لأول مرة في حياته ينعم بقدر من الراحة والطمأنينة. ثم عرف المواقف في العصر القديم الأوسط والتي انتشرت وكثر استعمالها في العصر القديم الأعلى. وقد شهدت العصور المتأخرة من المرحلة الحجرية القديمة ، تطوراً من نوع آخر يقطع بارتقاله حضارياً ويحسن ظروف معاشه. إذ توجد بعض الشواهد التي توحي بزيادة إحساسه بالفن والجمال والقيم الجمالية^(١) ، كما عرف عادة دفن موتاه ، على الأقل في المرحلة الوسطى من العصر الحجري القديم .

وكانت القبور توجد حيث تعيش الجماعة . وفي العصر الحجري القديم الأعلى،

بدأت عادة وضع الجثث منثنية في القبر في شكل القرفصاء ، وكأن الإنسان ينام نوماً

(١) ثروت عكاشة، تاريخ الفن، الفن المصري القديم، الجزء الأول، العمارة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص ١٦٤ و ١١٥
Halawy, Architecture in Ancient Egypt and the Near East, the M. I. T Press, 1966, pp- 10-15 and Hucht, op. cit, pp 7-31 and 125-127

وكانت القبور توجد حيث تعيش الجماعة . وفى العصر الحجري القديم الأعلى ، بدأت عادة وضع الجثث منتبئية فى القبر فى شكل القرفصاء ، وكان الإنسان يقام نوما طبيعياً . وكانت توضع مع الموتى عقود وأساور وأسلحة مختلفة وبعض قطع من لحوم الحيوانات ، وهذا ما يدل دلالة واضحة على حب الأحياء للموتى ، كما يوحي بأن إنسان هذه العصور ، كان قد بدأ يعتقد ، أو على الأقل يفكر ، فى احتمال البعث إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت^(١) .

وقد صاحب تطور حاجات الإنسان ، وربما ساعد عليه ، تطور وتنوع مظاهر نشاطه الاقتصادى ، وتطور وارتقاء وتنوع الأدوات التى اعتمد عليها فى استغلال الطبيعة لإشباع حاجاته ، وفى الدفاع عن نفسه .

لقد سبق القول إن " الإنسان الأول " ، قد اعتمد فى عصوره الأولى على النقاط ما تجود به الطبيعة ، فى إشباع حاجاته . ولكن مع ارتقائه حضارياً وتقدم أدواته وأسلحته ، بدأ يباشر الصيد إلى جانب جمع الثمار . وتدل بعض مظاهر الفن البدائى التى تركها على صخور بعض الكهوف ، أنه زاول الصيد بمهارة وثقن فى طرق الإيقاع بفريسته . فنصب لها الفخاخ وكان يلبس ريش النعام عند الاقتراب منها . وفى العصر الحجري المتوسط ، زاده نشاط الإنسان عند الشواطئ البحرية ، وباشر صيد الحيوانات البحرية وجمع الأصداف البحرية على نطاق واسع .

أما أدوات الإنتاج فكان أهمها الفأس الحجرية . وكان رأسها المدبب وحدها القاطع ، سبباً فى صلاحيتها لأغراض متعددة . لقد استخدمها الإنسان فى قتل الحيوانات وبتر أجزائها ونزع جلودها ، وفى التققيب عن ثباتات الأرض . كما استخدم الات أخرى ، لقطع وتسوية الخشب والعظام ، وصنع الملابس من الجلود ، وفى حفر مصائد الحيوانات . وفى العصر الحجري القديم الأوسط ، ظهرت آلات صنعت من

الشظايا ، التى كانت تنفصل عن النواة أثناء صناعة الفأس اليدوية . كما صنع

(١) مصطفى داور ، المراجع السادس ، ص ٤٦ وكذلك سليم حسي ، المراجع السابق ص ٢٠٩ ، ويشير المؤلف الأخير إلى أن أصولاً من بلاد ، أصرمة القاهرة يرجع إلى أصول مصرية . وأنظر أيضاً ، من التفصيل حول هذه الفرجة العمل التراث لبيلى وريمه كوسان Patre and Girdell التى سبق الإشارة إليه ، وأنظر كذلك برسيدي جيمس هيرى ، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، برعه راتو - روس ، دار الفكرية القاهرة ١٩٦١ ، ص ٨٥ ١١٢ ويثير هذا العمل ، والذي نشر لأول مرة فى أولال ١٩٤٠ ، الفراء ، من أهم ما نشأ ، حتى الآن عن تطور العقيدة والمكر فى مصر الفرعونية

السواطير والمكاشط المختلفة، وكان كل منها يؤدى غرضاً خاصاً. وفى العصر القديم الأعلى صنع الإنسان أنواعاً مختلفة من النصال والأراميل وأسلحة خاصة لنزع الأوتار من عظام الحيوانات ولحومها ، لاستخدامها خيوطاً فى صناعة ملابسهم. أما صناعة الأدوات من العظام والقرون والسنن ، فلم تنتشر إلا فى مرحلة متأخرة من هذه العصور.

وبعد ذلك أخذت تنتشر صناعة المشاقب والخطاطيف فى صيد الأسماك والحيوانات البحرية، كما استخدمها فى صيد الحيوانات البرية الصغيرة . وفى نهاية العصر تسود صناعة الأدوات القزمية ذات الأشكال الهندسية ، كما يوجد حجر الطحن . ولكن لم يعثر قط على أى أدوات حجرية مصقولة ، أو ما يدل على وجود صناعة الفخار .

وقد اعتمد إنسان هذه العصور فى صناعة الأدوات الحجرية على حجر الصوان، نظراً لوفرته وسهولة تشكيله. كما استخدم أنواعاً أخرى من الحجر مثل الحجر الرملى والكوارتز وبعض الأحجار النارية الصلبة . وقد استدل على ذلك من المحاجر التى استغلها إنسان هذه العصور، مثل محاجر منطقة الجبل الأحمر قرب القاهرة ، وفى منطقة كوم أمبو استخدم الإنسان فى العصر القديم الأعلى أحجار الكوارتز والديوريت ، وهى أحجار شديدة الصلابة يصعب تشكيلها . كما استخدم الإنسان عظام الحيوانات وقرونها فى صنع الأسلحة.

وقد ساعد وجود بعض القبائل البدائية التى مازالت تعيش فى عصورها الحجرية حتى الآن، فى فهم الكثير عن صناعة الأدوات الحجرية وغيرها من الصناعات القديمة . واتضح من هذه الدراسات ، أن هذه الصناعات لها أصولها وفتحها وتحتاج إلى مهارات عالية .

ويتضح مما سبق ، أن صناعة الأدوات الحجرية وغيرها ، قد تأثرت فى نشأتها وتطورها بالمستوى الحضارى للإنسان وما اعتراه من رقى ، وبحاجات

الإنسان وما طرأ عليها من تطور ، وكذلك بظروف البيئة وما قدمته للإنسان من مواد أولية.^(١)

خامساً : التنظيم الاجتماعي

رأينا فيما سبق أن الالتقاط والصيد مثلاً المظهرين الأساسيين للنشاط الاقتصادي في مصر ، خلال العصرين القديم والمتوسط ، وأن حياة الإنسان التسمت بعدم الاستقرار والتنقل سعياً وراء القوت . والراجح أن إنسان هذه العصور قد عاش في الصحراء في مصر، نظراً لاعتدال المناخ بالمقارنة بأوروبا حيث ساد الجليد فترات طويلة ، مما دفع الإنسان إلى الاحتماء بالكهوف. أما في مصر ، فلم يعثر ، حتى الآن ، على كهف واحد يحتوى على آثار الإنسان الأول . ولكن من المعروف أنه احتضى بالصخور البارزة المطلة على وادى النيل ، وربما اتخذ منها مأوى لصدّة قصيرة . ويعتقد بعض الباحثين ، أن الإنسان عاش على قوارب في النهر، قبل أن يبني سكناً على ضفافه^(٢) .

ويبدو أن سيطرة الصيد والالتقاط ، وما ترتب على ذلك من عدم استقرار ، قد أدى إلى صغر حجم الجماعات البشرية ، والتي يبدو في رأى البعض أنها قامت على نوع من الحياة المشتركة التى يسودها قدر كبير من التضامن والتعاون وشيوعية الجنس بين أفراد الجماعة . أما الوحدة الاجتماعية الصغرى التى قامت عليها التجمعات البشرية ، فلانعرف إذا كانت الأسرة التى تنسب إلى الأم Matricreat ، القائمة على صلة الرحم ، أم الأسرة الأبوية Patriareat^(٣) القائمة على رابطة الدم ، أم كانت نوعاً من " العشائر التوتمية " القائمة على عبادة " التوتم " " To Tem " ^(٤) ، الذى يتمثل في حيوان أو نبات، يعتقد أفراد الجماعة أنهم انحدروا منه ^(٥) .

(١) إبراهيم روفائيه ، الآلات الحجرية ، القاهرة ، ص ٥٠ وعند العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر القديمة ، مكتبة الامام المصرية ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٢١ - ٢٦ .

(٢) Badway, op cit, pp. 4 - 5

(٣) نقديس الأسرة منذ عهد الدولة القديمة ، يوحى بأن وجود الأسرة يرجع إلى عهود ما قبل التاريخ ، محرم كمال ، الأسرة والحياة المصرية ، ص ١٣٣ وما بعدها .

(٤) كلمة To Tem كلمة هندية أصلاً تعنى الاعتقاد من أصل واحد ، يمكن أن يكون طائراً أو حيواناً .
(٥) لمزيد من التعميل انظر : محمود السقا ، تاريخ العظم الاجتماعية والقانونية ص ٨٨ وما بعدها وكذلك عبد المتعم أبو بكر ، العلم الاجتماعية ، تاريخ الحضارة المصرية ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٠٩ وما بعدها ، وجمال مختار ، لغة من تاريخ مصر السياسي والحضاري ، المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ ، حيث يشير الكاتب إلى وجود قبائل متفرقة تسارح على الصيد واللقاط البساتات .

كذلك يبدو أن هذه الجماعات قد عرفت نوعاً من تقسيم العمل القائم على أساس الجنس، الرجل للصيد وحماية الأسرة ، والمرأة للتقاط ورعاية الأولاد . ويرى البعض أن بساطة الفن الإنتاجي ، وانخفاض إنتاجية العمل خلال هذه العصور، كانا من أهم العوامل التي شكلت الأوضاع الاجتماعية في النظم البدائية ، وهي النظم التي تتفق مع حضارة العصر الحجري القديم. فقد ترتبت على هذين العاملين ضرورة العمل الجماعي، والملكية الجماعية، والاستهلاك الجماعي، وانتفاء الطبقات الاجتماعية ، وشيوعية الصلات الجنسية. باختصار، يرى أصحاب هذا الرأي أن بدائية أدوات الإنتاج، قد اقتضت مجتمعاً شيوعياً ، أو ما يمكن أن يسمى بالنظام الشيوعي البدائي. كما يعتقد أصحاب نفس الرأي ، أن الوعي والإدراك أي الضمير الإنساني، لم يكن هو العامل الذي شكل مسار تطور هذه الجماعات ، وأن بدائية الإنتاج هي التي حددت فلسفة النظام والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها .

ولنا على الرأي السابق بعض ملاحظات . إن ما نعرفه عن هذه العصور ، وهو نادر ولا يرتقي أغلبه إلى درجة اليقين ، ولا يمكن الباحث من الجزم بصحة رأي ما ، يصدد التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية التي سادت في مصر وغيرها من مواطن حضارة هذه العصور .

وعلى الرغم من أن الرأي السابق قد يكون له ما يبرره ، إلا أنه ليس أكثر من تفسير لبعض معلومات ، ويعتمد على مقولات فكرية معينة ، وينحاز لعقيدة التفسير المادي للتاريخ الإنساني . إذ يمكن أن نقرر ، بنفس القدر من الثقة ، أن بدائية الإنسان وتخلفه الحضاري ، قد أدبنا إلى بدائية فن وأدوات الإنتاج . وأن غريزة حب الحياة هي التي دفعت الفرد العاجز وحده عن أن يوفر قوت يومه ويحمي نفسه ، إلى الحياة المشتركة والتضامن والتعاون من أجل الإبقاء على النوع^(١). فضلاً عن هذا، فليس هناك ما يؤكد صحة القول بأن الملكية الجماعية هي التي سادت خلال هذه العصور.

(١) أنظر مقدمة العلامة ابن خلدون، سبق ذكره ، ص ٣٧-٣٨.

وعلى العكس ، هناك اعتقاد بأنه في ظل نظام يقوم على الالتقاط والصيد ويسوده عدم الاستقرار والتقلب الدائب بحثا عن القوت، ليس هناك ما يدفع الفرد إلى تملك العقار، وأن هذه العصور لم تعرف إلا ملكية المنقول، المتمثلة في الأدوات الحجرية والأسلحة التي كان للفرد عليها حقا مطلقا . أما ملكية الأرض، فلم يشعر إنسان هذه العصور بالحاجة إليها . وخلاصة هذا الرأي، أن الملكية الفردية للمنقول هي التي كانت سائدة خلال هذه العصور . أما شيوعية النساء، فيمكن القول أنها كانت تحت وطأة الغريزة ونتيجة ما ساد أو يعتقد أنه ساد هذه المجتمعات ، من مساواة بين الرجل والمرأة ، حيث قام كل منهما بدور أساسي في حياة الجماعة ^(١) .

(١) لمزيد من التفصيل ، أنظر المرجع السابق ، ص ٥٧ وما بعدها ، عبد النعم أبو بكر ، المظم الاجتماعية ، منشور في تاريخ الحضارة المصرية ، المرجع السابق ذكره ص ٢٠٩ وعبد المبرر صليح الشرق الأسمى القانيم ، سبق ذكره ص ٤٧ - ٨٠ وكذلك الأرض والقلاخ على مر العصور ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٤ ص ١٧ - ٢٣ . وأحمد وحيدى ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١١ - ١٧ وكذلك : Petrie, P , Pre - historie Egypt, 1920, and Badawy , op . cit , pp 10-5

المبحث الثاني

حضارات العصر الحجري الحديث : ثورة الزراعة

تمهيد :

رأينا فيما سبق ، أن المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم ، قد شهدت تحولا خطيرا في الظروف المناخية ، التي كانت سائدة في مصر وشمال إفريقيا خلال هذه المرحلة. وأن هذا التحول قد تمثل في قلة المطر ثم انتشار الجفاف والأحوال الصحراوية في هذه المنطقة ، الأمر الذي أدى إلى انقراض الثروة الحيوانية والنباتية وضيق سبل العيش ، أمام الجماعات البشرية التي عاشت بها أحقابا طويلة تلتقط ما تجود به الطبيعة .

وقد شكل هذا التحول في ظروف البيئة ، نوعا من التحدي المادي ، الذي اعتبره بعض الدارسين من أخطر التحديات التي واجهها الإنسان خلال هذه الحقبة من تاريخه الحضاري ، وكان حتما عليه أن يستجيب له وينتصر عليه ، وإلا فإن الغناء والعدم هما المصير المحتوم لكل نوعه .

وقد تمثلت الاستجابة لهذا التحدي ، في هجرة الإنسان من الأرض التي أجديت ، إلى أرض جديدة توفر فرصة أفضل للحياة . ويعتقد البعض في احتمال هجرة بعض سكان هذه المنطقة إلى الشمال ، حيث قابلوا تحديا من نوع آخر تمثل في بيئة أوروبا الشديدة البرودة ، واحتمال هجرة البعض الآخر إلى منطقة أعالي النيل ، رغبة في الإبقاء على نمط الحياة التي اعتادوها. إذ الراجح تشابه ظروف البيئة في منطقة أعالي النيل ، مع ظروف البيئة التي وجدت في منطقة شمال إفريقيا ، قبل أن يعمها الجفاف^(١).

(١) يعتقد البعض أن عصر الفئائل البدائية التي تعيش حتى اليوم على الانقراض والصيد في منطقة أعالي النيل ، مثل ق. ١١.٠٠٠ الدكة، إنما تتحدث عن أصلا ب كانت تعيش ، في عصور ما قبل التاريخ ، في وادي النيل الأدنى ، ثم هاجرت بعد تغير ظروف البيئة في موطنها القديم .

ولكن بعض سكان الأرض التي أجدبت وعزت فيها الحياة ، انتصر على التحدى بالهجرة إلى وادى النيل ودلتاه ، وغير من نمط الحياة التي اعتادها أحقابا طويلة ، ونجح في تحرير نفسه من أصفاد الطبيعة التي عاش تحت رحمتها ، والتي كثيرا ما أبعثت في قسوتها عليه .

وربما اقترن التحدى المادى ، الذى تمثل فى الجفاف وانتشار الأحوال الصحراوية ، بتحدى من نوع آخر ، دفع الجماعات البشرية إلى التحرك من حالة السكون إلى حالة الحركة ، أى السكون الذى مثله مجتمع الالتقاط والصيد إلى الحركة التي مثلتها البيئة الجديدة ومحاولة التغلب عليها . نقول ربما اقترن بهذا التحدى المادى ، تحديا معنويا تمثل فى قنوط شباب مجتمع الالتقاط ، بالحياة الراكدة التي عاشها أسلافهم أحقابا طويلة ^(١) .

وعندما حل المهاجر بالأرض التي صارت بعد صراع مرير موطنا له ، صدته فى البداية عن العيش بها ، إذ كانت أحرش الغابة ومستنقعات البردى تملأ أرجاءها . فآخذ يعمل بفكره ويديه للسيطرة عليها ، وأقدم على بطولة فذة فى تاريخه ، فظهر الأرض من أحرشها وجلف ماء مستنقعاتها ، واكتشف ظاهرة استنبات البذور ، واستأنس الحيوان ثم رباه ، أى أنه أخذ يضع أسس نظام اقتصادى جديد يقوم على الزراعة والرعى ^(٢) .

وقد مثلت هذه الإنجازات الحضارية فى وادى النيل الأدنى ، واحدة من أخطر ثورات الحضارة فى تاريخ الإنسانية جمعاء . فمع اكتشاف الزراعة والرعى ، بدأ الإنسان ، لأول مرة فى تاريخه ، ينتج غذاءه بنفسه ، بعد أن عاش طويلا عالة على الطبيعة كإحدى طفيلياتها .

(١) أنظر الفصل الأول من الدراسة .

(٢) يعتقد بعض المؤرخين المعاصرين أن مصر كانت الموطن الأول للزراعة ، نظرا لأن ظروف البيئة الطبيعية والمناخية والجيولوجية بها كانت أكثر ملاءمة للزراعة من أى منطقة أخرى بالشرق الأدنى . أنظر مثلا : آلبريد ، سبق ذكره ، ص ١٠ وكذلك .

كما بدأ الإنسان ينعم بالحياة المستقرة . ومع الحياة المستقرة بدأ يبني بيتا . ولما كثرت البيوت ظهرت القرية ثم المدينة على جانبي مجرى النهر ، ثم فى دلتاه فى مرحلة متأخرة . وأعقب ذلك ظهور الإقليم ، فكانت اللبنة الأولى فى صرح الوطن . وهكذا أقامت مصر ، صرح أولى مدارس الحضارة على أرضها فى العصر الحجري الحديث ، وبدأت فى مرحلة لاحقة تعلم الإنسانية أن تكتب وأن تعد ، وأن تحسب الزمن بملاحظة حركات نجوم وكواكب السماء فى عين شمس ، وأن تبني بيتا ثم هراما من الحجر ، كما أنها كانت تصل إلى معرفة حقيقة الأزل ، أى الله الواحد الأحد فى فكر "إخناتون" . وكانت فى كل ذلك فذة وعبقرية ، كما كانت سخية فى عطاياها للدنيا إلى أبعد مدى . وحفظ التاريخ كل ذلك لها ، ووعى دورها الحضارى ، فلم يغفل عن ذكرها عبر القرون ، حتى عندما كان يدركها الوهن ، ويحل بها الظلم والمذلة .

أولاً: الملامح الأساسية لحضارات العصر :

رأينا فيما سبق ، أن العصر الحجري الحديث قد شهد اكتشاف الإنسان الزراعة وتربية الحيوان ، وقد مثل هذا الانتصار الحضارى المفد ، ثورة بعيدة المدى فى نمط الحياة الإنسانية: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (١) .

فعندما عرف الزراعة عرف الاستقرار لأول مرة فى تاريخه . بدأ حياة جديدة تلعب إرادته دورا خطيرا فى تشكيلها . فقد بدأ ينتج غذاءه بنفسه ، ويبني لنفسه بيتا ، ويدخر غذاءه ، ويصنع أوعية وأدوات أكثر ملاءمة لظروف حياته الجديدة . وهكذا بدأ ينعم بحياة أقل قسوة أو أكثر رفاهية ، بعد أن نجح فى إشباع ضروريات الحياة ، والإبقاء على نوعه فى عصر سابق .

ومع الاستقرار فى وسط جماعة ، بدأت السكينة تعرف طريقها إلى نفسه وقوى إحساسه ، بالأمان فتحركت فى أعماقه عوامل الخلق والإبداع . فمهد الأرض وهيا الظروف لبناء مبنية من أحرق مدنات التاريخ هى مدينة مضر الفرعونية .

(١) انظر من أهمية اكتشاف الزراعة أو ما اسمها المولب The Agricultural Transformation وأثر ذلك فى الحضارة الإنسانية.

وعندما كثرت المساكن، ظهرت القرية، الأمر الذى أدى إلى تزايد العلاقات الاجتماعية وتنوعها وتعقدتها. ومن ثم كان لابد من نوع من الحكم أو التنظيم السياسى، لتدبير شئون الجماعة، وتنظيم العلاقات الإنسانية. كما ظهرت أنماط جديدة لتقسيم العمل لم تكن معروفة من قبل، وعرفت الجماعات البشرية الأشكال الأولى للملكية الفردية العقارية، أو ملكية الأرض إلى جانب ملكية المنقول التى اتسع نطاقها. وقد وجدت آثار حضارات هذا العصر فى أماكن عديدة فى مصر. والراجح هو تعدد أنماط الحضارة لا وحدتها^(١)، مع وجود صلات كثيرة بين المراكز الحضارية المختلفة .

ثانياً : مواطن حضارات العصر :

وجدت آثار حضارات العصر الحجرى الحديث فى أماكن عديدة فى مصر ، كان من أهمها : " حضارة مرمدة بنى سلامة " ^(٢) عند حافة الصحراء شمال غرب القاهرة و"حضارة العمرى" فى وادى حوف بمنطقة حلوان ^(٣) ، وفى ديرتاسيا ومستجدة ووادى الشيخ فى الصعيد، وكذلك فى إقليم الفيوم، وفى الصحراء الغربية وبعض الواحات ، وخاصة الواحات الخارجة والبحرية ^(٤) .

ولاثار حضارة الفيوم أهمية خاصة ، لأنها وجدت على شواطئ البحيرة القديمة ، التى كانت تملأ منخفض الفيوم فى العصر الحجرى القديم . وكان الإنسان ينزل من شاطئ إلى الشاطئ الذى يليه ، كلما هبط ماء البحيرة . وكان فى كل مرة يترك وراءه بعض آثاره، الأمر الذى ساعد على تقدير عمر حضارات ما قبل التاريخ،

سواء فى منطقة الفيوم أو الدلتا أو الوادى .

(١) عرفت رواسب النهر الكثير من عتبات حضارات هذا العصر ، إذ المعروف أن نهر النيل أرسب مساحات مديدة العصر الحجري الحديث ، طبقات تتحرك من الطبقة الوادى والدلتا . مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٥٢

(٢) انظر فى وصف حضارة مرمدة Hadaway op.cit , p 10-11 and Gaudier , op.cit , p388

(٣) نسبة إلى أمى العمرى الذى اكتشفها بالاشتراك مع الأب بوبيه لاير حوالى سنة ١٩٢٣ .

(٤) يعتقد البعض أن " حضارة العمرى " أقدم من " حضارتى مرمدة بنى سلامة والفيوم " ، وأن حضارة " ديرتاسيا " تتل بها . المرحلة المصرية التى تمثلها العصر الحجري الحديث ومقايمة حضارة عصر ما قبل الأسرات ، مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ولكن البعض يرى أن حضارة الفيوم كانت أسبق

ويعتقد البعض أن مصر كانت الموطن الأول للزراعة، نظراً لما اتسمت به من خصائص لم تتوافر في بلاد الرافدين. ومن بين هذه الخصائص الظروف المناخية الملائمة، بالإضافة إلى الدور الذي أداه تعاقب الفيضان السنوي المنتظم خاصة وقت الفيضان وفي اعتاقبه، وما ترتب على ذلك من إخصاب التربة، بحيث أصبحت صالحة لإنبات البذور بأقل قدر من المجهود. كما يدعم هؤلاء رأيهم، بأن الأدوات الزراعية التي استعملها المصريون في ذلك العصر، كانت أكثر تطوراً وأكثر نضجاً من الناحية الحرفية، بالمقارنة بالأدوات التي صنعتها الجماعات الإنسانية الأخرى التي عاصرت نشأة الحضارة في مصر^(١).

كما يعتقد هؤلاء، أن الفيوم كانت الموطن الأول للزراعة في مصر، وإنها عرفت الزراعة قبل الدلتا، نظراً لأن الأخيرة كانت ملينة بالمستنقعات والأحراش خلال تلك المرحلة^{(٢) (٣)}، وظلت كذلك حتى عصر الدولة القديمة.

وتعتبر حضارة الفيوم نموذجاً لحضارات بداية العصر الحجري الحديث في مصر الوسطى. وتشغل الفيوم منطقة من مناطق الحواف الصحراوية. ولكن يسرت لها حياتها وعوضتها عن بعدها النسبي، بحيرتها الكبرى التي كانت خلال تلك المرحلة، عذبة الماء كثيرة الأسماك تستهوى عدداً من الحيوانات. هذا فضلاً عن خصوبة مدرجاتها التي سمحت بنمو النباتات الطبيعية، كما جعلتها صالحة للزراعة.

(١) السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥.

حيث ذكر أن سكانها ربما بلغوا ١٦ ألف نسمة وأنها كانت تشمل مساحة تقدر بحوالي ١٨٠ ألف متر مربع على بعد كيلو متر واحد من فرع رشيد وأنظر أيضاً .

Brunton, Mostagedda and Tasiu Culture, London , 1937, pp 11-75

(٢) يرى البعض أنه الميوم شهدت حضارتين متواضعتين ومتعاقبتين في العصر الحجري الحديث: حضارة غاش أهلها فوق مسوح متسعة عاصر مرحلة بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها عشرة أمتار فوق مستوى سطح البحر، وهو ١٨٠ قدماً فوق مستوى مائها الحالي ، هي حضارة الفيوم (أ) . ثم أعقب ذلك حضارة أخرى ، غاش أهلها فوق مدرجات متسعين عاصراً مرحلتين بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها أربعة أمتار ومترين على التوالى فوق مستوى سطح البحر، وهي حضارة الفيوم (ب) ، عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٠ ، وأنظر أيضاً مزيد من التفصيل :

Caton - Thompson and Gardener, E.W., the Desert Fayoum. London 1934 and the Badarian Civilization, London 1928.

وكذلك : أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢١ حيث يذهب إلى أن حضارة الفيوم هي أقدم حضارات مصر .

(٣) أرسع "بزي" آثار حضارة الفيوم إلى نحو ٩ آلاف سنة قبل الميلاد. أنظر :

Petrie of the Making of Egypt, London 1939, p 9.

وقد لوحظ أن من عادات أهل الفيوم خلال تلك المرحلة ، أنهم خرجوا بمطامير غلالهم عن منطقة المساكن ، وحفروها فوق رهوة عالية بعض الشيء، ورتبوها في ساحتين ترتفع إحداها عن مستوى الأخرى بنحو تسعة أمتار. وقد احتفظت مطاميرهم ببقايا نادرة من الحنطة والشعير وبذور الكتان وبذور بعض النباتات الأخرى . وقد تفحم بعض هذه الحبوب وبقي البعض الآخر بحالة مقبولة حتى الآن .

ويعتقد البعض ، بأن تجميع مطامير الفيوم في منطقة واحدة بعيداً عن المساكن ، يدل على شيوع الملكية الزراعية وإنتاج الزراعة من أصحاب الأرض ، في حين رأوا في تفرق المطامير في مرمدة بنى سلامة ، دليل على استقلال كل فرد بملكيته الزراعية ، أو أنه يدل على استقلال كل أسرة بملكيته^(١).

ولكننا تؤيد الرأي الذي ذهب إلى أن أهل الفيوم قد اضطروا لتلاصق مطاميرهم فوق منطقة مرتفعة نسبياً ، حتى يبعدوا بها عن البحيرة ، خوفاً من رطوبة التربة بالمناطق القريبة من شواطئها ، وأن تجميع المطامير في منطقة واحدة ، يسهل حراستها. ويبدو لنا أن هذا التفسير أكثر منطقية كما أنه أكثر واقعية^(٢).

أما " حضارة مرمدة بنى سلامة " ، فترجع أهميتها إلى أنها عرفت المسكن والمقبرة على السواء . وكانت عادة دفن الموتى بجوار المساكن وما حولها ، من العادات المألوفة في هذا العصر . وتقدم آثار هذه الحضارة صورة طيبة عن المسكن الأول وفن بنائه ، وعن القرية المصرية الأولى ونشاطها ، وعن تطور الحياة الاجتماعية وظهور روح الجماعة بشكل لم يكن معروفاً من قبل إلا في حضارة الفيوم . وفضلاً عن كل هذا ، فإن " حضارة مرمدة بنى سلامة " تمثل واحدة من المحاولات الأولى في تاريخ الإنسانية ، نحو تنظيم وتخطيط القرية ، بطريقة تدل على أن الإنسان كان قد نجح في الفكك من إفسار بدائيته إلى مرحلة حضارية جديدة^(٣).

١ - هذه وجهة نظر الأستاذ هرمان بوكير ، أنظر في ذلك

٢ - Eton - Thompson and Gardener, op. cit., 41-91 .

٣ - عبدالمعير صفائح ، الفشل الأدي القديم ، ، سبق ذكره ، ص ٤٩ - ٥٠ . وكذلك الأرض والصلاح في مصر

المرعونية ، سبق ذكره ، ص ٦٩ - ٧٠ .

٤ - كمال "حضارة دهرنسا" بأسسوط حضارات الصعيد في بداية العصر الحجري الحديث .

وتدل آثار هذا العصر ، على أن الإنسان بدأ ينعم بمعيشة أفضل : إذ كان لكل مسكن موقد لطهي الطعام ، الذى أصبح ظاهرة عادية ، كما كثرت الانية والقدر الفخارية. كما كان الإنسان يطحن الحبوب ، ويقيم مخازن لحفظ غذائه ، ومخازن لحفظ الغلال . فضلاً عن هذا فقد كثرت استخدام أدوات الزينة وزادت عناية الإنسان بموتاه ، وكان يضع فى قبورهم ما كانوا يحتاجونه فى حياتهم .

وتمثل " حضارة ديرتاسيا " ^(١) نهاية المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى الحديث، كما تعتبر مقدمة لحضارة عصر ما قبل الأسرات ، وهى ترجع إلى حوالى الألف السادس قبل الميلاد. ويرى البعض أن سكان ديرتاسيا لم يصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام ، كما يرجح هؤلاء أنهم عرفوا الزراعة قبل غيرهم من البشر ، كما عرفوا بعض الحرف مثل غزل ونسج الكتان ، وصناعة أدوات الزينة والأواني الخزفية . كذلك بدأت بديرتاسيا عادة دفن الموتى خارج نطاق القرية . كذلك من المعتقد أن تربية الحيوان كان لها أهمية خاصة فى " اقتصاد ديرتاسيا " . ولكن يبدو لنا ، أن افتراض أن سكان ديرتاسيا قد عرفوا الزراعة قبل غيرهم ، لا يتفق تماماً مع القول أنهم لم يصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام .

وتجدر الإشارة إلى أنه من الصعب القول بوحدة حضارات هذا العصر ، أى انتماء حضارات هذا العصر جميعاً إلى نمط حضارى واحد . إن الراجح هو وجود نموذجين أو نمطين حضاريين ، ساد أحدهما فى مصر العليا ، وساد الآخر فى مصر السفلى . ولكن هذه الحضارات لم تكن فى عزلة عن بعضها ، بل وجدت بينها صلات عديدة . كذلك من الراجح وجود نوعين من السكان يظهر فى أحدهما وهم سكان الصعيد بعض المؤثرات الزنجية .

وكذلك من المعتقد أن حضارة الوجه البحرى ، كانت أرقى عموماً من حضارة الصعيد خلال هذه الحقبة من تاريخ مصر .

ثالثا : مظاهر النشاط الاقتصادي وأدوات الإنتاج :

شهد هذا العصر تعدد أنواع النشاط الاقتصادي وارتقائها بشكل ملحوظ، الأمر الذى أدى إلى زيادة كبيرة فى إنتاج مصر من السلع والحاصلات المختلفة .

وهناك ما يؤكد قيام مجتمع زراعى مستقر فى وادى النيل الأدنى وفى الدلتا . وكانت الزراعة، على ما يبدو، الحرفة الرئيسية للسكان عموما . والراجح أن الشعير والقمح كانا من أقدم الحبوب التى زرعت فى مصر . فقد وجدت بعض حبوب الحنطة والشعير وبتور الكتان الشعير بين آثار العصر الحجري الحديث فى الفيوم . أما القمح فقد اكتشف حيويه بين آثار هذا العصر فى مصر العليا ومصر السفلى على السواء . كذلك عرفت مصر فى نفس العصر بعض الفواكه مثل الكروم والزيتون والبلح والتين ، وبعض الخضضر والبقول . والراجح أن دلتا النهر وساحل مريوط ، كانا من أوائل المناطق التى غرس فيها الإنسان شجرتى العنب والزيت المبركة أى الزيتون ، اللتين كان لهما أثر واضح فى تاريخ الحضارة والمدنية فى حوض البحر المتوسط.

وبإلى جانب الزراعة قام السكان بتربية الحيوان . ويبدو أن هجرة الحيوان من المناطق العشبية التى احتواها الجفاف والصحراء إلى وادى النهر بالقرب من مصادر المياه حيث يعيش الإنسان ، قد ساعدت السكان على استئناس الحيوان والسيطرة عليه تدريجيا . وتدل بقايا العظام التى وجدت بين آثار هذا العصر ، على أن الأغنام والماعز والثيران والحمير والكلاب ، كانت من بين الحيوانات التى عرفت فى ذلك العصر . وقد اعتمد الإنسان على لحم الحيوان ولبنه فى غذائه ، وصنع ملابسه من جلده وصوفه وشعره . كما استخدم عظامه وقرونيه فى صناعة أدوات وأسلحة مختلفة . والراجح أن تربية الحيوان كان لها أهمية خاصة فى منطقة الدلتا ، كما كانت تربية الحيوان الحرفة الرئيسية فى مجتمع الرعاة، الذين عاشوا حول عيون الماء فى بعض الواحات الصحراوية .

كذلك من الراجح أن سكان الفيوم وأماكن أخرى ، قد اعتمدوا بالإضافة إلى الزراعة، على صيد السمك والحيوانات البحرية الأخرى من البحيرة .

كما شهد هذا العصر انتشار وارتقاء الحرف بشكل ملحوظ . فقد عرف إنسان هذا العصر صناعة الحصر والسلال ، كما شهد ارتفاعها ، كما يتضح من بعض السلال التي وجدت في الفيوم . كما عرف صناعة الغزل والنسيج ، واستخدم في ذلك الكتان ، كما استدل على ذلك من نسيج الكتان الذي وجد في الفيوم وفي مقابر مرمدة بنى سلامة . كما حققت صناعة الأواني درجة عالية من الرقى والدقة لم تعرفها مصر من قبل . كما تعتبر الأدوات الحجرية التي وجدت في الفيوم من بين مفاخر هذا العصر البطولي . أما الآنية الفخارية فكانت في بدء عهدها ، بسيطة في أشكالها ، وغير متقنة في صنعها ، وغير جميلة في مظهرها إلا نادرا ، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأقداح الفخارية التي وجدت في دبرثاسا . فقد كانت هذه الأقداح في شكل زهرة السوسن ، وكانت ذات مقايض ، كما كانت تحلى برسوم جميلة . كذلك انتشرت صناعة أدوات الزينة مثل صناعة حبات الخرز من العقيق والأصداف البحرية والأحجار العادية وقشر بيض النعام، وصناعة الأمشاط والأساور وبعض الحلى التي تتدلى من العنق ، وأكثرها من العظام أو الأصداف . كذلك حققت الصناعات الحجرية تقدما كبيرا ، وهي من أهم الحرف التي تميز بها هذا العصر . فالأدوات الحجرية المصقولة وغيرها تعتبر من أجمل وأرق ما أنتجه الإنسان . كذلك تنوعت منتجات هذه الصناعة ، تمشيا مع مطالب الحياة الجديدة ، القائمة على الزراعة وتربية الحيوان والاستقرار . كما تقدمت وتنوعت صناعة الأدوات غير الحجرية ، مثل الأدوات والأسلحة التي كانت تصنع من العظام أو الأصداف البحرية ^(١) .

ونتيجة الانتقال من عصر الصيد والانتقاط إلى عصر الزراعة والرعى، وما ترقب على ذلك من استقرار وارتباط الإنسان بالأرض، التي أصبحت تمثل موردا من الموارد الاقتصادية الأساسية، بدأت الأشكال الأولى للملكية الفردية وملكىة الأسرة فى

(١) لمزيد من التفصيل ، أنظر : مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ ، وعبدالمعز صالح ، المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٥٠ ، والدريد ، المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٦٢ .

نطاق العقارات فى الظهور والانتشار. فقد ترتب على استحواذ الغرد أو الأسرة على مساحات من الأرض ، وزراعتها أو تربية الأغنام عليها ، ظهور رغبة غريزية فى الاستئثار بها وصد الغير عنها. وكما بدأ خلال هذا العصر ظهور فكرة الإرث ، أى أن يرث الأولاد ما تركه رب الأسرة من منقولات أو عقارات. ومع اتساع نطاق الزراعة وتربية الحيوان وظهور المساكن وزيادة محتوياتها ، اتسع نطاق الملكية الفردية للمنفقات والعقارات، مثل ملكية الأرض التى يزرعها الإنسان والحيوانات التى كان يربئها للاستهلاك أو الإنتاج ، و ملكية المنزل ومحتوياته ، و ملكية ما يدخره من غذاء وحاصلات (١) .

رابعاً : الإطار الاجتماعى :

رأينا فيما سبق أن العصر الحجرى الحديث قد شهد بداية تركيز واضح فى الحياة البشرية فى وادى النيل الأدنى ، نتيجة اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان ، ثم تربيتسه للاستهلاك أو الإنتاج . ومع الزراعة بدأ الإنسان يستقر بعد طول ترحال ، كما عرف الأمان بعد القلق ، وكذا بدأت تنزع نفسه على هدى فطرته وعقله وخبراته ، إلى الخلق والإبداع ، ليؤكد ذاته وقدراته ، مبتغيا الارتقاء بروحه وتحقيق حياة أفضل. وكان لهذه الثورة الحضارية أثارا بعيدة المدى ، على حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

فمع الاستقرار والحياة فى مسكن ، زادت الروابط الأسرية وتدعمت سلطة رب الأسرة ، كما بدأ يشعر بشدة حاجته لأولاده فى زراعة أرضه ، وجمع خيراتها وصد الغير عنها ، بعد أن كان الأولاد عنها عليه فى ظل حياة الصيد والتنقل الدائم .

ومع ظهور الحرف واتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص ، كثرت المصالح الاجتماعية وتدعمت ، بعد أن شعر أصحاب كل حرفة بحاجتهم إلى منتجات الحرف الأخرى . ومع الزمن بدأت تظهر " روح الجماعة " وفكرة " المصالح المشتركة " ، كدوافع ذات أثر بعيد فى حياة سكان القرى . كما أن الراجح أن كل قرية كان لها

(١) محمود أسفا ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

رئيساً^(١)، يفرض على سكانها عريف الجماعة ، ويفصل فيما يقوم بين أفرادها من خلافات ومنزعات . إذ يوحى تنظيم مسكن مرمدة بنى سلامة بالفعال أهلها " بالوعى الجماعى" ، واحتمال خضوعهم لسلطة تنظم حياتهم . كذلك يمكن أن يستدل على ذلك من بنائهم مساكنهم على ربوة عالية يأمنون فيها من غارات جيرانهم . كما يمكن أن يستدل على وجود نوع من السلطة فى هذه القرية من احتفاظ أحد موتاها بعضما خشبية فى يده ، يحتمل أنها كانت رمزاً للسلطة . وتدل آثار " حضارة الغيوم " على أن أهلها كانوا يجمعون محاصيلهم فى منطقة واحدة، يتعاونون فى حراستها ، وربما عهدوا بهذا العمل إلى رئيسهم وأعوائه . كما يرى البعض أن آثار " حضارة المعادى " تشير إلى احتمال وجود سلطة فى القرية كانت تشرف على تمويلها وجمع محاصيلها^(٢) .

كذلك هناك اعتقاد بين الدارسين لهذا العصر ، بوجود صلات اقتصادية واجتماعية بين القرى ، التى تكاثرت خلال هذا العصر ، نتيجة طول الجوار والاستقرار ، ويدافع "المصلحة المشتركة " التى تفرضها البنية الزراعية على أهلها ، ورغبة فى تبادل المنتجات والمواد الأولية التى يتفاوت حظ القرى المختلفة منها . كذلك دعم العلاقات التى وجدت بين مراكز الحضارة ، ضيق الحيز المكاني الذى عاش فيه السكان ، وسهولة الاتصال بين أجزاء الوادى ، ورغبة الجماعات البشرية المختلفة فى الاستفادة من النهر ، واتقاء مخاطره ، وما استتبعه ذلك من ضرورة التعاون وتوحيد الجهد^(٣) .

وخلال هذا العصر بدأت المدن فى الظهور ثم ظهرت عواصم الأقاليم ، وهى المقدمات التى أدت فيما بعد إلى ظهور إقليمين ، هما الوجهين البحرى والقبلى . ثم ظهور الدولة الموحدة^(٤) .

(١) كان الناس فى هذا العصر ، يعتقدون أنه شيخ الجماعة أو القبية ، هو القادر وحده على حمايتها وعماه ثم حماه من أعدائها .
والصلات الزراعية ، كما أنه القادر وحده على المحاولة على ساحة الجماعة ، وأنه من الإلهام والبر ، وهذا هو دور -
استخدمه السحر فى السيطرة على المناخ والليل . أنظر : التدريب المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٥

(٢) محمود السقا ، معالم تاريخ الفايوم المصرى العرصى ، مكتبة القاهرة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤ ، ٧٥

Balawy , op. cit. p. ٨

(٣)

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ ، ومصطفى عمار ، المرجع السابق ، ص ٥٧

وتدل طريقة دفن الموتى ، والوضع الذى كانت تترك عليه جثثة الميت، ولها بلفائف من الكتان ، ثم تغطيتها بالحصر أو الجلود ، ووضع بعض الأطعمة والأدوات التى كان الميت يستخدمها فى حياته فى قبره ، على ما كان يكنه الأحياء للأموات من احترام وحب . كذلك استدل البعض من آثار مقابر هذا العصر ، على بداية ظهور نوع من العقائد والطقوس الجنائزية ، ورسوخ الاعتقاد بالبعث بعد الموت . كما يرى البعض ، أن المرحلة المتأخرة من هذا العصر ، والتى تتفق وظهور الأقاليم فى مصر، قد شهدت ديانات إقليمية ، فكان لكل إقليم معبود يمثل ، فى نفس الوقت ، الرمز المدال على هذا الإقليم ^(١) .

وتعتبر مساكن هذا العصر ، أول مساكن يقيمها الإنسان لنفسه وأسرته . وكان يعتمد فى بنائها على المواد الأولية المحلية . ونظرا لأن مصر كانت خالية من الغابات ، فى حين كانت الأماكن التى تجلب منها الأحجار بعيدة نسبيا عن الدلتا وقلب الوادى ، لهذا شيد الإنسان بيته من الطين والغاب وأغصان الأشجار القليلة التى كان يجدها . وكانت بعض المساكن بيضاوية الشكل ، كما هو الحال فى مساكن مرمدة بنى سلامة ، فى حين كانت مساكن العمرى مستديرة ، ومشيدة من أغصان الشجر التى يكسوها الطين . وتدل مواقع القسرى ، على أن الإنسان كان يتأثر بالطبيعة فى اختيار المكان الذى يبنى فيه مسكنه ، والموقع الذى يقيم عليه قريته . فقد استفاد من التضاريس فى توفير الحماية لقريته ، ولم يكن يبتعد كثيرا عن موارد المياه .

كذلك كان يحاول تجنب خطر الفيضان ، ويدرك ما للوديان من قيمة كطرق للمواصلات . فقد وجدت " قرية العمرى " على ريو مرتفعة عند مصب وادى حوفا ، قريبا من السهل الفيضى للنيل ، وأقيمت مساكن الفيوم على شواطئ البحيرة من جهة الشرق ويحدها تل مرتفع من الغرب ^(٢) .

(١) م. د. ١٠ ، المرجع السابق ، ص ٧٦ وكذلك ، عبدالعزیز صالح المرجع السابق ، ص ٥١ .

Baklwy, op.cit, p. 10 - 15

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ وكذلك .

وبنجر ١١٨ المواء ، أم المصريين مباشرة على قوارب من النيل ، قبل أن يندأوا من الاستقرار على ضفتى النهر .

وقد سبق أن ذكرنا ، أن هذا العصر قد شهد انتقال مصر من مرحلة الاقتصاد البدائي الذي يقوم على الالتقاط والصيد ، إلى نظام اقتصادي جديد يقوم على الزراعة والرعي ، ويقوم الإنسان في ظلّه بإنتاج غذائه بنفسه ، من خلال مباشرة أنشطة متعددة. بعبارة أخرى، لقد شهد هذا العصر مولد نظام اقتصادي جديد ، تلعب الإرادة الإنسانية دورا كبيرا في توجيهه ، وفي تحديد مستوى كفاءته ^(١) . وفي هذا سبقت مصر كل شعوب الدنيا ^{(٢)(٣)} . هذا ، ويعرف هذا النظام الاقتصادي " بنظام الحضارات القديمة . "

(١) ينسب " موريس " هذه التسلسلة الحديثة " لمرحلة الحجريه " وهي مرحلة أرقى من " مرحلة الوحشية " التي سبقها ، " في التاريخ القديم .

(٢) *Recherches* ١٩٤٧ : ٤٧

(٣)

(٣) فريد من التصيل حول عصر ما قبل التاريخ يمكن الرجوع إلى الأعمال التالية

Peirce, *The Making of Egypt*, London 1939

Leahy and L. J. the Cultures of Prehistoric Egypt, revised edition, Oxford, 1955.

Macdonald, L. J., *Prehistoire et Préhistoire d'Egypte*, Paris, 1939

Leahy, L. J., *Bibliographie de la Préhistoire - Egyptienne*, 1869, 938, Cairo, 1942.

Horton, C. , *Mesopotamia and the Taurus Culture*, London 1937, and *Qan and Badat* 3 vols., 1927-30.

Horton, C. and Chubb - Thompson, *The Badarian Civilization*, London 1928

وكذلك المراجع التي سبق ذكرها .

المبحث الثالث

عصر ما قبل الأسرات : تدعيم ثورة الحضارة ووضع أسس المدنية وبداية تدوين التاريخ

تمهيد :

يقصد " بعصر ما قبل الأسرات " ، والذي يعرف أحيانا " بعصر النحاس " ، المرحلة الحضارية التي تبدأ عند نهاية العصر الحجري الحديث ، مع بداية استخدام الإنسان المعادن في مصر لأول مرة في تاريخه ، وتنتهي هذه المرحلة بتوحيد مصر على يد الملك " منا " أو " نارمر " ، وتأسيس أول أسرة فرعونية تحكم مصر حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد^(١). ومعنى هذا أن المرحلة المبكرة من هذا العصر ، تنتمي إلى حضارات ما قبل التاريخ، في حين تدخل المراحل المتأخرة منه في عداد الحضارات التاريخية^(٢) .

أولا : الملامح الأساسية لهذا العصر :

إذا كان العصر الذي سلف ، قد شهد مولد حضارة جديدة ولدت مع اكتشاف الإنسان الزراعة ونجاحه في استئناس الحيوان ، وما ترتب على ذلك من ارتباط بالأرض وبداية الاستقرار ، وبناء أول مسكن وظهور أول قرية ، فإن عصر ما قبل الأسرات يمثل هو الآخر، مرحلة حاسمة تعد من أخطر المراحل الحضارية في تاريخ الإنسانية بعمامة وفي تاريخ مصر بخاصة .

(١) هناك اعتقاد واسع الانتشار ، بأن الوحدة التي تحققت في "عصر منا" Menes ، قد سبقها كفاح مرير من أجل توحيد مصر خلال عصر ما قبل الأسرات ، وأن أول وحدة عرفتها مصر كانت حوالي عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد، حيث أقيمت أول حكومة مركزية في مصر ، تأسست من "أوف" أو "ميجوبريس" " أو عن شخص "أوف" عاصمة لها . والراجح أن أول من جعل راية يوسف مصر خلال هذه المرحلة المبكرة هم سكان الدلتا . ولكن لم يقدر لهذه الوحدة البقاء ، فمما لبثت مصر أن انقسمت على نفسها مرة أخرى ، إلى مملكتين ، إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب . وقد أعقب الانقسام فترة من الممارعات والحروب بين مملكتي الشمال والجنوب ، حتى قدر لأهل الجنوب الانتصار وتوحيد مصر مرة أخرى في "عصر منا" . ولكن رغم هذا ، فإن البعض لا زال يعتقد أن أول وحدة سياسية عرفتها مصر كانت على "يد الملك منا" الذي عرف في تاريخ مصر بـ "موسى القطري" و "حامل التاجين"

أنظر تفصيل ذلك : محمود السقا ، المرجع السابق ، وعبدالمعز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦٦ - ٨٠ .
Gardiner, op.cit , p.384-399 and Hoffman , Egypt before the Pharaohs , 1979

(٢) يسمى كل عصر المعادن في أوروبا إلى عصر ما قبل التاريخ .

ففى عصر ما قبل الأسرات ، انتصرت الإنسانية على أخطر العوائق والعقبات التى كانت تقف فى سبيل ارتقائها ، ودعمت ثورة الحضارة التى شاهدها العصر الذى سلف ، كما مهدت الأرض وأرست الدعائم الأولى للمدنية الإنسانية التى تمثلت فى حضارة مصر الفرعونية .

ستظل ذاكرة البشرية تعرف وتعى أن مصر ، خلال عصر ما قبل الأسرات قد حققت بعضا من أعظم انتصاراتها الحضارية : فى هذا العصر ظهرت المدينة ، ثم الإقليم ، ثم ولد أول مجتمع عرف بنظام الدولة ، عندما نجحت مصر فى تحقيق وحدتها السياسية ، وأنشأت أول حكومة مركزية عرفها التاريخ ، كما أرست ديبالاتها ووضعت أصول الحكم وتقاليد المجتمع والملكية .

وخلال هذا العصر اكتشف الإنسان المعادن ، وعرف كيف يستخدمها فى تحقيق أغراضه ، الأمر الذى كان له أبعد الأثر فى كل تاريخه .

وخلال هذا العصر اهتدى الإنسان إلى الكتابة ، فبدأ يعرف كيف يكتب ، وكيف يعد ، وكيف يكتب تاريخه . وهكذا تركت الإنسانية عصور ما قبل التاريخ ، وبدأت عصورها التاريخية على أرض مصر . كما بدأ فى وضع أسس أقدم الفنون التى عرفتها الإنسانية^(١).

وفى لحظة حاسمة خلال هذا العصر ، اهتدى الإنسان إلى أول حساب أو تقويم للزمن ، عرف أن السنة تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، قسمها إلى اثنتى عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، أما الأيام الخمسة الباقية ، فهى الأيام التى ولدت فيها آلهة مصر الخمسة : أوزيريس ، وإيزيس ، وست ، وحورس ، ونفثيس^(٢) .

(١) عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٨١-٨٣ وكذلك 19-26 pp. cit. and 125-127 pp. cit. (٢) كان الإنسان يرقب مجئ الفيضان ، فاكشف أنه ظاهرة متكررة كل عام، ثم عرف فى لحظة حاسمة وحالدة أن مجئ الفيضان إلى مصر ، يقرن عادة بظهور " نجم الشعرى اليمانية " فى سماء مصر فى نفس لحظة شروق الشمس مرة كل عام ومع الررس عرف أن عليه أن ينظر ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، حتى يرى " الشعرى اليمانية " تظهر مرة أخرى فى سماء مصر لحظة شروق الشمس . وكان المصريون القدماء يسمون هذا النجم " سيدب " وهذا النجم هو النجم " القبا " من المجموعة المعروفة باسم " النجم الكلب " " the Dog Star " وقد عرف الكهنة فيما بعد أن قسمة المصرية القديمة تقبل على السنة القمرية ربع يوم، أنظر : محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق الذكر، ص ٢٣-٢٦ ، ألدريد ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

ثانيا : النظام السياسى والاجتماعى :

شهد عصر ما قبل الأسرات تطورا هاما فى نظام الحكم ، أدى فى نهاية الأمر ، إلى ظهور الدولة والشعور بالانتماء إلى وطن ، كأساس لنظام الحكم .

فقد تحولت بعض القرى مع الزمن ، وبطريقة لا نعرفها ، إلى مدن . ثم نجحت إحدى المدن ، بطريقة ما ربما قائمة على القهر ، فى تجميع مدن وقرى أخرى حولها ، فظهر الإقليم . وكان لكل إقليم شعار أو رمز من نبات أو طير أو حيوان ، كان أهل الإقليم يعتقدون أنه يجلب لهم الخير ويمنع عنهم الشر .

ويبدو أن هذه الأقاليم قد خطت خطوات هامة ، فى سبيل تنظيم العلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية داخل الجماعة ، وفى تحديد أسس وتقاليد المجتمع البشرى ، وبيان حقوق الفرد وواجباته . وهى فى كل هذا ، كانت تقترب بطريقة تدريجية من فكرة "السلطة العامة " و " الدولة ذات السيادة " .

ومع الزمن بدأت الأقاليم فى الاندماج ، ربما بدافع المصلحة المشتركة وربما تحت وطأة القوة ، فى دويلات أو ممالك تمثل نطاقا أكبر من الأقاليم الفردية التى تشكلها . ثم انتهى الأمر ، إلى اندماج هذه الدويلات فى مملكتين ، إحداهما فى شمال مصر وشعارها الناج الأحمر ، والأخرى فى جنوب مصر ، وشعارها الناج الأبيض . وهناك اعتقاد واسع الانتشار بين الباحثين ، بأن توحيد مصر فى عصر الملك "منا" (نارمر) لا يمثل الوحدة السياسية الأولى التى عرفتها مصر ، بل سبق ذلك محاولات لتكوين وحدة سياسية ، قد يكون أولها قد تحققت قبل عصر "منا" بألف عام ، حيث عرفت مصر أول حكومة مركزية فى تاريخها وتاريخ البشرية قاطبة ، وأن هذه الحكومة اتخذت من " أون " (هليوبوليس) عاصمة لها .

والراجح أن هذه الوحدة لم يقدر لها الإبقاء ، إذ انقسمت مصر على نفسها ، إلى مملكتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب . والراجح أن العصر الذى أعقب انهيار وحدة مصر ، كان عصر منازعات وحروب ، لا شك أنها تركت أثرا سيئا على

حضارات مصر ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية^(١).

١ - محمد العربي صالح ، التاريخ الاممى القديم ، ... سبق ذكره ، ص ٦٦ - ٧٢ وأحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٥٦ ، حدث بشرى إلى أنه مقبلة "نوتو" (نل الفراعين) كانت عاصمة الدنيا أما عاصمة الصعيد فكانت الكاب

ثم جاء " منا " ليوحد القطرين ويلبس التاجين ، مؤرخا بذلك بداية تاريخ مصر
القرعونية .

هذا ، وقد شهد هذا العصر بداية ظهور التفاوت فى الثروة والدخل ، وانعكس
ذلك فى التباين الواضح فى نوع المساكن ومحتوياتها ، وكذلك المقابر ومحتوياتها ،
واتسع نطاق الملكية الفردية فى العقار والمنقول .

ويمكن القول إن هذا التفاوت فى الثروة ، كان مقدمة لانقسام المجتمع إلى
طبقات عدة . كما ظهرت خلال هذا العصر طبقة أهل الحرف أو الصناعات ، إلى جانب
المزارعين والرعاة والتجار . وكان الحرفيون ينقسمون إلى طوائف عديدة . وهكذا
شهد هذا العصر مولد أول طبقة لعمال الصناعة فى تاريخ الإنسانية .

ولكن على الرغم من تفاوت الأفراد فى الثروة ، فيمكن القول إن مستوى
معيشة غالبية أفراد الشعب قد تحسن بشكل ملحوظ ، وكثر الاهتمام بوقت الفراغ
والمتعة ، كما يتضح من كثرة أدوات التسلية والزينة التى وجدت ضمن مخلفات هذا
العصر .

وهناك أدلة على قيام نوع من التعاون بين السكان ، على قدر لم يكن مألوفاً
من قبل . فعند أطراف مدينة المعادى أقيمت مخازن ومواقد كبيرة لخدمة السكان
جميعاً . ويبدو أن ظروف الدلتا كانت تفرض التعاون بين السكان أكثر من الصعيد ،
نظراً لما يقتضيه التحكم فى الفيضان ، وحماية القرى والمدن فى تلك السهول الواسعة
المكتشوفة ، من جهود مشتركة وتعاون دائم .

ثالثاً : مواطن حضارة هذا العصر :

يميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بتعدد الأنماط الحضارية التى عرفها عصر ما
قبل الأسرات ، وأنه ليس من الحكمة أن نؤكد وحدة حضارة مصر خلال هذا العصر .
ولكن على الرغم من تعدد أنماط الحضارة ، فإن الراجح هو عدم وجود اختلافات
حضارية ذات أهمية بين الحضارات المختلفة ، التى وجدت فى مصر خلال هذه الحقبة .
كما أن من المحتمل أن هذه الحضارات قد أخذت فى التقارب ، واتخاذ نمطا حضاريا

واحدًا في المراحل المتأخرة من هذا العصر ، بحيث يمكن القول بأن مصر عرفت وحدتها الحضارية قبل أن تتحقق وحدتها السياسية والدينية في عصر " منا " .

وتمثل "حضارة العمرة"^(١)، غرب النيل قرب قنا، والتي تعرف أيضاً "بنقادة (١)" الحضارة القديمة لعصر ما قبل الأسرات، في حين تمثل "حضارة البداري" بداية استخدام الأدوات النحاسية وإحلالها تدريجياً محل الفأس اليدوية. بينما تمثل "حضارة جرجا" قرب بني سويف، والتي تعرف أيضاً "بنقادة" (٢)، المرحلة الوسطى لحضارات عصر ما قبل الأسرات. بينما تعتبر "حضارة سماتية" ممثلة لمرحلة المدنية في حضارات هذا العصر. وإذا كانت "حضارة سماتية" متممة "حضارة جرجا"، فإنها تمثل في نفس الوقت، مرحلة الانتقال إلى الحضارات التاريخية. وقد وجدت آثار حضارات هذا العصر في مناطق كثيرة من الصعيد ومصر الوسطى والغربية، وفي أماكن متفرقة في شمال مصر كالمعادى وقرية "العمرى" ومرمدة بني سلامة.

وقد تميز هذا العصر بزيادة الاتصال بين المراكز الحضارية في مصر، وبين مصر والخارج، سعياً وراء التجارة والمواد الأولية ، مثل الأصواف والمعادن والأحجار الكريمة وبعض الأخشاب. كما تقدمت خلال هذا العصر طرق المواصلات بشكل ملحوظ، وخاصة الطريق البري بين النيل والبحر الأحمر، حيث يستخرج النحاس والذهب، كما تقدمت وسائل النقل البحري وصناعة السفن.

والراجح أن الاختلافات العنصرية بين أهل الدلتا والصعيد، والتي سبقتنا الإشارة إليها، قد استمرت خلال هذا العصر. وأن حضارات شمال مصر كانت أرقى على العموم من حضارات الصعيد، كما أن المدن والقرى كانت أكثر في الدلتا. كما يعتقد البعض أن الكتابة بدأت في شمال مصر. كما أن هناك احتمال وصول أهل الدلتا إلى أول تقويم للزمن عرفته البشرية، حوالي القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد، أي قبل قيام الأسرة الأولى بحوالي ألف عام. وكان اختراع التقويم استجابة

(١) وحدها في الوباء، وفي المنطقة الممتدة من أسبوط حتى أسوان، وفي مصر الوسطى في المنطقة الممتدة من الفيوم إلى بني سويف، وفي الصحراء الشرقية عند نية قنا، وفي حلوان في وادي جوف.

لنظام الفيضان وظروف الزراعة. وهذا دليل قوى على مدى القصور الذى بلغه الفكر الإنسانى فى مصر خلال هذا العصر. والظاهر أن اكتشاف التقويم أو حساب الزمن، قد حدث فى نفس الوقت الذى عرفت فيه الكتابة.

وقد استدل على اعتداء الإنسان إلى الكتابة، من الأتية الفخارية لعصر ما قبل الأسرات. فقد وجدت على هذه الاواني علامات كثيرة تدل على مالكتها أو على محتوياتها. كما عثر قبل الأسرة الأولى، على أسماء مدونة لملوك حكموا قبل "منا". كما عثر على أدوات الكتابة كاملة فى عهد الأسرة الأولى ، الأمر الذى يدل على أن نشأة الكتابة ترجع إلى ما قبل الأسرة الأولى . كما عثر فى المعادى على مساكن مستطيلة الشكل، تعتبر صورة طبق الأصل، للحروف الهيروغليفية التى استخدمتها مصر الفرعونية للدلالة على الدار. كذلك ترجع بعض العلامات الهيروغليفية المألوفة إلى العصر الذى تمثلته "حضارة جرل"^(١).

ومن الجدير بالذكر ، أن حضارات عصر ما قبل الأسرات، كانت وثيقة الصلة بحضارات العصر الحجري الحديث . فمن المعروف الآن، أن "حضارة البدارى" كانت على صلة وثيقة بحضارات العصر الحجري الحديث فى ديرتاسا والفيوم، وأن بعض عناصر "حضارة المعادى" كانت مستمرة فى "حضارة مرمدة بنى سلامة"، التى تمثل حضارة العصر الحجري الحديث فى الدلتا. ومما يؤيد هذا الاستمرار الحضارى من العصر الحجري الحديث إلى عصر ما قبل الأسرات، بعض الأدلة المستمدة من تقاليد العقائد الدينية التى استمرت، مع بعض التطور خلال كل هذه العصور. فطريقة الدفن لم تتغير كثيراً، وتقديس الحيوانات وعبادتها، وهى من العادات التى بدأت فى العصر الحجري الحديث ، قد استمرت فى عصر ما قبل الأسرات والعصر التاريخى. كذلك بدأ الإيمان بالبعث والحياة الأخرى، فى عصور موغلة فى القدم واستمر عبر التاريخ بعد ذلك.

١- لمزيد من التفصيل حول نشأة وتاريخ ومكان اللغة والكتابة الهيروغليفية، والعلاقة بينها وبين اللغات السامية والحامية، انظر: Gardiner , op.cit , Chapter 11, the Egyptian Language and Writing , pp 12-26

فضلاً عن هذا، فسوف يتضح لنا فيما بعد، أن الدعائم الأساسية لحضارات العصور التاريخية، قد وضعت في عصر ما قبل الأسرات، التي تعتبر حضاراته المقدمة الضرورية لحضارة مصر الفرعونية.

وهذه كلمة موجزة عن بعض حضارات هذا العصر.

حضارة البداري :

سبق القول إن حضارة البداري قد شهدت تطوراً هاماً في أدوات الإنتاج، تمثل في بداية استخدام النحاس في صناعة أدوات جديدة، أخذت تحل تدريجياً محل الفأس اليدوية. وقد مكن هذا التقدم في طرق وأدوات الإنتاج، أهل البداري من استغلال ثروتهم النباتية بطريقة أكثر تقدماً. كما شهدت البداري ارتفاع صناعة الأواني إلى حد الإعجاز، حتى بالمقارنة بمستويات العالم المعاصر، وانتشار وارتفاع أدوات الزينة، وصناعة القوارير والملاعق، كما تميز البداريون بمهارة فائقة في الغزل والنسيج. وقد اعتمد البداريون في حياتهم على الزراعة والرعي والحرف، والمعتقد أنهم كانوا من أرقى الجماعات التي عاشت في هذا العصر. وكان البداريون على صلات تجارية بشرق البحر المتوسط وبسبانيا^(١).

حضارة العمرة أو نقادة (١) :

تمثل حضارة "العمرة" مرحلة حضارية مستقلة. وتؤكد آثارها زيادة العمران والثروة، الأمر الذي يدل على أن كفاف الرعي الأول من بناء الحضارة، كان قد بدأ يعطى ثماره. كذلك تدل آثارها على أن الزراعة قد أخذت في الانتشار، وبدأ التفاوت في الثروة بين طبقات المجتمع في الظهور، كما استدل على ذلك من التباين الواضح في المساكن ومحتوياتها والقبور ومحتوياتها، كما تعددت وسائل التسلية والمتعة وارتقت الفنون.

^(١) Branton, and Caton-Thompson, the Badarian Civilization, 1928 and Redman, C., The Rise of Civilization, op cit, pp281-283.

وقد تميزت المرحلة الحضارية التي تمثلها هذه الحضارة بظهور المدينة
كأساس للتجمعات البشرية^(١).

حضارات جرزا أو نقادة (٧) :

تعتبر هذه الحضارة مرحلة حضارية أكثر رقيًا، من الحضارات الأخرى التي
عرفها هذا العصر، كما يستدل على ذلك من آثارها ، التي تعكس تقدما ملحوظا في
المظهر المادى والمعنوى للحياة، وتعدد الحرف، وارتفاع أدوات الإنتاج والمنتجات ،
وبداية استيراد بعض السلع من الخارج، لعدم توافرها في مصر. وكذلك شهدت جرزا
اتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص. كما شهدت هذه المرحلة، ارتفاع وسائل
المواصلات، خاصة النقل النهري^(٢).

وكان من أهم الصناعات التي ارتقت بشكل ملحوظ صناعة الفخار ، التي تعتبر
خير شاهد على درجة الرقي التي وصل إليها أهل جرزا، حتى عرفوا في تاريخ الحضارة
بـ"شعب الفخار الملون". وكذلك ارتقت صناعة الزجاج وفن أو صناعة النحت .

رابعاً : موارد الثروة ومظاهر النشاط الاقتصادي :

اعتمد غالبية سكان مصر على الزراعة، كما أخذت الصناعات الحرفية
والجارة في الانتشار، كمصدر أساسى للدخل في المرحلة المتأخرة من هذا العصر. أما
التصيد، فقد أخذ يفقد أهميته تدريجياً، وخاصة في أواخر هذا العصر، نتيجة انقراض أو
هجرة الكثير من الحيوانات إلى الجنوب.

وهذه كلمة موجزة عن الزراعة والصناعات الحرفية في هذا العصر.

(١) الزراعة وتربية الحيوان :

على الرغم من كثرة المستنقعات وأحراش الغاب والبردى في هذا العصر،
وخاصة في منطقة الدلتا، إلا أن مساحة الأراضي المزروعة قد اتسعت بشكل ملحوظ.

(١) و(٢) عبد العزيز حسان، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٥٤ - ٦٤ وكذلك :
Petrie, The Wisdom of Egyptians , London, 1940, p. 41 and Perhistoric Egypt , op cit., p. 16.

وقد تميزت المرحلة المتوسطة من هذا العصر، والتي تمثلها "حضارة جرزا"، باتساع مساحة الأراضي الزراعية وتقدم الزراعة، مما أدى إلى زيادة الإنتاج الزراعي بشكل ملحوظ، وتراكم الفائض الإنتاج عند بعض المزارعين. وقد أدى هذا بدوره إلى تزايد أهمية التجارة كوسيلة لتصرف هذا الفائض. والراجح أن الثروة النباتية لم تكن تختلف كثيراً عن تلك التي عرفتها المرحلة الحضارية السابقة، وإن كان الإنسان قد عرف خلال هذا العصر النخيل والجميز والتين والخوخ^(١).

وقد اتسع نطاق استئناس وتربية الحيوانات، مثل الأغنام والأبقار، للاستهلاك والإنتاج. كما عاشت في مصر بعض الحيوانات المفترسة، مثل فرس البحر والتمساح والغزلان والأسود والذئاب والخنازير البرية، ولكن أهميتها تضاعفت في أواخر هذا العصر، الأمر الذي أدى إلى تدهور مركز صيد الحيوانات في اقتصاديات مصر في أواخر هذا العصر.

(٢) الصناعات الحرفية والاستخراجية :

شهدت مصر خلال هذه الفترة، تقدماً ملحوظاً في الكثير من الصناعات الحرفية، كما تقدمت طرق وفنون الإنتاج وأدواته، وارتقى مستوى المنتجات إلى درجة لم تعرفها مصر من قبل، كما اتسع نطاق تقسيم العمل والتخصص الحرفي وتعددت مظاهره، كما بدأ الحرفيون في تشكيل الطوائف.

وقد ارتفعت خلال هذا العصر صناعة الأواني الفخارية والأدوات الحجرية وأدوات الزينة عما كانت عليه. فضلاً عن هذا، فقد بدأت الصناعات المعدنية في الظهور، وزادت أهمية الصناعات الاستخراجية، كتعدين النحاس والذهب وقطع الأخشاب.

(١) كان هناك اعتقاد أن الزراعة وصلت إلى مصر من الخارج، وأن ذلك تم في عصر ما قبل الأسرات، ثم أصبح خطأ هذا الرأي بعد الكشف عن "حضارة بالداري" الزراعية، وحضارات العصر الحجري الحديث. فقد أصبح أن أجل العصور ومرحلة من سلامة كانوا أولي وراع في التاريخ ومن أوائل من استأنس الحيوان وربيته. وربما كانت معرفة مصر للزراعة ترجع إلى عهد عابث في القدم، مصطفى عامر، المرجع السابق ص ٦٨ والدريد (سبرول)، الحضارة المصرية. ترجمة مختار السويدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢، ص ٦٣، ٧٨، وكذلك : Redman, op. cit., p. 282

ويبدو أن الصناعات كانت تميل إلى التوطن بالقرب من مصادر المواد الخام. ومن الأمثلة على ذلك توطن صناعة الأدوات الحجرية قرب المحاجر، وإن كانت عملية صقل وتهذيب هذه الأدوات، كانت تتم داخل المدن أو القرى، بعد أن تكون المواد الخام قد فقدت جزءاً كبيراً من وزنها. كذلك يبدو أن صناعة أدوات الزينة كانت تميل هي الأخرى إلى التوطن في مناطق جمع الأصناف، مثل منطقة البحر الأحمر أو وادي الحمامات، حيث كانت تصنع الأساور ثم ترسل بعد ذلك إلى الأسواق في منطقة الوادي.

وهذه كلمة موجزة عن بعض الصناعات.
صناعة الأدوات الحجرية :

وصلت هذه الصناعة إلى درجة عظيمة من الاتقان والرقى، وتعتبر تجسيدا رائعا لمهارة الإنسان. وقد تنوعت منتجات هذه الصناعة بشكل ملحوظ. إذ بدأ الصناع في إنتاج السكاكين ذات المقابض التي تكسوها طبقة رقيقة من الذهب، خاصة في منطقة الفيوم والمعادى. ولعل أجمل منتجات هذه الصناعة في عصر ما قبل الأسرات، كانت الأنية الحجرية المصقولة التي أنتجتها الفيوم، والتي تعتبر من أجمل وأروع ما أنتج الإنسان في كل تاريخه الحضارى. وتقدمت هذه الصناعة في البدارى وجزرا والعمرة. كما بدأت صناعة التماثيل الحجرية في الظهور.

صناعة الأنية الفخارية :

استمرت صناعة منتجات الفخار، كالقدور التي تصنع من طمي النيل كما كانت عليه في العصر السابق، ولكنها حققت قدراً ملحوظاً من التطور في أنواعها وأشكالها، وارتفعت درجة جودتها وقوى الاتجاه نحو تلوينها. ويمكن أن نفسر هذا بالتقدم الذى حققته طرق إنتاج الأنية الفخارية. إذ اتضح أن أفران حريق الفخار كانت محكمة الغلق. كما هو الحال في الأفران التي وجدت في منطقة المعادى. ولكن على الرغم مما حققته هذه الصناعة من تقدم، فقد ظلت يدوية، ذلك لأن عجلة صانع الفخار لم تكن قد اكتشفت بعد. ومن الراجح أن صناعة الأنية الفخارية كانت حرفة المرأة^(١).

صناعة منتجات العاج والصدف :

كان لهذه الصناعة شأن كبير عند البداريين وأهالي العمرة وجرزا، وكان من أهم منتجاتها العنقاب والأبر والدبابيس والأساور والخواتم، وكذلك التماثيل الصغيرة.

الصناعات الخشبية :

لم يعثر المنقبون ضمن آثار هذا العصر، إلا على القليل من منتجات الخشب لسرعة تلفه بمرور الزمن. وقد وجد هذا القليل في البدري والمعادي. ومن المحتمل أن هذه الصناعة لم تتقدم كثيراً خلال عصر ما قبل الأسرات، نظراً لرداءة الأخشاب المصرية، بسبب خشونتها وشدة جفافها واتسامها بالقصر والانتواء. وقد اعتمدت مصر على الأخشاب المستوردة، مثل الأرز والأبنوس، لمواجهة حاجتها من الأخشاب الجيدة.

وعلى الرغم من رداءة الأخشاب المصرية، فقد برع النجار المصري في الاستفادة منها، من خلال تعديل وتطوير طرق الإنتاج، حتى تتناسب مع خصائص هذه الأخشاب.

وقد استخدم الخشب في صناعة بعض الأدوات، التي كانت تحتاجها الصناعات الأخرى، وفي صناعة الأثاث والسفن.

التعدين والصناعات المعدنية :

لعل من أهم التطورات التي حدثت في هذا العصر، هو معرفة المعادن واستخدامها في الصناعة، وإن ظل ذلك على نطاق محدود. وقد استخدم النحاس في صناعة بعض أدوات الإنتاج اللازمة لبعض الصناعات الأخرى، مثل صناعة المنتجات الخشبية. فضلاً عن هذا فقد سهل استخدام النحاس في صناعة بعض الأدوات، عملية قطع الأخشاب.

وكان المصريون يستخرجون النحاس من مناجمه في الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء، وقد برعوا في طريقة الحصول عليه من مناجمه، على الرغم من الظروف القاسية التي سادت مناطق تعدينه. وقد اعتمدوا في البداية على طرق هذا

المعدن بمطارق من الخشب، ثم عرفوا فيما بعد طريقة صهره وتحويله إلى سبائك باستخدام النار والتيارات الهوائية . وقد وجد في منطقة المعادى بعض سبائك النحاس غير المصنوعة، إلى جانب بعض المنتجات تامة الصنع^(١).

ومن أهم منتجات هذه الصناعة الفؤوس والأزاميل والحراب والسكاكين. وقد أدى التطور الذى حققته هذه الصناعة، إلى ظهور طبقة من الصناع، هى التى اكتسبت مصر شهرتها البارزة ، فى صناعة الآنية وأدوات الإنتاج والأسلحة ذات الطابع المصرى فى العصر الفرعونى.

كذلك بدأ خلال هذا العصر استخدام الذهب والفضة. وكان المصريون يحصلون على الذهب من مناجمه فى الصحراء الشرقية. أما الفضة فكانت تستورد من الخارج، نظراً لعدم وجودها محلياً، الأمر الذى يقطع بوجود علاقات اقتصادية مع العالم الخارجى، حتى فى هذا العصر المبكر^(٢).

وعلى الرغم من أن المصريين قد عرفوا الحديد فى عصر ما قبل الأسرات، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى خواصه الحقيقية، ولهذا لم يستخدم فى الصناعة إلا فى عهد الأسرة الثانية عشر.

صناعات أخرى :

كذلك تقدمت خلال هذا العصر، بعض الصناعات التى ظهرت فى عصور سابقة، مثل صناعة الجلود، وغزل ونسيج الكتان، وصناعة أدوات الزينة التى تنوعت منتجاتها مثل الأساور والخواتم والأمشاط والقلائد والعقود. كما ظهرت فى هذا العصر صناعة مساحيق التجميل الحمراء والخضراء والسوداء. وعرفت النساء استعمال كحل العيون واللون الأحمر للشفاه . وتدل منتجات هذه الصناعة، وخاصة الخزف المطعم بالمينا على مهارة فائقة . كما ارتقت صناعة مواد التلوين والأصباغ وصناعة السلاسل والحصر والحبال.

(١) عرفت طريقة استخراج النحاس وتحويله إلى سبائك وتصنيع السبائك، من العصور التى تمثل مراحل استخراج وتصنيعه، بين آثار حضارات هذا العصر.

(٢) أحمد فخرى، المراجع السابق، ص ٥٧.

وخلال هذا العصر بدأ الإنسان محاولاته الأولى لصناعة القيشاني. كما ارتفعت الفنون وأخذت تحتل مكاناً بارزاً، كما يتضح من الصور الملونة والنقوش والتماثيل المصنوعة من الحجر والعاج، ولاتى تمثل أشخاصاً أو حيوانات لم يعد لها وجود في مصر. ويصل الفن البدائي إلى ذروته ، في المرحلة الحضارية التي تمثلها جرزا، كما يظهر من الصور الملونة، والرسوم المنقوشة، والنقوش الهندسية، وأشكال الحيوانات والنباتات التي كان يزين بها الفخار. وبعض هذه الصور تمثل مناظر للصيد والحرب. كما صنع أهل جرزا نماذج من الصوان للحيوانات ، بعضها في غاية الروعة والجمال^(١).

وقد أدت زيادة الثروة القومية إلى تحسن واضح في مستوى المعيشة. إذ ثرى مساكن جرزا، وقد توافرت فيها جميع عناصر فن البناء، من سقوف وأبواب ونوافذ، وقسمت من الداخل إلى أقسام، بكل منها موقد ومخازن محفورة في الأرض وقدر من الفخار. هذا في حين كانت مساكن العصر السابق بسيطة ومشيدة من الأغصان والطين. كما أدت زيادة الثروة القومية إلى زيادة السكان ، كما يتضح من آثار حضارة المعادي، التي اتسمت بازدهام المساكن وكثرتها، والمساحة الكبيرة التي تشغلها^(٢) كذلك هناك أدلة على زيادة السكان في حضارة جرزا .

كما يمكن أن يستدل على زيادة الثروة القومية وتحسن مستوى المعيشة، من الحالة التي كانت عليها المقابر ومحتوياتها خلال هذا العصر. فقد بدأ عليه القوم يشيدون مقابر أكثر عظمة وأكثر روعة، كما كثر الأثاث الجنائزي مثل الأدوات والأسلحة التي كان يستخدمها الإنسان في حياته.

(١) ثروت حه الله، تاريخ الفن المصري القديم، الجزء الأول، العمارة، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١١٤، ١١٥، ١١٦.

(٢) مصطفى عامر، المرجع السابق، ص ٧٣، وعند العرب صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٤٧، ٨٠. وأحمد محمد، المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٢.

خامساً : العلاقات الاقتصادية الخارجية:

قويت صلات مصر بالمناطق المجاورة خلال هذا العصر. فكانت تحصل على النحاس والأصداف والأحجار الكريمة من منطقة البحر الأحمر، وكانت تستورد الذهب من النوبة، والنحاس والمنجنيز من سيناء، والقار من البحر الميت، والقضبة وبعض الأحجار الكريمة والأخشاب الجيدة من بلاد غرب آسيا واليونان. كذلك هناك ما يقوى احتمال وجود صلات بين مصر والجزء الغربى من شمال إفريقيا مثل الجزائر، وكذلك جنوب أوروبا، ومنطقة الهلال الخصيب والعراق. ويفسر البعض هذه الصلات بأن مصر كانت خلال هذا العصر، قد بدأت تحسب حاجتها إلى بعض المواد الأولية التى لم تكن موجودة لديها، ومن ثم عملت على استيراد هذه المواد وأغلبها سلعا عالية القيمة، من الخارج^(١).

(١) مصطفى عيسر، المرجع السابق ذكره، ص ٧٦، والدويد، المرجع السابق، ص ٦٣ - ٧٨، أحمد م. م. أبو ح. ع. السابق، ص ٥٣ وكذلك، «البحر الأحمر» العدد ١٠٠، ص ١٠٠، «البحر الأحمر» العدد ١٠٠، ص ١٠٠.

الجلد الثالث، العدد ١٠٠، أكتوبر ١٩٥٠، ص ٦ - ١١، مرید. من التفصيل أنظر

Ellis Smith, 'The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization', 2nd, London 1923 and Human History, London 1930, Frankfurt, the Birth of Civilization in the Near East, pp 43, 50 and 100-101. and Hammarstedt, J. J., the Culture of Prehistoric Egypt, pp 25 and 48

الفصل الثالث

مصر الفرعونية : مولد مدنية الإنسان الأولى

فى نفس الوقت، بتغيرات عميقة فى الأوضاع والعلاقات الاجتماعية. ويطلق البعض على هذا العصر، عصر الرخاء الاقتصادى وعصر الحكم العادل. ولكن خلال فترة حكم الأسرة الثانية عشر (حوالى ١٩٩١-١٧٧٨ قبل الميلاد) ، أخذت جحافل الفوضى والإحتلال والظلم تدمر كل شئ من جديد، كما فقدت مصر وحدتها، وانقسمت إلى عدة مقاطعات، كما عرف المغلوبون على أمرهم من أهلها، الظلم والاستبداد على يد أمرائهم وسادتهم.

خامساً - العصر الوسيط الثانى:

وخلاله استمر تدهور مصر الحضارى، حتى انتهى الأمر بسقوط مصر تحت جحافل الهكسوس، حوالى عام ١٧٢٥ قبل الميلاد.

سادساً - عصر الدولة الحديثة أو العصر الامبراطورى:

يبدأ حوالى عام ١٥٧٥ قبل الميلاد ، بتولى الملك أحسن الأول عرش مصر وتأسيس الأسرة الثامنة عشر، بعد أن استكمل مسيرة الرعيل الأول من أسرته، وانهى المحنة التى عاشتها مصر خلال عهد الهكسوس واعاد إليها وحدتها . وتؤرخ بداية حكم "الملك أحسن الأول"، بداية أمجاد مصر العسكرية والامبراطورية.

وقد شهد عصر الدولة الحديثة، اعلاء صرح الامبراطورية وتدعيم أمجادها، على يد ملوك عظام، كان من بينهم " الملك تحتمس الأول" و"الملك تحتمس الثالث". كما شهد هذا العصر " ثورة الدين " التى اشعل نازها " اخناتون" ، لكى يمهّد الطريق إلى اهتداء الانسانية لحقيقة الأزل، أى وحدانية الله جل شأنه. كما شهد هذا العصر أمجاد الرعامسة، خلال عهد الأسرة التاسعة عشر.

ويشمل عصر الدولة الحديثة فترات حكم الأسرات من الثامنة عشر حتى العشرين. وينتهى هذا العصر حوالى عام ١٠٨٥ قبل الميلاد.

سابعاً - العصر المتأخر:

ولكن يبدو أن أمجاد مصر الامبراطورية، واشراق الحضارة التى بعثتها مصر إلى الدنيا فى هذا العصر، لم تكن إلا الصهوة التى تسبق الموت. إذ أخذت عوامل

الفناء تعمل فيها من جديد. وخلال عهد الأسرة الحادية والعشرين، فقدت مصر وحدتها السياسية مرة أخرى، لتبدأ عصر ذاقته خلاله مرارة ظلم الأجنبي المحتل.

وخلال العصر المتأخر^(١)، بدأت مصر تغفو عن ركب الحضارة، ولم تكن تفيق من هذه الغفوة إلا خلال فترات منقطعة وقصيرة. فقد حكمها أمراء من ليبيا، حتى نهاية فترة حكم الأسرة الرابعة والعشرين. وحوالي عام ٧٢٠ قبل الميلاد، نجح أمراء النوبة في فرض سيطرتهم عليها، ثم صارت ولاية "أشورية" حوالي عام ٦٧١ قبل الميلاد.

ثم استردت مصر وحدتها، على أيدي أحد أمراء الأسرة السادسة والعشرين، خلال ما يعرف "بالعصر الصاوي"^(٢). وقد حاول أحد ملوك هذا العصر، أن يعيد إلى مصر أمجادها وأن يبعث الحياة من جديد في شجرة حضارتها، ولكن هذا الأمل تبدد بهزيمة "الملك نخاو" أمام البابليين.

وفي عام ٥٢٥ قبل الميلاد، دمرت جحافل قمبيز الفارسي ما بقي من حضارة مصر، لكي يعجل بشمس حضارتها نحو المغرب. وحوالي عام ٤٠٤ قبل الميلاد، ثارت مصر مرة أخرى من أجل حريتها المفقودة، ونجح حملة لواء الثورة الوطنية في استعادة هذه الحرية، وأسسوا الأسرة الثامنة والعشرين المصرية.

وقد حاولت هذه الأسرة، كما حاول غيرها من قبل، إعادة أمجاد الغابرين، ولكنها فشلت كما فشل غيرها من قبل في استعادة أمجاد ماضى ولى.

وفي عام ٣٤١ قبل الميلاد، عاد الفرس إلى مصر مرة أخرى، ولكن حكمهم لم يبق طويلاً. فقد جاء الإسكندر الأكبر إلى مصر ليطردهم الفرس ويؤرخ بداية "عصر مصر الهيلينية" في عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

ونفصل فيما يلي ما سبق إجماله .

١ . يحل محل مصر اللاحق إلى . اعتبار عصر الأسرة . الحادية والعشرين من العصور المتأخرة، ولكن أسسوا حضارة مصر بداية حكم هذه الأسرة حتى نهاية عهد الأسرة الخامسة والعشرين، لثقل فترة انتقال ثالثة تربط بين عشرين "واحد" عصر الأسرة العشرين وعصر الأسرة السادسة والعشرين. أسس لمزيد من التفصيل . عبدالعزيم صالح، المرجع السابق، ص ٢٨٠ - ٢٨١، الذين يعمل عصر الدولة الحديثة بـسبب الأسرة الحادية والعشرين، وينتهي عام ٩٥٠ قبل الميلاد .

٢ . نسبة إلى "صالح" في عرب الدلتا.

المبحث الأول العصر الطيني : مولد مدنية الإنسان الأول

سبق أن رأينا أن العصر الطيني^(١) أو ما يعرف أيضاً بالعصر العتيق، قد بدأ حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بنجاح " الملك منا " أو " نارمر " في توحيد مصر وتأسيس أول أسرة حاكمة في تاريخها. وينتهي هذا العصر حوالي عام ٢٨٨٠ قبل الميلاد، ويشمل فترات حكم أسرتين الأولى والثانية. ولهذا يعرف أحياناً بعصر الأسرات المبكر.

والراجع أن تحقيق وحدة مصر السياسية والدينية، ثم الحفاظ عليها وتدعيمها لم يكن أمراً ميسوراً^(٢). فقد تكرر تمرد أهل الدلتا على ملوك منف، كما تكررت الحروب بين أهل الشمال وأهل الجنوب.

وقد أدى توحيد مصر إلى خلق الإطار التنظيمي الملائم لازدهار مدنية العصر العتيق، لأن تلك الوحدة مكنت من تجميع القوى للاستفادة من موارد مصر الاقتصادية المادية والبشرية. كما شهد هذا العصر تقدماً ملحوظاً في نظم الحكم والإدارة، وطرق تدبير شئون الحكم والرعية، كما شهد تقدماً ملحوظاً في أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية وفي الفنون والآداب.

ونفصل فيما يلي ما سبق إجماله .
النظام السياسي والاجتماعي :

كان الملك قمة التنظيم الاجتماعي والسياسي والإداري خلال هذا العصر، كما كان يجسد "الإله رع"، كما كانت الملكية هي رمز وحدة البلاد. وعلى الرغم من تركيز السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية في يد الملك، إلا أن الملكية لم تكن مطلقة مستبدة. فمنذ البداية كانت فكرة العدالة أو "الماعت" في ضمير مصر، حكماً ومحكومين، وكان الملوك عموماً يخشون الظلم ويحرصون على تحقيق العدالة، لأنهم سيحاسبون على ذلك في اليوم الآخر أمام "الإله رع"^(٣).

١- نسبة إلى طينة قرب "سوهاج".
٢- يشك بعض الدارسين في أن مصر حققت وحدتها في عهد الأسرات الأولى والثانية، ويعتقدون أن مصر ظلت مقسمة إلى مملكتين حتى عهد الدولة القديمة، أنظر في ذلك جاردنر Gardiner المرجع السابق، ص ١٠٣ وكذلك:
Redman, H, op, cit, pp - 256 - 286.

٣- على الرغم من الأساس الديني الذي قامت عليه الدولة، إلا أن البعض يعتقد أنها لم تكن دولة دينية، وهذا ما يرمضه للأعباء التي سوف تتصاح فيما بعد، أشهر في وجهة النظر الأخرى، عمود السماء المرجع السابق، ص ١١٩ وما بعدها.

وقد وصل النظام الإدارى خلال هذه الحقبة، إلى درجة عالية من الكمال الذى نعهده فى الدول الحديثة المتقدمة. وكان يعاون الملك فى إدارة البلاد وشلونها، عددا هائلا من الموظفين، كان يعينهم بمراسيم ملكية كعمال لديه، وكان يختارهم من المصريين دون الأجانب. والغالب أنهم كانوا يتقاضون مرتباتهم عينا، ولم تكن الوظائف تورث، كما لم يتمتع الموظفون بأى امتيازات خاصة فى هذا العهد. وقد اتسم موظفى هذا العصر بالولغاء لرؤسائهم، كما اتسموا بالأخلاق الحميدة والأمانة والتواضع الجم.

وكان من أهم الموظفين "المستشار الأكبر"^(١) وكان من الموظفين المدنيين دون العسكريين. لأن نظام الحكم كان يمنع تدخل هؤلاء فى الشئون السياسية. كما كان بين الموظفين "كاتم الأسرار"، "ومجلس العشرة الكبار" الذى كان يتكون من عشرة من كبار موظفى الدولة، وكان يرأسه "المستشار الأكبر". وكان من بين أعضائه مديرو الأشغال العامة والمالية والزراعية والتجارة ومياه النيل والرى والتموين. كما كان الملك يعين نائبا له فى بعض المدن التى تمتعت، لأسباب دينية أو سياسية بوضع خاص. فقد كان كاهن "معبد هوليوپولس" نائبا للملك، نظرا لما كان لهذا المعبد من أهمية.

وقد تقدمت طرق الإدارة بشكل ملحوظ، وظهرت الإدارات الحكومية النوعية، مثل إدارة تحصيل الضرائب، وإدارة التسجيلات التى كانت تسجل فيها كافة التصرفات العقارية وعقود الأحوال الشخصية، وإدارة المالية، وكانت تقوم بأعمال كثيرة مثل حفظ المعادن الثمينة. ودفع مرتبات الموظفين، وتخزين الحاصلات الزراعية. أما إدارة التموين فكان من مهامها الرئيسية حفظ المحاصيل القابلة للتلف، وكان يتبعها الكثير من المخازن مثل مخازن القمح والشعير، وكان هناك إدارات خاصة بالجمارك والتجارة الخارجية وإدارة المحاسبات.

١ - ويرى البعض أن الملك كان له دورا فى عهد الأسرة الرابعة طبقاً للرأى الراجح، وكان هذا اللقب يطلق على سلاء ذى مكانة وكفاءة بمنارة، ثم أصبح المصب وراثياً فيما بعد. أنظر فى ذلك :

ومن أهم الإدارات التي وجدت في هذا العصر مصلحة الأشغال العامة، التي قامت بدور عظيم في تخطيط وتنفيذ الأبنية العظيمة والآثار الخالدة التي خلفها هذا العصر، وكذلك مصلحة الضرائب وكانت تتكون من إدارتين، الأولى تقوم بمهمة جباية الأموال المستحقة على أهل المدن، والأخرى بجباية الأموال المستحقة على أهل الريف. أما تقدير الضرائب فكان يقوم به "مجلس الأعيان" وفقاً للقانون.

أما من الناحية الاجتماعية، فكان الملك هو أيضاً قمة النظام الاجتماعي، ويلي الملك الكهنة وكبار موظفي الدولة ونبل الأقاليم ثم عامة الشعب. ولكن لم يكن لأي طبقة أي امتياز على أخرى، بما في ذلك طبقة رجال الدين. ويعتقد البعض أن جميع أفراد الشعب، أيا كانت صفتهم كانوا متساوين في الحقوق أمام السلطة الملكية، وكانت الوظائف مفتوحة أمام الجميع، بشرط أن يكونوا على قدر من الثقافة والكفاءة. ولكن على الرغم من هذا، فقد ظهرت طبقة من كبار الموظفين والكهنة، أثرت من تولى المناصب العامة، كما كان لها نفوذ سياسي واجتماعي ملحوظ^(١). ومن الراجح، أن أفراد الشعب لم يكن لهم حق التمتع بالحقوق السياسية في مواجهة الملك، بل يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن غالبية أهالي المقاطعات، عدا طبقة الصناع والتجارة، إنما كانوا أرقاء لأمراء الأقاليم وخاصة في الصعيد حيث ساد النظام الإقطاعي. ولكن البعض يعترض على هذا الرأي، ويرى أن مصر لم تعرف نظام الرق حتى خلال هذه الفترة من تاريخها. وإن نظام الحكم لم يكن الملكية المستبدة، ولكن الملكية المطلقة للقانونية، وإن الملك كان ملزماً باحترام القوانين التي يصدرها بنفسه، ما لم يبدلها بقوانين لاحقة. كما إنه كان مقيداً بالنظم الإدارية والسياسية، وأن العدالة كانت قيداً على سلطات الملك، لأنه من سلالة "حورس" إله الخير، كما أنه يحاسب عن أعماله أمام الإله "رع". وحتى يأخذ الملك طريقه في رضا إلى رحاب السماء، وجب أن يكون وفيًا لمبادئ العدالة والخير.

١ - عمود السماء، المرجع السابق، ويرى جاردنر أن خلال هذا العصر بدأ كبار موظفي الدولة يحسبون بأن يبرت أبنائهم مناصبهم بطر
Gardiner, A, op. cit p. 105.

وقد عيّد المصريون، خلال هذا العصر ألّهة كثيرة. فسادت عبادة "أوزيريس" و"إيزيس" و "حورس" في الشمال، وسادت عبادة "ست" في الصعيد. وفي فترة لاحقة كان "حورس" أكثر الألّهة حظوة عند الناس. ثم سادت عبادة "رع"، الذي نسبّه الكهنة إلى "أوزيريس" و "إيزيس" و "حورس"، وهكذا تحققت وحدة مصر الدينية، وإن اختلف الصراع بين "رع" و "أوزيريس" فيما بعد.

المبحث الثاني الأحوال الاقتصادية في العصر العتيق

على الرغم من أن كثرة الحروب بين الشمال والجنوب في هذا العصر، نتيجة تمرد أهل الدلتا على سلطة ملوك الصعيد، قد استنزفت الكثير من موارد البلاد وخاصة في منطقة الدلتا، إلا أنه من المؤكد أن أحوال مصر الاقتصادية قد ازدهرت خلال هذا العصر بشكل ملحوظ. كما يستدل على ذلك من زيادة عدد الأوقاف الملكية، والمعابد، والقصور ومحتوياتها، وانتشار عادة بناء الأسوار حول المدن.

كذلك زاد عدد المدن واتسع نطاقها إلى حد كبير. والراجح أن الزراعة كانت النشاط الاقتصادي الرئيسي في صعيد مصر، في حين كانت التجارة وتربية الحيوان وصيد الأسماك إلى جانب الزراعة، أهم الأنشطة الاقتصادية في مصر عموماً^(١).

فضلاً عما سبق، فقد زادت أهمية الحرف والصناعات والتجارة الداخلية والخارجية وخاصة في منطقة الدلتا، التي كان لها صلات تجارية ببعض مناطق البحر المتوسط والهلال الخصيب. كذلك كانت هناك صلات تجارية بين مصر والصومال.

ويلاحظ أن الصناعة قد ارتقت بشكل ملحوظ. وكان الكثير من منتجاتها في غاية الجمال. كما ظهرت صناعات جديدة لم تكن معروفة من قبل. لقد ارتقت صناعة الأكوام والأواني الحجرية الشفافة، خاصة بعد أن بدأت هذه الصناعة تستخدم النحاس في صناعة أدوات الإنتاج التي اعتمدت عليها.

كما ارتقت الصناعات المعدنية، وصناعة أدوات الزينة، ووصلت حرفة الصياغة إلى مستوى من الجودة كثيراً ما يفوق ما هي عليه الآن. وفي نفس الوقت، اتسع نطاق استخراج المعادن، وعمل ملوك الأسرتين الأولى والثانية على تأمين مناطق التعدين في منطقة البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء. ولكن يلاحظ أن صناعة الخزف تدهورت خلال هذا العصر عما كانت عليه.

^(١) Gardiner, A, op. cit, 103

وعبد العزيز صالح، المشرق الأدنى القديم، سبق ذكره من ٨٩-١٠٠، خاصة من ٩١-٩٨، والدريد، المرجع السابق، ص ٦٤-٥٢.

كما شهد هذا العصر تقدم الهندسة المعمارية وصناعة البناء. والراجح أن هذا العصر قد شهد مولد أول بناء من الحجر عرفه الإنسان. ثم أخذت المباني الحجرية في الانتشار في عهد الأسرة الثانية ، وبدأ المصريون في استخدام الخشب في تغطية أرضية المنازل.

النظام الاقتصادي :

يعتقد البعض أن فرعون مصر كان ملكاً للأرض ومن عليها، ولكنهم فرقوا بين الأراضي الزراعية والأراضي السوداء والأراضي الصحراوية، وأن ما كانت تدره الأرض الخصبة من خير هو ملك للملك وحده، ولكنه كان يقوم بتوزيع جزء منه لغذاء الشعب.

ويذهب هذا الرأي إلى أن مصر خلال هذا العصر لم تعرف الملكية الفردية. وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن القول بأن مصر عرفت نظاماً اقتصادياً يمكن وصفه بأنه "الاحتكار الملكي" أو "رأسمالية الملك"، الذي كانت شخصيته تجسد الدولة.

وقد ذهب رأى آخر، إلى أنه على الرغم من أن الملكية كلها كانت ملكاً خاصاً للملك من الناحية النظرية، إلا أن الأفراد كانوا يتمتعون بحق الانتفاع كمنحة من الملك، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تفتيت أموال الملك وانفصال أموال الأفراد عن أمواله، كما استدل على ذلك من بعض الوثائق التي ترجع إلى فترة حكم الأسرة الخامسة. كذلك تحول حق الانتفاع الذي كان الملك يهبه لبعض الأفراد، إلى ملكية خاصة لهؤلاء وخاصة في العصر الإقطاعي.

وإلى جانب هذا، وجدت "حقوق الإله" والتي كانت تتمثل في مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، التي كانت توقف على المقابر والمعابد، ويقوم رجال الدين بالإشراف عليها، مقابل جزء من ريعها. ولم يكن في الإمكان التصرف في هذه الأوقاف الدينية بأي نوع من أنواع التصرفات. ومع الزمن زادت سيطرة الكهنة على هذه الأرض، الأمر الذي أدى إلى فقدان الملك ملكية هذه الأرض، فأصبحت ملكاً خاصاً للكهنة.

ويذهب رأى آخر إلى أن الأفراد كان لهم حق الملكية الفردية على الأراضى الزراعية، وإن الأراضى لم تكن كلها مملوكة للملك. وهناك الكثير من الأدلة التى تؤيد هذا الرأى (١).

ويعتقد أن خلال هذا العصر، تم القضاء على النظام الإقطاعى وطبقة الأشراف القديمة التى كانت تتكون من الملاك الزراعيين، ولكن بقاء النظام الإقطاعى الذى ساد قبل بداية عصر الأسرات، ظلت موجودة فى صعيد مصر.

ويلاحظ أيضاً، أن الدولة كانت تقوم بدورا هاما فى النشاط الاقتصادى، وكثيراً ما كانت المشروعات الاقتصادية مملوكة لها، كما هو الحال بالنسبة للصناعات الاستخراجية والتعدين وبعض الحرف. كما كانت الدولة توظف عدداً كبيراً من العمال، الذين كانوا يعملون فى مشروعاتها المختلفة بما فى ذلك خدمة المعابد والمقابر.

١- أنظر فى تفصيل هذا الخلاف، محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٢٦-١٣٢، شفيق شحاته، تاريخ القانون الخاص فى مصر، صوفى أبو طالب، مبادئ تاريخ القانون، ص ٢، وعبد العزيز صالح، الأرض والملاح فى مصر الفرعونية، سبق ذكره، ص ١٩ - ٢٢.

المبحث الثالث

عصر الدولة القديمة أو عصر بناء الأهرام :

ذروة الخلق والإبداع الحضارى

تمهيد :

يبدأ هذا العصر مع بداية عهد الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٧٨٠ قبل الميلاد، وينتهى بنهاية الأسرة السادسة حوالى عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد.

ويمثل هذا العصر، فى وضوح صارخ، ذروة الخلق والإبداع المادى والروحى فى تاريخ مصر الفرعونية. وقد وصف فيلسوف التاريخ ، ' ارنود توينبى ' "والآن جاردنر" "Gardiner" مؤرخ مصر الفرعونية العظيم، عصر الدولة القديمة بأنه يمثل واحدة من اعظم المدنيات التى عرفتها الإنسانية حتى اليوم. فخلال هذا العصر بلغ الخلق الحضارى ذروته، بحيث استنزف قدراً كبيراً من طاقات مصر الخلاقة ومواردها لقرون عديدة.

لقد تمثلت القدرة على الخلق والإبداع ، فى تضافر القوى البشرية ، فى الأداء الهندسى العبقري الذى عرفه هذا العصر، وجسدته فى روعة بالغة أهرام الأسرة الرابعة فى الجيزة ، التى وصفها "جاردنر" بأنها تجسيدا خالداً للقوة الهادفة وعبقرية الأداء الهندسى، الذى لم يعرف مثيلاً له ، فى أى زمان أو مكان^{(١)(٢)}.

كما تمثلت القدرة على الخلق والإبداع فى الجانب الروحى، فى انتشار عبادة "الإله رع"، وبلوغها أوج عظمتها، وهى تحرر الطاقات الكامنة فى الإنسان لكى يشيد أول هرم فى التاريخ ليكون سكناً "للإله رع". كما تشهد هذا العصر

Gardiner, op cit, p 76

-١-

٢- على الرغم من مرور نحو أربعين قرناً على بنائها ، فلا زالت حتى يومنا هذا ، تكشف عن الكثير من الأنوار العلمية ، التى تعد الإنسانية وتثير مصورها . ومن هذه الألغاز ما أكدته بعض الدارسين ، أن أى طعام يوضع فى الهرم يفسد مع الزمن. ولكنه لا يفسد إطلاقاً . انظر لمزيد من التتقيق :

Petrie, F , The Pyramids and Temples of Giza, 1898 and Edwards, I.E.S 'The Pyramids of Egypt, 2nd. edition, London, 1967, and Stevenson Smith, w.,A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdoms, Oxford , 1946.

انتشار عبادة "اوزوريس"، الإله الطيب شهيد الخير. تلك العقيدة، التي تمثل عبقرية وحكمة المغلوبين على أمرهم، في الاهتداء إلى وسيلة تحقق لهم الخلود، وتضمن لهم الخلاص من محنة واقع أليم.

أولاً: فلسفة ونظام الحكم :

شهدت المرحلة الأولى من هذا العصر، وبصفة خاصة فترات حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، ظهور ملوك عظام أقوياء، حملوا رسالة الخلق والإبداع. وقد توخى هؤلاء ، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، العدالة دائماً في حكم رعاياهم. لقد عاشت فكرة "الماعت"، أي العدالة أو الحق، في ضمير مصر وملوكها. وعلى الرغم من تمتع ملوك هذه الفترة بسلطات مطلقة، إلا أن حكمهم لم يكن استبدادياً على الإطلاق.

كان الملك قمة التنظيم السياسي والاجتماعي ، وكان وحده مصدر كافة السلطات، لأنه استمد هذه السلطات من "الإله رع" الذي انحدر الملك من صلبه . كما كان الملك التجسيد البشري لهذا الإله على الأرض. ولهذا اقترن أسماء ملوك هذا العصر باسم الإله "رع" والمثل على ذلك الملك "خفرع" والملك "منكاورع". وكان الجالس على عرش مصر، والتزاماً بالتقاليد الملكية المقدسة، ملزماً بالزواج من أخته، حتى يظل الدم الملكي نقياً^(١).

وكان الملك هو صاحب الحق في اختيار موظفيه، الذين كانوا عماله يستمدون سلطاتهم واختصاصاتهم من ذاته الملكية، ولا يسألون إلا أممه.

وعلى الرغم من حقهم المطلق في اختيار موظفيهم، إلا أنهم كانوا يلتزمون دائماً بما تفرضه القوانين واللوائح، التي وضعوها هم أنفسهم، والتي كانت تفرض اختيار الموظفين من المصريين دون الأجانب. كما كانت تستلزم اتسامهم بالثقافة والعدل والامانة والتواضع وحسن الخلق والقدرة على الصمت في جميع الظروف، والكياسية في التعامل مع الآخرين^(٢). ولعل هذا يفسر الإنجازات الرائعة التي

١ - تصور بعض الآثار ، الإله رع ، وقد تمص شخصية الملك الأب ، وهو يصاحبه الملكة الأم ، ليهيها مولوداً من صلبه .
٢ - صوفي أبو طالب، تاريخ الطبم القانونية والاجتماعية، سبق ذكره، ص ١٨٥ - ١٩٣ وأبطل أيضاً :

Gardiner, op. cit., p. 106

حيث يقول:

"... the Maxims of the vizier Ptahhotep, who lived under Iznasi of Dyn. v, became justly celebrated. Obedience to a father and a superior were the prime virtues, the ability to keep silence in all circumstances, tact and good manners in social intercourse, forthrightness in delivering messages, a humility in fact little short of subservience. If indeed the civil servants of the old Kingdom really possessed these qualities, it would go far towards explaining the success of one of the best organized civilizations that the world has ever seen

حققتها الدولة القديمة، التي تعد واحدة من أفضل المدينات المنظمة التي عرفها العالم حتى اليوم. فضلاً عن هذا، فلم تكن الوظائف خلال هذه الفترة وراثية. كما كان المصريون جميعاً سواء أمام القانون، ولم يكن هناك امتياز لطبقة على أخرى في شغل وظائف الدولة. وعلى الرغم من تفاوت حظ طبقات المجتمع المختلفة من النعيم والثراء والنفوذ، إلا أنهم كانوا جميعاً سواء أمام القانون. أي أن التفرقة لم تكن نتيجة أسباب عرقية على الإطلاق.

وعلى الرغم من أن الملك كان يملك أرض مصر كلها، من الناحية النظرية، إلا أن وثائق وأثار هذا العصر تؤكد وجود الملكية الفردية. ونبين فيما يلي ما اتسم به بعض ملوك هذه الفترة من عدالة:

"الملك زوسر" (١):

نظر إليه أفراد شعبه باعتباره مبشراً بعهد جديد. ويتضح من "قصة المجاعة" التي حدثت في العام الثامن من سنوات حكمه، أن الهم اشتد به، عندما تفاقمت المجاعة بسبب قصور النيل سبع سنوات، وسببت الضرر والآلام لشيوخ البلاد وشبابها وأطفالها، وحاول جاهداً أن يعرف سبب محنة شعبه، وسارع في تقديم القرابين "للإله خنوم"، حتى يزيل الضرر عن البلاد (٢).

"الملك سنفرؤ":

اقترن اسمه "بالمعانت" أو العدالة، إذ كان يسمى "نب ماعت"، أي رب العدالة. واحتفظت أداب العصر، بذكرى عطرة للملك سنفرؤ، قلما نعم بها ملك سواه. كما وصفته نصوص هذا العصر، بأنه كان فاضلاً، يحب المعرفة ويكرم العلماء، كما كان متواضعاً خفيف الظل، يحسن الاستماع ولا يأبى أن يسأل عما لا يعرفه.

كما تؤكد وثائق العصر، أنه فتح مجالاً للثراء والترف في المناصب الكبيرة للناهبين من أفراد شعبه، كما كان يكافئهم، سواء في دنياهم أو بعد وفاتهم.

١- يُعتمد أن اسمه يعنى "الملك".
٢- نشرت قصة المجاعة على صحرة لارالت بادية في جزيرة سهيل جنوب أسوان، ويطلق على هذه الصحرة اسم "الوحدة خداعة" لمهد من التمهيد اعطى: عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ١٠٠٠، سبق ذكره، من ١٠٨ - ١٠٩ وكذلك Carlinier, op.cit, p. 79 and Posner, G., Literature et Politique, Paris, 1956, p. 32

كما قدس أهل سيناء هذا الملك ، أجيالاً طويلة بعد وفاته ، واعتبروه من الأرباب حماتها ^(١) .
"الملك خوفو" :

ظل أفراد الطبقات الكادحة ، يحرصون على بناء مقابرهم حول هرمه بعد وفاته بنحو ألف عام، الأمر الذى يوحى ببقاء ذكره الطيبة بينهم ، ورغبتهم فى التبرك بجواره ، مما يبعد عنه شبهة العتاه المستبدين.

ومع ذلك، فقد ذهب قلة من الباحثين، إلى القول بأن "الملك خوفو"، قد اعتمد على الطغيان والسلطة المستبدة لتسخير الشعب فى بناء الهرم الأكبر ^(٢)، وهذا ما يرفضه جمهرة المؤرخين، إذ لا يمكن للجبر والسخرية ان تنجز هذا البناء العظيم ^(٣). ان الهرم الأكبر ليس مجرد كتل ضخمة من الحجر، إنما هو تجسيد رائع، لعبقرية الأداء الهندسى الفذ، وهذا ما يستحيل تحقيقه بالسخرية والجبر. فحتى اليوم لا يكاد العلم الحديث، وعلى الرغم مما حققه من تقدم مذهل، يجد خطأ معمارياً واحداً فى هذا الصرح العبقري. إن ذلك الإنجاز الفذ، إنما كان نتيجة طموحات فكرية ، كما كان محصلة إيمان دينى راسخ، وهدف نبيل وإدارة حكومية اتسمت، فى رأى جمهرة المؤرخين، بدرجة سامية من الكفاءة والرقى والحرص على القيم النبيلة، إدارة قلما عرفت الانسانية مثيلاً لها فى أى عصر من العصور. وبدون هذا ما كان فى الإمكان إقامة هذا الصرح الخالد على مر العصور ^(٤).

١- عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ .

2- Batawy, A , op. cit, p 5

٣- بلغ ارتفاع الهرم الأكبر ٢٨٠ مترًا وطول قاعدته ما بين ٢٢٧ و ٢٣٠ مترًا، وقدرت ردة الأحجار المستخدمة فى بناءه بنحو ٦,٢٥ مل، قيل أنها تكفى ل بناء سور يهبط بهرساً ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أمثاله وحجمه سراً، أو سور يهبط بتللى الكرة الأرضية عند خط الاستواء ويبلغ ارتفاعه قدماً واحداً كما يقال أن متوسط الخطأ فى طول حواصده لا يقدر ١: ٤٠٠٠، وإن الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد عن ١: ١٠٠٠٣، وأن الخطأ فى عمليات التزييع التى استخدمت فيه لا يعبر كسراً عشوياً. انظر : عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١١٨-١١٩، وأحمد مخرى، "الأهرامات المصرية، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١١٤ وما بعدها

٤- كان اصحاب المقابر يعزرون بأنهم يحسون معاملة الصناع والعمال . إذ يقول رجل من عهد الأسرة الرابعة : "كل سائح عمل فى مقبرتى أوطينه " ، وقال آخر " أرضيت كل الصناع الذين انعموا عملاً منى هذا الفجر ، بالطعام والشيرة . وكل شىء طيب " وقال أحد الذين تولوا أمر الاتباع والعمال : " لم أصرب انساناً وقع تحت يدى ، ولم استعبد احدًا من العمل " . ويبدو لنا ، انه وجود وازع ديبى قوى ، واستغفر " الذاعت " من ضمير الناس ، كان يدعو الملوك وسلية القصور ، لا حسن معاملة العمال والاتباع لاكتساب السمعة الطيبة ، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة يوم الحساب. انظر عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٢٢-١٢٣، وكذلك :

Loynsee, op.cit , pp 136 - 146 , especially , pp. 136 - 137 .

من المسلم به أن ما أقامته الدولة القديمة من أهرام ومعابد وصروح ضخمة ، إنما استلزم تخصيص قدر هائل من الموارد الاقتصادية : البشرية والمادية . كذلك من المسلم به أن هذه الموارد تنقسم بالندرة . فهل في تخصيصها لإقامة هذه الصروح إهدار لها ، وأنه كان من الأفضل أن توجه لتحقيق أغراض أخرى ؟

رأينا فيما سبق أن بعض الباحثين يجيب على الاسئلة السابقة بالإيجاب ، كما يعتقدون أن هذه الموارد قد وجهت لانشطة "غير منتجة" لم تعد بقيادة على الشعب^(١) . وهذا ما نعترض عليه . إن من الخطأ تعريف العمل المنتج على أنه العمل الذي يسفر عن نتائج مادية . إنما التعريف السليم للعمل المنتج هو الذي يترتب عليه خلق منفعة جديدة أو زيادة في منفعة قائمة .

وفي حدود التعريف السابق يمكن القول إن بناء هذه الصروح قد أشبع رغبات قوية تمثلت في إشباع الدوافع الدينية لدى الشعب ، إذ يؤكد ابن العقيدة كانت أكبر وأقوى دافع أثر في حياة المصريين القدماء عبر كل تاريخهم .

ومن هذه الناحية فإن في بناء الاهرامات منفعة لا يمكن إنكارها . لقد رأى المصريون القدماء فيها ، تجسيدا فذاً لقدراتهم الخلاقة المبدعة ، وشاهداً حياً على ما يمكن أن يحققوه من إنجازات . وإشباع لدوافع دينية ملحة^(٢) .

ولو أن العامة، كانوا قد شعروا أنهم ضحية ظلم وجبروت واستبداد ملوكهم، لما حرصوا على بقاء قبورهم حول أهرامات الجيزة، ولما عبدوا "الملك خوفو" وتبركوا به عدة قرون بعد أن انتقل إلى جوار "رع"^(٣) .

١ - عبد المعز صانع، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، وأحمد محري، الاهرامات المصرية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، خاصة ص ١٤٥ - ١٥٢، حيث ينسب المؤلف الثاني وجهة النظر التي نأخذ بها.

٢ - كانت عقيدة "أوروريس" والتعاليم الدينية لهذا العصر، تجعل من بناء قبر، سواء كان هذا القبر قدراً بسيطاً أو مستطلة أو هرمياً، وشهر القبر بكل عناصر الأثاث الجنائزي، واجباً مقدساً على الابن نحو أبيه، حتى يتحقق سلامة جسم المتوفى ويؤمّن له الحياة الأخرى . وكان هذا الواجب أمراً طبيعياً، يشترك فيه الملوك وعامة الشعب . بل إن هذه العادة أخذت طريقها إلى اسطورية أوروريس، وحملت حورس هذا الواجب المقدس نحو أبيه أوروريس . وتدل وثائق هذا العصر، على حرص الأساء على الوفاء بهذا الالتزام أو الواجب، مهما كان التصحية التي يتحملها في سبيل ذلك . أمطر لريد من التمثيل، حول دوافع بناء المقابر، بما في ذلك الاهرام، رستيد، المرجع السابق الذكر ، ص ٨٥ - ١١١ ، خاصة ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٣ - أنظر، أحمد محري، المرجع السابق، ص ١٥٢، حيث يشير إلى أن نقاديس "الملك خوفو" قد استمر لأكثر من ألف سنة بعد وفاته.

فضلاً عما سبق، فقد وفر بناء الأهرامات فرص عمل دائمة وأخرى مؤقتة لآلاف العمال خلال عصر الدولة القديمة. إذ من المعروف أن المهندسين والعمال المهرة، الذين قاموا بعملية تشييد هذه الصروح، كانوا يعملون طوال العام. أما العمال غير المهرة، وأغلبهم من المزارعين، فكانت وظيفتهم الأساسية، قطع صخور الأهرام في المحاجر ثم نقلها إلى موقع البناء، وذلك خلال فترة تعطيلهم عن الزراعة بسبب الفيضان. ومن هذا يتضح أن الهرم الأكبر وحده، قد وفر فرص عمل ضخمة، كانت تعود على القائمين بها بمكاسب مادية، تمثلت أساساً في الطعام والشراب والملبس والمأوى على مدى نحو عشرين عاماً .

وإذا ما سلمنا يتواصل الأجيال واستمرار شخصية الدولة عبر الزمن، فلا يمكن اليوم، لأحد أن ينكر الأهمية البالغة القصوى لهذه الآثار كعنصر حيوى فى ثروة مصر القومية . كما يعتبر عنصر أساسى من بين مقومات الجذب السياحى. ونحن نعرف تماماً، أن النشاط السياحى يدر على مصر عائداً سنوياً يقدر بمليارات الجنيهات. وغنى عن القول إن تلك الآثار وذلك التراث، تعتبر ودون أدنى شك، أحد كنوز الانسانية الفريدة، ولهذا فمن الظلم أن يوصف ولسع فراعنة مصر، بإقامة هذه الصروح، بأنه كان " آفة " .

لقد اعتقد سكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ . عندما كانت الوحدة الاجتماعية الأولى، تتمثل فى الاسرة أو قبيلة أو عشيرة توتمية، أن كبير الاسرة أو شيخ القبيلة أو رئيس الجماعة ، هو وحده القادر على الحفاظ عليها ، وهو وحده القادر على حماية وحفظ ثروة القبيلة من قطاعان الماشية والمنتجات الزراعية، كما أنه وحده القادر على تحقيق الازدهار والرخاء الشامل لكل أفراد الجماعة، كما اعتقدوا أنه وحده القادر على ذلك، لما يتمتع به من قوة غامضة وقدرة على ممارسة السحر، للسيطرة على المناخ وعلى ماء النهر، باعتباره المورد العظيم الذى ينبت الخير فى أرض مصر.

وقد تحول هذا الاعتقاد الراسخ في قدرات شيخ القبيلة على صنع الخير^(١) ، إلى الاعتقاد الراسخ في قدرة فرعون مصر على تحقيق نفس الهدف. ولهذا عمل العامة كل ما في وسعهم ، حتى يرضوه ويحققوا له الخلود.

بعبارة أخرى لقد اعتقد العامة في ذلك العصر، بأن الملكية ورخاء الأرض وأزدهارها، هما في حقيقة الأمر كل لا يتجزأ، أو هما في الحقيقة شيء واحد. لقد اعتقد المصريون في تلك العصور أن ملوكهم كانوا جزءاً لا يتجزأ من نظام كوني. وهذا ما أكدته فيما بعد "أسطورة إيزيس وأوزوريس"، وكيف قدر "أوزوريس" بعد أن تعرض للقتل ونقطعت أوصاله أن يقوم من الموت ، وأن يصبح ملكاً وقاضياً في العالم السفلي، وأن الذي حل محله في الأرض كان ابنه "حورس". ولهذا فقد اعتقد الشعب بأن الملك يجسد في حياته "الإله حورس"، وعندما يموت فإنه يمتزج بأسلافه، ويصبح "أوزوريس" مثلهم . أما ابن الملك أو الملك الجديد الذي يخلفه على عرش مصر فيحكم باعتباره "حورس الجديد"، وإن مصر هي الأخرى تخلق من جديد كلما اعتلى عرشها ملك جديد.

ولهذا فإن معظم الأعمال المادية والأدبية والفلسفية، إنما كانت تدور حول الملك الحي الذي يحكم ، أو الملك الذي مات ووري جثمانه التراب.

كما كانت تتبلور في هؤلاء الملوك فكرة إرضاء الشعب ورفاهيته. ولعل هذا هو السبب المباشر لقيام مصر كلها، بذلك النشاط الاقتصادي العظيم الذي يبدو ظاهرياً، كأنه انجازات لصالح الملوك وحدهم . كما أن العقيدة هي التي منحت الأمة المصرية القديمة، الثقة بنفسها والقدرة على التغلب على الكثير من الصعاب والعوائق المثبطة للهمم^(٢) .

أما الفترة الثانية من عصر الدولة القديمة، فتبدأ في أواخر أيام الأسرة الرابعة تقريباً. وقد اتسمت هذه الفترة ببداية تسرب عوامل الضعف في نظام الحكم واحوال البلاد الاقتصادية. ونعرض فيما يلي لهذه المشكلة .

١ يمكن أن نقارن هذا، مع كثير شيخ القبيلة، في بعض الأماكن الممثلة في إفريقيا حتى اليوم، وما يصقوه من قاصية علم.

Townlee, op. cit. p. 313

شيوخ قبائلهم، انظر

٢ أسطر من تمثيل ذلك، الفرزدق، المرجع السابق الذكر، ص ٩٣ - ٩٦

ثانياً - مظاهر وأسباب الضعف فى أواخر عصر الدولة القديمة :

شهد النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة، خاصة فى عهد "الملك منكاورع"، بداية ظهور أسباب ومظاهر الضعف فى نظام الحكم. لقد سبق أن رأينا، ما تمتع به ملوك العصر المبكر من تاريخ هذه الأسرة، من مهابة وجلال و قدسية واحتكار، يكاد يكون مطلقاً ، لكافة السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وسيطرة كاملة على موارد الدولة الاقتصادية. وقد أسفر كل هذا ، عن تلك الآثار العبقريّة الفريدة الخالدة، التى لن تستطيع حضارة أخرى أن تحققها. ولكن ، وعلى الرغم من كل هذا، فقد توخى ملوك هذه الفترة عدالة الحكم.

أما مظاهر الضعف التى شهدتها الفترة الثانية فى هذا العصر، فيمكن أن نجمل أهمها فيما يلى :

١- الانقراض من قدسية وهيبة وجلال الملوك :

كان قناتو الفترة الأولى من هذا العصر، يلتزمون دائماً بتقاليد هنية صارمة، تفرض على الفنان إظهار الملوك فى أعمالهم، فى قدسية وجلال ومهابة، وفى صورة تكاد تكون مثالية، لما يتعين أن يكون عليه "الملك الإله".

أما خلال الفترة الثانية، فقد أخذ الفنانون يتجراؤون على تقاليد الماضى الصارمة، ربما بسبب ما اتسم به ملوك هذه الفترة من ضعف. فإظهر الفنان "الملك بيبى الاول" جاثياً على ركبتيه وهو يقدم قرباناً للإله، كما اظهر فنان آخر هذا الملك كهلاً يدفع عصاه بيده وبجانبه ولى عهده الطفل عارياً. كما اظهر فنان ثالث، الطفل "الملك بيبى الثانى" عارياً كما ولدته أمه، او جالساً على حجر هذه الأم.

٢- حرص الملوك على التقرب من كبار الكهنة ورجال الدولة :

كان من اهم مظاهر ضعف النظام الملكى خلال هذه الفترة، حرص ملوكها على التقرب من كبار الكهنة وكبار رجال الدولة والمجتمع. وتؤكد هذه الظاهرة نفسها بصفة خاصة، خلال فترات حكم الاسرتين الخامسة والسادسة، كوسيلة لضمان ولاء هؤلاء الكبار لملوكهم .

ولتحقيق نفس الغاية، احتل ملوك هذه الفترة، تربية أبناء كبار رجال الدولة وكبار الكهنة، في القصور الملكية مع أبناء الملك. فضلاً عن هذا، لم يجد بعض هؤلاء الملوك حرجاً في مصاهرة كبار رجال الدولة، حتى أصبح زواج الأمراء أو الأميرات من أبناء كبار رجال الدولة أمراً مألوفاً. بل لقد وصل الأمر إلى الملك بيبسى الأول^(١)، أحد ملوك الأسرة السادسة، أن تزوج هو نفسه ابنة أحد كبار رجال الدولة، كما جعلها الزوجة الرئيسية، واعتُرف بحق ابنها في تسولي عرش مصر من بعده^(٢). ويرى بعض المؤرخين أن هذه كانت المرة الأولى في تاريخ مصر الفرعونية^(٣) التي يتزوج الملك الجالس على العرش، من امرأة لا تنحدر من الأصحاب الملكية.

وهكذا اتهارت أحد التقاليد الصارمة للملكية، التي كانت تفرض على الملوك الزواج من أميرات البيت الملكي، حتى يظل "الدم الملكي" نقياً.

وتمشياً في نفس الاتجاه، بدأ ملوك هذه الفترة الإغراق في الهبات والعطايا والإمتيازات لكبار الكهنة ورجال الدولة، حتى استشرى نفوذ هؤلاء وتطلعوا إلى المساواة بملوكهم وأرباب نعمهم. وكان أكثر أفراد هذه الطبقة سلطة ونفوذ حكام الأقاليم، الذين أنفردوا بالسلطة الحقيقية في أقاليمهم، حتى أصبحت هذه الأقاليم ضيعات مغلقة أو دويلات داخل الدولة، الأمر الذي أدى إلى الانقراض تدريجياً من السلطة المركزية. ومع تسليمنا بأن بعض هؤلاء الحكام قد توخوا العدالة في حكم رعاياهم، كما يتضح من وثائق هذه الفترة، إلا أن بعض هؤلاء قد استأثر بالسلطة وثروة الأقاليم لأنفسهم وأسرهم، على حساب رعاياهم من العامة^(٤). وهكذا، مهدت الأحداث، لتكوين النظام أو الدولة الإقطاعية فيما بعد .

١ - حدث هذا بعد أن انفصل "الملك بيبسى الأول" عن زوجته الملكة، ربما بسبب اشتراكها في مؤامرة ضده، أو ربما بسبب حياة روحية. انظر عبد العزيز صاخب، تاريخ الشرق القديم، ... سبق ذكره، ص ١٣٤. ولا شك أن حدوث هذا الأمر أو هذه الحياة، دليل قاطع على فقدان الملوك جلالهم ورياستهم القديمة.

٢ - بل لعلها المرة الأولى من نوعها بالنسبة للأسر المالكة في العالم القديم كله، انظر المرجع السابق، ص ١٣٤.

٣ - بوي، ملاندرو، الحياة الاجتماعية في مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٤٨، حاشية رقم (١)، حيث يقرر "بوي" أن الأشراف كانوا إقطاعيات كبيرة، وأن الفراعنة قدسوا الكثير من حريتهم، وأصبح الملاك يتعاقدون معهم على البقاء في الأرض هم وأولادهم من بعدهم. وفي النهاية أصبح هذا الأمر وراثياً ينتقل من الشخص إلى أولاده دون قيد أو شرط.

وقد تفاقمت هذه المشكلة مع الزمن، حتى بلغت ذروتها في أواخر عهد الأسرة السادسة، خاصة في عهد "الملك بيبي الثاني"، الذي تولى عرش مصر في طفولته وظل في الحكم نحو تسعين عاماً، انتهت به إلى تحوله إلى حطام بشري .

ونتيجة لكل ما سبق، أصبح عامة الشعب أو المظلومين على أمرهم، أو على حد تعبير "ارنولد ترينبى"، "البروليتاريا الداخلية" في المجتمع المصري، غرباء في وطنهم^(١). ولهذا، لم يجد هؤلاء قسماً بدايئة المحنة، من وسيلة للخلاص منها، سوى الإغراق في عبادة "إله رع"، ثم في عبادة "إله أوزوريس"، الإله الطيب شهيد الخير". وهكذا بدأ الإنقسام بين الراعى، الذى تقاعس عن تحمل مسئولية الحكم العادل من ناحية، والمظلومين على أمرهم من الرعية من ناحية أخرى، واخذ هؤلاء ينكرون ولائهم على ملوكهم، ويتجهون بهذا الولاء إلى "رع" ثم إلى "اوزوريس"^(٢).

لقد استكان ملوك هذه الفترة للدعة والترف، واغرقوا أنفسهم في ملذات حياة القصور والجوارى، وظهروا في آثار هذا العصر، ينعمون بمشاهد راقصات يرتدين ملابس قصيرة شفافة هفافة تكشف عما تحتها، أو يرقصن عاريات تماماً، ترفع إحداهن ساقها العارية حتى تلمس كتف إحدى زميلاتهن. كما يرى الخبراء أن حركات الراقصات قد اتسمت بالجرأة واقتدرت بشكل واضح إلى الحشمة ورقابة الحركات البطيئة، التى اتسمت بها راقصات الفترة الأولى من عصر الدولة القديمة^(٣).

٣- إهتزاز مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون:

ترتب على كثرة ما أغدقه الملوك من عطايا وامتيازات على كبار الكهنة ورجال الدولة، ازدياد نفوذ هؤلاء وثراءهم وتميزهم عن طبقات المجتمع الأخرى. كما أدت هذه السياسة، إلى تعميق الفوارق الاقتصادية والاجتماعية والقانونية بين

١- أو على حد تعبير "ترينبى" في وصف المظلومين على أمرهم بأنهم:

They were "in" the society but not "of" it

كما سبق أن ذكرنا .

٢ يقول "الدريد" في كتابه "الخصارة المصرية" : كانت أمية كل مصرى الخج بل "ابن دوس"، أو المرأة المادقة له "إله أوزوريس"، الذى اعتقد المصريون القدماء أن أوزوريس "دعى بها" اعظم في ذلك الدريد، حرم بل، خصارة مصر . من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة عمارة السويدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢ .

١٠١ حاشية رقم (٣).

٣- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ١٥٣ - ١٥٤

طبقات مجتمع الدولة القديمة، وإلى احتكار هذه الطبقة المتميزة للكثير من وظائف الدولة الكبرى.

بل لقد بلغ الأمر في هذا العهد، حد تولي أفراد هذه الطبقة منصب الوزير، الذي كان أعلى مناصب الدولة، وكان فيما سبق حكراً على أمراء البيت المالكة^(١). فضلاً عما سبق، أصبحت هذه الوظائف وراثية، يتوارثها الأبناء عن آبائهم، بعد أن كانت مفتوحة للنابهين من أبناء العامة. وتؤكد الوثائق التاريخية، أن ملوك النصف الأول من عصر الدولة القديمة، كانوا يرعون هؤلاء النابهين ويغدقون عليهم، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم.

أما أفراد الطبقات الأخرى، كالمزارعين والصناع والعمال، فقد فقدوا الكثير من حريتهم وحقوقهم، وأصبحوا في وضع قانوني بين الحرية والعبودية . بعبارة أخرى، أصبح هؤلاء " أنصاف أحرار " .^(٢)

٤- تواضع الأداء المعماري:

وكذلك انعكست مظاهر ضعف الدولة بشكل صارخ، فيما تركه ملوك النصف الثاني من هذا العصر، من آثار افتقرت إلى الإبداع وروعة الخلق الهندسي، كما اتسمت بضالة الحجم وعدم توافر المتانة والدقة الكاملة. وخير شاهد على ذلك مقارنة أهرام النصف الثاني في هذا العصر بتلك التي تركها ملوك الأسرة الرابعة، خاصة هرم خوفو، الذي كان ولازال يمثل إحدى عجائب الدنيا، لما اتسم به من ضخامة وإبداع وإعجاز هندسي فريد. فقد افتقرت أهرام العهد المتأخر إلى كل هذه السمات، وأخذ "اللبن" يعود مرة أخرى ليكمل بعضها . كما أن بعض ملوك هذا العصر، فشل في إنجاز هرمه أثناء حياته، رغم أنه ظل على عرش مصر نحو أكثر من عشرين عاماً^(٣).

Gardiner, op.cit., pp 95-93 and 104-105

١ - بوى، ملائذره المرجع السابق، ص ٤٨ حاشية رقم (١) ص ٤٨-٥٠.

٢ - يقصد بذلك هرم "الملك مكنورع" الذي ظل ناقصاً ولم يكتمل بناءه إلا في عهد ولده "الملك شيسكاف" . وقد استعمل اللبس دون المنحرف في أيام بعض أجياله الداخلية. أنظر : عبدالعزیز صالح، المرجع السابق، ص ١٣٢، وألدريد، المرجع السابق.

Badawy, A., op.cit., pp 51-52.

الدكتور، ص ١٤٠-١٦٩، خاصة ١٥٨-١٦٩، وكذلك:

" .. Considerably smaller and poorer technically .. "

حيث تصف أهرام العصر المتأخر بقوله :

٥- الغزوات الخارجية :

ويؤكد ما وصل إليه نظام الحكم من ضعف خلال الفترة المتأخرة، ما تعرض له شمال شرق مصر وطرق تجارتها ، من هجمات منقطعة من بعض قبائل البدو التي كانت منتشرة على حدود منطقة الهلال الخصيب^(١). ومن الأمور التي تلفت النظر، أن "الملك بيبى الثانى" ، آخر ملوك الأسرة السادسة، قد تقاعس عن القيام بنفسه للزود عن مصر، وترك مهمة القيام بهذا الواجب المقدس، لوزيره " ونى " .

أسباب ضعف نظام الحكم:

يمكن أن نجل أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف نظام الحكم، خلال النصف الثانى من عصر الدولة القديمة فيما يأتى :

١- الصراع من أجل الملك ، والذي بدأ فى عهد "الملك خوفو"، عند وفاة ابنه الأكبر "كاوعب" الذى كان والده يربيه ويهيئه لحكم مصر. إذ أعقب وفاة ولى العهد، انقسام الأسرة إلى عدة فروع، يترىص كل منها بالآخر. وعلى الرغم من أن "الملك خفرع" قد استطاع أن يحتوى هذا الخلاف، ويعيد للأسرة مكانتها وهيبتها ووحدةها، إلا أن الصراع قد تجدد، ربما عقب وفاة الملك "منكاورع" وكذلك بعد وفاة الملك "شيسكاف".

٢- استكانة ملوك الفترة المتأخرة إلى الدعة والمتعة و الرفاهية، وتقاعسهم عن مسئولية الحكم، وإسرافهم فى العطايا والإمتيازات لكبار الكهنة وكبار رجال الدولة، والذي كان مظهراً من مظاهر ضعفهم ، كما أدى فى نفس الوقت إلى تزايد ضعف الملوك وزيادة نفوذ الكهنة وكبار رجال الدولة^(٢).

٣- استنزاف شطراً كبيراً من الموارد الاقتصادية للبلاد خلال النصف الأول من عصر الدولة القديمة ، نتيجة إسراف ملوك النصف الأول، خاصة خلال فترة حكم الأسرة الرابعة، فى إقامة الأهرام الضخمة والمجموعات الجفائزية والمعابد والمقابر.

١- يعتقد البعض أن هذه القبائل ربما كانت فرعاً من الأشروريين ، ويمكن أن نعثر هذه القبائل، ومحمياً مع بطرية "أرتولد تروين"، "البروليتاريا التاريخية" بالنسبة للساحل المسمى. انظر .

٢- لمزيد من التفصيل : انظر عبد العزيز صالح ، ص ١٠١ و ١٥٤ ، خاصة ص ١٣٢ و ١٣٦ و ١٤٣ و ١٥٠ وكذلك .
Candner, op cit., pp 101-102.

وعمل على تفاقم هذه المشكلة، ما اقسم به ملوك النصف الثاني من عصر هذه الدولة، من إسراف في العطايا والامتيازات والإعفاءات من الضرائب لكبار الكهنة وكبار رجال الدولة^(١) . وكانت هذه السياسة نتيجة ضعف ملوك هذه الفترة ، ولكن لا شك في أن تضائل الموارد نتيجة إسراف الملوك الأوائل، قد ساهم بدوره في ضعف ملوك الفترة المتأخرة.

٤ - كما يرى البعض، أن اعتراف الدولة القديمة بعبادة "رع"، بصفة رسمية وعلى نطاق واسع ، قد ادى إلى انصراف جانب من ولاء الرعية من الملك إلى الإله "رع" ، وذلك على حساب ولائهم القديم شبه المطلق للملك الإله. وتعتقد أن شعور المغلوبين على أمرهم أنهم غرباء في وطنهم وتفاقم ما حاق بهم من ظلم، قد ادى إلى انكار ولائهم على الملك ، خاصة بعد أن ازداد ايمانهم بالإله "أوزوريس" - إذ لم يجد هؤلاء من سبيل للخلاص من محتتهم، إلا فى عبادته. وبهذا وجد المغلوبين على أمرهم وسيلة أكثر حكمة للخلود دون حاجة إلى بناء هرم. وقد سبق أن رأينا كيف أصبح أمل وحلم كل مصرى من العامة فى ذلك العصر، أن يحج إلى "أبيدوس" للتبرك بالإله "أوزوريس" .

ثالثاً - الأحوال الاقتصادية فى عصر الدولة القديمة:

استمرت الزراعة، كما كانت فى العصور السابقة، تمثل الحرفة الأساسية لغالبية السكان، وخاصة فى الوجه القبلى. ولكن خلال هذا العصر زادت أهمية الحرف والصناعات المختلفة، وكذلك التجارة الداخلية والتجارة الخارجية، وخاصة فى منطقة الدلتا. ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله.

(١) الزراعة وتربية الحيوان :

استمرت الزراعة تمثل أهم مصادر الدخل بالنسبة لغالبية السكان . وكانت أهم المنتجات الزراعية هى : القمح والشعير والذرة والعدس وبعض الفواكه مثل العنب والتفاح والرمان، وذلك بالإضافة إلى بعض الخضراوات مثل الخس والحمص والبصل،

١ - يؤكد ما "كانت تتمتع به الأرستقراطية المحلية من رفاهية ونعيم وثناء، مقارنهم فرعون، والتي انتشرت بكثرة فى تلك الفترة فى روبرت الأموات ومير ودير العبرارى وألهم وديرة وأدمر وأسرون . أنظر . Gardiner, op cit p 91-92.

وكان البصل يستخدم كدواء لعلاج بعض الأمراض، كما كان له عيداً سنوياً عرف بعيد "تقريت"، يعتقد البعض أنه أصل عيد شم النسيم. كذلك كانت مصر تنتج بعض الألياف النباتية مثل الكتان والبردى الذى كان يستعمل أساساً فى صناعة الورق.

ويلاحظ أن هذا العصر قد شهد تقدماً فى أدوات الإنتاج الزراعى، كما انتشر استخدام النحاس فى صناعة هذه الأدوات. فضلاً عن هذا فقد تطور المحراث القديم وظهر المحراث ذو السلاحين كما تطورت المطارق والشادوف.

وكانت السنة الزراعية مقسمة إلى ثلاثة فصول:

فصل الزرع، ويبدأ فى أكتوبر وخلاجه تجهز الأرض للزراعة وتلقى البذور.

فصل الحصاد، ويبدأ فى شهر فبراير.

وفصل الفيضان، ويبدأ فى يونيه.

وقد اعتنى المصريون خلال هذا العصر بالرى، وتوزيع مياه النيل عن طريق "إدارة الرى". كما وجدت "إدارة لمسح الأراضى" منذ عهد الأسرة الأولى، وكانت عقود بيع الأراضى وتأجيرها تخضع لنظام التسجيل والشهر.

وكانت الزراعة تلقى عناية وإشرافاً مستمراً من جانب الدولة. فقد ظهرت منذ الأسرة الثانية "إدارة الحقول" ثم ظهر "مدير الحقول" فى عهد الأسرة الثالثة. وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر "مدير كتاب الحقول"، وكان يتبعه عدد كبير من مديرى الضياع سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى، وكانت كل ضيعة تخضع لإدارة "بيت الزراعة". وكانت هذه الإدارة مقسمة بدورها إلى بيوت، مثل بيت المحراث، ويختص بإدارة الأراضى الزراعية، وبيت المراعى ويختص بالمراعى، وبيت حيوانات الإنتاج، وبيت حيوانات التربية وهكذا.

. ويتمثل الاختصاص الرئيسى "إدارة الزراعة" فى الإشراف على استغلال واستثمار أراضى الدولة. وكانت الدولة تمنح موظفيها، عن طريق هذه الإدارة، حق الانتفاع بجزء من أراضى الدولة.

وترتبط بالمصلحة السابقة "مصلحة الري" التي بدأ يتردد ذكرها منذ بداية عهد الأسرة الخامسة. ونرى أن أحد مديري القصر الملكي كان يحمل لقب "رئيس نصريف المأكولات" في "بيت الحياة" وكان يحمل في نفس الوقت لقب "مدير السترع" وشاع لقب "كاتب البحيرة"، وقد تمثل عمل هذه المصلحة في ضبط مياه النيل، وتسجيل منسوب مياهه على مدار السنة.

وتدل وثائق هذا العصر، على أن أهم أعمال حكام الأقاليم كانت الإشراف على شئون الزراعة والري، تلك الشئون التي لاقت اهتماماً كبيراً من الملوك والحكومة المركزية.

ويبدو أن النشاط الزراعي كان المصدر الأساسي للدخل في مصر العليا.

وقد عرفت مصر خلال هذا العصر نوعين من الملكية الزراعية.

١/١ - المزارع الملكية، ومزارع الكهنة والأوقاف الدينية، التي كانت في الأصل منحاً أعطاهها الملك للكهنة وكانت معفاة من الضرائب، ولم يكن يجوز التصرف فيها أصلاً. ثم أصبحت ملكاً خالصاً للكهنة وورثتهم في آخر عهد الدولة القديمة. كما وجدت بعض الأوقاف الخيرية، التي كانت تخصص لخدمة العقيدة في شكل قرابين تقدم للالهة.

٢/١ - كذلك وجدت في هذا العصر الملكية الفردية وملكية الأسرة، وإن كان البعض ينكر أن مصر عرفت خلال هذا العصر الملكية الفردية. والراجح أن نظام الملكية الفردية قد انهار في أواخر عهد الدولة القديمة^(١).

هذا، ويبدو أن تربية الطيور والحيوانات كان لها أهمية خاصة في الدلتا، التي كانت تتمتع بثروة حيوانية هائلة نظراً لوفرة المراعي بها. فضلاً عن هذا، فهناك من الشواهد ما يؤكد أن الرعاة في مصر العليا كانوا يقودون الحيوانات بصفة منتظمة لترعى في منطقة الدلتا^(٢). وقد عرف عن المصريين في هذا العصر اهتمامهم البالغ بتربية الدواجن والطيور والحيوانات المختلفة، كما اشتهروا بحب الحيوانات والرفق

به.

(١) انظر لمزيد من التفصيل، محمود السقا، المرجع السابق، ص ٢٨ وما بعدها.

Gardiner, op. cit, p 103

(٢)

٢- الصناعات الإستخراجية والتحويلية :

ازدهرت فى هذا العصر صناعة استخراج المعادن إلى حد كبير. وكان استخراج المعادن من الصناعات التى تحتكرها الدولة، وذلك لأن الفرد كثيراً ما كان يعجز عن توفير الطاقة البشرية والمالية، التى يتطلبها استخراج المعادن فى المناطق الصحراوية النائية. كما كان الفرد عاجزاً عن توفير الحماية والأمن لبعثات التعدين، التى كثيراً ما كانت تتعرض لهجمات القبائل البدائية، التى كانت تعيش فى هذه المناطق.

وقد عرفت مصر خلال هذا العصر النحاس والذهب والفضة والحديد والقصدير والرصاص والبرونز، وكان النحاس يستخدم فى صناعة الأسلحة، وبعض السلع الاستهلاكية كالأدوات المنزلية، وفى صناعة بعض أدوات الإنتاج المستخدمة فى الزراعة والإنتاج الصناعى. وكان النحاس يستخرج من شبة جزيرة سيناء ومن الصحراء الشرقية. كما استخرج الذهب من هذه المناطق على نطاق واسع، كما شهد على ذلك استخدامه بسخاء خلال هذا العصر فى صناعة الأطباق والأقداح وفى تذهيب الآثار، أما الإستعمال الأساسى للذهب فكان فى صناعة أدوات الزينة. أما البرونز فلم ينتشر استعماله خلال هذا العصر، إذ لم تعرف مصر كيفية الاستفادة من الحديد إلا فى عصر متأخر.

أما الصناعات التحويلية فكان أهمها الصناعات التالية :

صناعة الغزل والنسيج :

وقد اعتمدت على ألياف الكتان. وقد بلغت منتجاتها درجة عظيمة من الجودة، جعلتها تضارع منتجات العصر الحديث. وقد بلغت المنسوجات الكتانية درجة من الشفافية جعلت البعض يطلق عليها "نسيج الهواء".

والراجح أن صناعة الكتان كانت حرفة تزاولها المرأة فى المنزل. ولكن على الرغم من ذلك فقد وجدت بعض مصانع للكتان بعيداً عن المنازل، وكان يعمل فيها الرجال.

صناعة الورق :

انتشرت صناعة الورق من البردى بشكل ملحوظ، وكانت إحدى الصناعات التي افرغت بها مصر خلال عصور طويلة، دون بقية شعوب الأرض. وكانت مصر تصدر منتجاتها للخارج.

صناعة الجلود :

ارتقت هذه الصناعة، كما تقدم فن الدباغة وكان من أهم منتجاتها جلود المقاعد وأغطية الوسائد وأرضية العربات وقرب الماء.

صناعة السفن :

تقدمت إلى درجة كبيرة ، كانت مصر تصنع في هذا العصر السفن البحرية الكبيرة والسفن النهرية الصغيرة. وقد مكن ازدهار هذه الصناعة من التوسع في تجارة مصر الخارجية والداخلية، وخاصة في منطقة الدلتا، حيث وجد عدد كبير من المدن التجارية وازدهرت التجارة البحرية إلى حد كبير^(١).

صناعة البناء والتشييد :

بلغ فن وهندسة البناء في هذا العصر درجة من الكمال لم يعرفها أي عصر سابق أو لاحق، ويكفي دليلاً على ذلك أهرامات الجيزة أو بيوت الشمس، التي ظلت حتى يومنا هذا، "معجزة لكل العصور" ولغزاً يحير علماء الدنيا.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد تقدمت صناعة أدوات الزينة، وبعض الصناعات الغذائية كصناعة البيرة من الشعير والنبذ من الكروم.

كما شهد هذا العصر ارتفاع فن النحت والتصوير، كما يدل على ذلك التراث الحضاري الغني الذي تركه هذا العصر^(٢).

^١ Gardner , op. cit. p. 97

^٢ Ibid , p. 81

وأما لمزيد من "العصر" كتاب Stevenson Smith والذي سبق ذكره وكذلك كتاب ثروت عكاشة "العصر المصري القديم" وقد سبق ذكره.

٣- التجارة الداخلية والخارجية :

أدى تقدم وسائل النقل البرى والبحرى إلى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية، ويبدو أن المقايضة كانت أساس المبادلات التجارية فى بداية الأمر، ثم بدأ المصريون فى استخدام حلقات من الذهب والفضة ذات وزن ثابت، كوسيط للمبادلة. وبهذا ظهرت إلى الوجود أول عملة معدنية عرفتها البشرية، كما وضعت اللبغات الأولى فى بناء الاقتصاد النقدى. وقد ازدهرت التجارة الخارجية هى الأخرى، وخاصة بين الدلتا والعالم المجاور، نتيجة تقدم صناعة السفن وزيادة نفوذ الدولة المصرية خارج البحر المتوسط وبعض المناطق فى أفريقيا.

وكانت التجارة تخضع لنظام دقيق. إذ عرف التجار "مسك الدفاتر" وبعض نظم المحاسبة. ومن الإدارات الرئيسية التى بلغت شأنا عظيما خلال هذا العصر، إدارة الجمارك والتجارة الخارجية. إذ كانت الضرائب تفرض على الواردات، كما وجد مديرا عاما للقوافل التجارية الآتية من الواحات إلى وادى النيل. وتدل الوثائق الخاصة بهذا العصر، على ازدهار الاستيراد والتصدير، كما تعددت المراكز الهامة للتجارة الداخلية والخارجية على حد سواء. وقد اعتاد الملوك تصدير الحبوب للخارج، وكانت التجارة الخارجية تخضع لنظام ضرابى فى منتهى الدقة^(١).

الفصل الرابع

ثورة العصر الوسيط الأول : الفصل الأخير

في مأساة السلطة

(حوالي ٢٢٨٠-٢٠٥٢ قبل الميلاد)

تمهيد :

رأينا فيما سبق كيف بدأ " زمن المتاعب " في تاريخ الدولة القديمة ، خلال فترة حكم الأسرتين الخامسة والسادسة ، عندما بدأ فراعنة مصر ، مأخوذين بذلك الصرح الحضارى الشامخ الذى تركه الآباء والأجداد ، يعتقدون أنهم آلهة وإن الملك ما هو إلا "تجسيدا بشريا" "لرع إله الشمس" ، وكيف أحاط هؤلاء الملوك انفسهم بطلاقة من الكهنة والنبلاء وكبار رجال الدولة ، الذين قاموا بدور الوسيط بين الملك الإله ورعاياه .

ورأينا كيف نجح الكهنة ورجال البلاط فى إبعاد الملك عن الشعب ، وكيف استفحل نفوذهم وزادت امتيازاتهم ، حتى قدر لهم القضاء على الملك نفسه ، بعد أن عاشوا وماتوا يصلون له ويقتربون إليه فى حياته ومماته ، وكلهم أمل فى اكتساب رضائه ومحبته .

ثم كيف انهار الصرح الشامخ للدولة القديمة ومعه النظام الملكى . وكيف ضاعت وحدة مصر ، وظهر على مسرح السلطة جماعة من حكام الأقاليم ، استبد كل منهم بحكم ضيعته ، معتقداً هو الآخر إنه إله ، أو على الأقل من سلالة إلهية مقدسة .

ورأينا كيف تحولت مصر ، فى أواخر عهد الدولة القديمة ، إلى أقلية مهيمنة ، تنعم بكل شئ ، رفاهية وسلطة ، تعيش على مجد الغابرين وتتقاعس عن تحمل مسئوليتها نحو الوطن والمواطن ، وأغلبية تعيش مغلوبة على أمرها ، غريبة فى وطنها فى سجن كبير تطحنها الحاجة والفقر . ثم كيف بدأ الفصل الأخير فى " دراما أو مأساة السلطة " ، عندما اعتزل المغلوبون على أمرهم الأقلية المستبدة ، وانطوا على أنفسهم ، يعيشون على غذاء صنعه روحهم ، تمثل فى عبادة " أوزوريس " ، وهم على يقين من

أن العمل الطيب سوف يرضى " أوزوريس " ، وأن فى رضاء " أوزوريس " ضمان للخلود وتخليصاً للروح من آثامها .

ولكن ما كان لهذا الوضع أن يدوم . فعندما بلغ شعور المغلوب على أمره بالظلم مداه ، بدأ يقيق من غفوته الطويلة ، ليشعل نار ثورة عارمة على ظالميه ، ولكى يقوض دعائم ذلك السجن الكبير .

وهكذا كانت أولى ثورات الإنسان ضد وضع مستبد فاسد ، تحتكر فيه أقلية طاغية رفاهية العيش وتنعم بغرور السلطة .

ويقطع المؤرخون بحدوث ثورة حقيقية ، وبأن هذه الثورة كانت مدمرة ، قام بها العامة ضد النبلاء والأرستقراطية المصرية ، بل وضد الملك . وأن هذه الثورة قلبت كل شئ رأساً على عقب . ولكن هناك خلاف بين المؤرخين حول كيف ومتى بدأت هذه الثورة ومتى انتهت .

الراجح بين جمهور المؤرخين ، أن الثورة قد حدثت فى أواخر أيام الأسرة السادسة ، فى عهد آخر ملوكها الملك " بيبى الثانى " . وأن قيام هذه الثورة يؤرخ نهاية عهد الدولة القديمة حوالى عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد ، وبداية ما يعرف بالعصر " الوسيط الأول " أو " عهد الإقطاع الأول " . وأن هذه الثورة قد استمرت بدرجات متفاوتة حتى آخر أيام الأسرة العاشرة ، عندما انتهى العصر الوسيط الأول ، وبدأ عهد الدولة الوسطى بتأسيس الأسرة الحادية عشر فى طيبة ، حوالى ٢١٣٤ قبل الميلاد ، على يد واحد من أعظم ملوك مصر الفرعونية هو الملك " منتوحتب الأول " ، الذى وضع حداً للفوضى التى أدت إلى إنقسام مصر ، وأعاد إلى مصر وحدتها ، فاستحق فى شرف لقب موحد الأرضين .

ويلاحظ أن تاريخ " الفترة الأولى " يمثل مشكلة تكاد تكون مستحيلة " ، لأن الشطر الأكبر من سجلات ووثائق هذا العصر ، قد ضاعت فى أتون الثورة ، ولم يبق منها إلا عدد لا يكاد يتعدى أصابع اليد الواحدة ^(١) .

وسوف نعتد في تحديد الملامح الأساسية لهذه الثورة على يرديتين تعرف أولاهما بـ "بردية الحكيم أبيور" وتعرف أحياناً بـ "بردية ليدن" Leyden، والثانية هي "بردية لغرتي". أما آثار هذه الثورة واللامح الأساسية للعصر الوسيط الأول، فإن مصادرنا التاريخية أكثر نسبياً. ومن أهم هذه المصادر وصية "الملك الختوى" لابنه و "بردية القروى الفصيح"، وبعض آثار هذا العصر، كالبرديات الأدبية والمراسيم الملكية والقبور التي وجدت في سقارة ومصر الوسطى والصعيد، وخاصة في زاوية الأموات وبني حسن والبرشا وأسيوط ودير الجيزاوى والهجارسة وأخميم والمعلا وأسوان^(١).

(١) أحما، بحري، المرجع السابق، ص ١٥٩ وما بعدها، وعبدالمعز صالح، الشرق الأدنى القديم، ... سبق ذكره، ص ١٥٥ - ١٨١، وصوفى أبوطالب، تاريخ العظم القانوية والاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٩٢-١٩٣. محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٤٧-١٥٨، وكذلك.

Gardiner, A., op.cit., pp. 107-124 and Winlock, H. E., the Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947.

المبحث الأول الخلاص الأساسية للعصر الوسيط الأول

يشمل العصر الوسيط الأول ، طبقاً للرأى الراجح فترة حكم الأسرات الآتية :

(١) الأسرة السابعة :

وكانت عاصمتها منف. ويقول " مانيون السمنودي " ^(١) المؤرخ المصرى القديم، أن سبعين ملكاً من ملوك هذه الأسرة حكموا سبعين يوماً. ويشك جمهوره المؤرخين فى صحة هذه الرواية ^(٢) . ولكن يمكن أن تكون صادقة . وأياً كان الأمر فهي تعكس فى وضوح صارخ، ما اتسم به هذا العهد من فوضى وعدم استقرار منقطع النظير .

(٢) الأسرة الثامنة :

حكمت من " منف" ^(٣) ، والراجح أنها تنتمى إلى البيت الملكى القديم. ويقال أنها حكمت من عام ٢٢٨١ حتى ٢٢٤٢ قبل الميلاد. وخلال عهدها تفككت عرى وحدة البلاد، ووقعت الدلتا فريسة عصابات البدو الذين جاءوا من الشرق، وربما من الغرب، لينشروا بين أهلها الخوف والفرع وفى كل أرجائها الخراب. أما فى مصر الوسطى والصعيد، فكان الحال أفضل نسبياً، إذ استقل كل حاكم بإقليمه وفرض عليه سيطرته، وحاول أن يوسع رقعة سلطانه، الأمر الذى أدى إلى حروب طاحنة بين حكام الأقاليم. وقد أدت هذه الحروب إلى إراقة الكثير من الدماء وانتشار الخراب والدمار فى كل أرجاء البلاد، وتدهور الأحوال الاقتصادية إلى حد حدوث الكثير من المجاعات.

(١) " مانيون " (مانيوس فى إحدى النسخات) ، كان كاهناً مصرياً فى عهد سمرود فى الغربية، اشتهر بمعرفته بتاريخ مصر ولعته. كلفه " بطليموس الثانى " حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد بكتابة تاريخ مصر اعتماداً على مصادره الفرعونية . كالوثائق التى كانت توجد فى المعابد ومكاتب الحكومة. ومن المؤسف أن ما كتبه هذا المؤرخ قد فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية، وكل ما وصل إلينا منه هو مقتطفات من نقلها المؤرخ اليهودى " يوسفوس Josephus " فى كتابه الذى سماه " الرد على أبيون " ، مدافعاً عن اليهود ضد ما كتبه " أبيون " الكتاب الإسكندرى كذلك نقل بعض الكتاب وعاصمه " جوليسوس الأفريقى " (٢١٧ بعد الميلاد) عن " مانيون " قائمة بالملوك وسنوات حكمهم .

(٢) أنظر تفسير آخر لهذه الرواية فى أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٦٣ .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن هذه الأسرة حكمت فى فقط . انظر : أحمد فخرى ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٦٤ حاشية رقم (٢) .

ولكن عهد الأسرة الثامنة لم يطل، إذ ظهر بيت قوى متمثلاً في "بيت اختوى" في اهناسيا المدينة على الشاطئ الغربى للنيل فى مواجهة بنى سويف وعند مدخل الفيوم، ليضع نهاية لحكم الأسرة الثامنة ، ويؤسس الأسرة التاسعة حوالى عام ٢٢٤٢ قبل الميلاد، مؤرخاً بداية "العصر اهناسى" أو "عصر اهناسيين".

(٣) الأسرة التاسعة :

أسسها "اختوى الأول" وحكم من عام ٢٢٤٢ حتى عام ٢١٣٣ قبل الميلاد تقريباً. وبتأسيس هذه الأسرة انتقل الحكم من منف إلى اهناسيا مؤرخاً بداية "عصر اهناسيين". وقد وصف "ماتيتون" الملك اختوى "بأنه كان ظالماً جباراً ، لاقى الشعب على يديه من الظلم والطغيان مالم يعرف مثيلاً له من قبل . وظل "اختوى" فى ظلمه، حتى أصيب بالجنون فى أواخر أيام حياته . ويقال أن تمساحاً فتك بالطاغية المجنون^(١). وقد ظلت أحوال مصر على ما كانت عليه فى أيام الأسرة الثامنة: قبائل من البدو المحاربين تسيطر على الدلتا وتنتشر فيها الرعب والخراب، وبيت مالك ضعيف فى اهناسيا، يتمتع بالسلطة فى إقليم محدود ، يحاول ملوكه توطيد صلاتهم بحكام الأقاليم، الذين استقل كل منهم بحكم إقليمه، وينكر أغلبهم الولاء على البيت المالك، وان ظل بعض هؤلاء يدفع الجزية ويدين بالولاء لملوك اهناسيا. وهكذا ازداد تفكك عرى وحدة البلاد، واستمر نفوذ ملوك اهناسيا فى الضعف، بينما استفحل نفوذ حكام الأقاليم وتدعمت أسس الحكم الاقطاعى فى صعيد مصر. كما تدهورت حضارة البلاد وفنونها، وتدهورت الأحوال الاقتصادية إلى درجة خطيرة، وكثرت الحروب بين الأقاليم. كما استمر الصراع بين أمراء طيبة وأمراء اهناسيا.

(٤) الأسرة العاشرة:

حكمت خلال الفترة من عام ٢١٣٣ إلى عام ٢٠٥٢ قبل الميلاد تقريباً، وكانت اهناسيا هى عاصمتها. وخلال عهد هذه الأسرة بدأت مصر تنهض من كبوتها وترى بواكير عصر جديد. فقد أخذت الأحوال الاقتصادية فى التحسن، وخاصة فى الصعيد

حيث قوى نفوذ وسيطرة ملوك اهناسيا. كما حدث تغير عميق فى فلسفة الحكم فكان الملك يساعد رعاياه اقتصادياً، وخاصة فى أوقات الشدة. كما كان يحمى الضعيف من سطوة القوي، كما علت قيمة الفرد واشتد الوعي الاجتماعى والسياسى بين عامة الشعب، كما سنرى فى وصية " الملك اختوى ". كما بدأت مصر تستعيد سيادتها على الدلتا وتقضى على عصابات البدو التى خربتها ونشرت فيها الخوف والفرع والدمار . كما حاول هذا الملك القضاء على أمراء طيبة الأقوياء، وانتصر عليهم، ولكن أمراء طيبة عادوا من جديد واستردوا ما فقدوا من أرض ونفوذ وامتد سلطانهم إلى الشمال حتى حدود أسيوط .

وفى عهد "الملك مريكا رع " ابن " الملك اختوى " ، تولى حكم طيبة أمير قوى هو " منتوحتب "، الذى قاد الحرب مرة أخرى ضد أمراء اهناسيا. فقضى على أمراء أسيوط واندفع شمالاً حتى استولى على الأشمونيين، فلم يبق لأمراء اهناسيا سوى نفوذ قليل فى مصر الوسطى والدلتا. وفى عهد "اختوى الخامس" ، الذى حدثت فى عصره قصة " القروي الفصيح "، نجح "الملك منتوحتب الأول"، فى القضاء تماماً على ملوك اهناسيا وفرض سيطرته على البلاد، وأعاد إلى مصر وحدتها. وبهذا انتهى العصر الوسيط الأول، وبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الوسطى مع تأسيس الملك العظيم " منتوحتب الأول " الأسرة الحادية عشر ، التى تؤرخ بداية حكمها بداية العصر الذى عرف أيضاً بعصر الرخاء الاقتصادى، وذلك حوالى عام ٢٠٥٢ قبل الميلاد ^(١).

(١) لمزيد من التفصيل عن عصر الفترة الأولى أنظر . أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٦٢ ١٨٢، وكذلك : Gardiner, op cit., pp. 107-123

المبحث الثاني الثورة الاجتماعية

الراجح أن ثورة مصر الاجتماعية الأولى قد حدثت في أواخر عهد الملك الممنون "ببى الثانى" ، آخر ملوك الأسرة السادسة. ولكن لا نعرف كيف بدأت الثورة ومتى اتخذت طابعاً عنيفاً ، وما هى الشرارة التى أوقدت نارها الجامحة. وإن كان لدينا صورة واضحة عما حدث خلالها، وما ترتب عليها من آثار بعيدة المدى، أدت إلى تغيير جذرى فى نظام الحكم وفلسفته، وفى النظام الاجتماعى ، وفى مركز الفرد وحقوقه وما ترتب على هذه الثورة من تدهور فى حضارة مصر وأحوالها الاقتصادية.

لقد كانت هذه الثورة أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ الإنسانى، تسجل انتفاضة المغلوبين على أمرهم ضد أقلية طاغية مستبدة. ويتضح من دراسة "بردية الحكيم ايبور" و "نبوة الكاهن نفرتى" ، ما يأتى:

١- أن الثورة كانت قاسية إلى أبعد الحدود ، وأنها حققت بكثير من المآسى وتركت على وجه مصر ملامح حزينة لم توارقها أبداً، وفى روحها نزعة للحزن والتشاؤم غلفتها عبر القرون^(١).

٢- قام بالثورة المغلوبين على أمرهم من عامة الشعب، ضد الطبقة الأرستقراطية، ولم يسلم منها حتى شخص الملك. ويبدو أنها كانت رد فعل عنيفاً للظلم الاجتماعى الذى عرفته مصر فى أواخر الدولة القديمة، عندما تحول المجتمع إلى سادة وعبيد.

٣- اقترنت الثورة منذ البداية بانتهيار النظام الملكى وسلطة الحكومة المركزية، وضياع الأمن وسيادة القانون. فدمرت مكاتب الحكومة ونهبت الأموال العامة ودمرت وثائق وسجلات الدولة. كما نهبت بيوت وقبور الأسرة المالكة والطبقة الأرستقراطية، وأصبح الحل والعقد فى أيدي العامة والغوغاء .

١- عمر الحكيم "ابور" من ذلك فى قوله بالتحار بعض الناس عرفاً وسخط الأطفال على ولادتهم ورغبة الجميع فى مناء العالم حتى تسريح الأرض من الضحيج . عبدالمعز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ١٦٦-١٦٧.

٤- شهدت الفترة نهاية وحدة مصر السياسية، ووقعت الدلتا فريسة غزوات خارجية، قامت بها قبائل من البدو، جاءت من الشرق لتنتشر في الدلتا الفزع والرعب والخراب. أما الصعيد فانقسم إلى عدة أقاليم، استقل بالحكم فيها حكام حاول كل منهم الاستقلال بإقليمه وتدعيم نفوذه فيه، كما حاول توسيع رقعته. وقد أدى هذا إلى كثرة الحروب بين حكام الأقاليم، وخاصة بين أمراء طيبة وأمراء اهناسيا. ولم يعد للأسرة المالكة، سواء في عصر المنفيين أو عصر الأهناسيين، سوى سلطة رمزية في أغلب الأحوال. بينما استفحل نفوذ حكام الأقاليم ووصل النظام الإقطاعي في الصعيد قمته.

٥- انتهت حضارات مصر حتى وصلت الحضيض، وتدهورت فنونها وحرفها، ودمرت الكثير من وثائق وأثار عصورها الذهبية، وانهار الصرح الحضاري الشامخ، الذي بنته مصر في عهد الدولة القديمة.

٦- تدهورت أحوال مصر الاقتصادية بصورة لم يسبق لها مثيل، وقل إنتاجها الزراعي والحرفي، وانكمشت التجارة مع انتشار الفوضى والسلب والنهب وانهيار الأمن وسيادة القانون. وأدى ذلك إلى انتشار البطالة وتدهور مستوى معيشة السكان. وكثيراً ما تعرضت مصر لسنوات قحط ومجاعة،^(١) وخاصة في السنوات التي كان يقصر فيها فيضان النيل. كما رفض الناس دفع الضرائب، بل ونهبوا دواوين الحكومة وقصور الطبقة الحاكمة ومقابر الملوك.

٧ كانت فترة حكم الأسرتين السابعة والثامنة أسوأ فترات العصر الوسيط. أما عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة، فنعمت مصر خلاله بقدر من الأمن والاستقرار والرخاء. وكانت الدلتا أشد مناطق مصر معاناة خلال هذا العصر، نتيجة ما تعرضت له من غزوات خارجية. أما الصعيد، وخاصة المنطقة بين منف وطيبة، فكانت أقل أقاليم مصر معاناة^(٢).

وتتضمن الصفحات التالية مقتطفات من برديتي "الحكيم ايبوور" و"الكاهن نفرتي"، واللذان يمثلان أهم الوثائق التاريخية عن ثورة العصر الوسيط الأول.

Vandier, La Famille Dans l'Égypte Ancienne, Cairo, 1936, pp 3-16

-١

Gardiner, op. cit., p. 107-110 and 114

-٢

"بردية الحكيم ايبوور" :

توجد هذه البردية في لندن بهولندا، ولهذا تعرف احيانا ببردية لندن كما تعرف أيضاً بتبوءة حكيم مصرى قديم. وقد نشرت وترجمت عدة مرات. وقد درسها ونشرها "جاردنر"، أحد المبرزين في المصريات، عام ١٩٠٩ تحت اسم :

The admonitions of an Egyptian Sage.

وترجع البردية إلى عصور الأسرة التاسعة عشر أو العشرين، ولكنها منقولة عن أصل كتب في عهد الملك "ببى الثانى" آخر ملوك الأسرة السادسة. وصاحب البردية هو "الحكيم ايبوور" أحد حكماء الدولة القديمة. وقد استطاع هذا الحكيم، أن يقتحم عزلة الملك "ببى الثانى"، ليحدثه في حزن وأسى، عن ثورة طاحنه، سحقته كل عود أخضر في البلاد، ولم ينجو من نارها أحد. وبعد ذلك يطلب الحكيم من الملك إنقاذ البلاد مما تردت فيه. وفي آخرها يبشر حكيم الدولة القديمة بمقدم عصر "ذهبي جديد". وفيما يلي نورد بعض مقتطفات من هذه البردية (١).

يتحدث "ايبوور" (٢) عن تقاعس الحاكم عن مسئولياته نحو الرعية، حتى أصبح لا بدرى شيئاً عما تردت فيه الدولة من بلاء، فيقول للملك المسن :

" أن الذين حوله كانوا يغذونه بالكاذب وأن عظماء البلاد لا تبلغهم أمورهم..... والكل آل إلى الدمار. أن جهل السنان لذلك أمر يريح النفس وقد فعلت ما يرضى أفندتهم"

وعن كيف أنقلب رجال البلاط على الأسرة المالكة، يقول الحكيم مخاطباً الملك:

"أنظر أن النبيلات أصبحن يعضون جوعاً، ولكن رجال الملك راضون عما

فعلوه... *

(١) اعتماداً على مقتطفات من هذه البردية وردت في المراجع الآتية :

أحمد حسن، المرجع السابق، ص ١٥٩، السقا، المرجع السابق، ص ١٠٨، Gardiner التي سبقت الإشارة إليه ، ص ١٠٨ ، ١١٠ ، وسيد توفيق، المرجع السابق، ص ١٢٨-١٥١ ، وعبد العزيز صاغ ، -حصارة مصر القديمة وأثارها، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٣٩٤-٣٩٩.

(٢) أو إيوور أو أبو العجوز، وكان حكيماً من دعة الإصلاح ويدرك معاند الحكماء في عصره، وكان يتنصى أن يقوم الملوك بالإصلاح دون أن يمرض عنهم الإصلاح حيرةً . أنظر عبد العزيز صاغ ، المرجع السابق ، ص ٣٩١ ، وبرستيد ، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة ركنى سوس، دار الكرست، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٨٣-٢٨٤، خاصة ص ٢٨٩-٢٩٣.

ويتحدث عما اعتري الحكومة المركزية من انهيار فيقول :

" انظر الآن لقد وصل الأمر إلى (أسوء) الحدود، وحرمت البلاد من الملكية على يد فئة لا تعرف كيف تدير الأمور" "انظر، انه لم يعد هناك وجود للدواوين، وصار الناس أشبه بقطيع لا راعى له".

ويصف "ايبوور" الثورة، فيقول للملك :

"انظر، لقد ارتفعت السنة الذهبية، وامتدت نارها، وستكون حرباً على أعداء البلاد. قال حراس الأسوار فلننطلق ونلتهب، وأبى الحملون ان يحملوا أحمالهم. تسليح صيادي الطيور بأسلحتهم... وحدث شئ قدر في عهد "حورس... هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها ... وفي الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت دفاترهم ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة، ان مجموعات القوانين قد طرحت على الأرض، وصار الناس يفلونها بأقدامهم في الساحات العامة. والفقراء يعيثون بها على قارعة الطريق، وكيف امتلأت البلاد بالعصابات، حتى ليذهب الرجل إلى الحرث حاملاً درعاً وكيف أصبحت الطرق غير محروسة وبخنتي اللصوص بين الأشجار حتى إذا أتى المسافر ليلاً انقضوا عليه وسرقوا ما معه ويضرب بالعصاه حتى تخمد أنفاسه ثم يذبح ظمأ... أن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً ليتجو بنفسه ان مخازن الملك أصبحت حقاً مباحاً للجميع"

ثم يتكلم "ايبوور" عن كيف انتشرت الثورة في كل أرجاء البلاد، وكيف اشتركت فيها جميع طبقات الشعب فيقول مخاطباً الملك :

"الكشفت أسرار مملكة الصعيد والدلتا... وجرى بعض أهل الأقاليم مجرى أهل العاصمة فهاجموا المسيطرين عليها ... وكيف شارك في الثورة حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائع الحنوى وصانع الجعة".

وكتب يقول لقد استمرت الثورة حتى جعلت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار . وتعكس المقتطفات التالية ما آلت إليه الدولة من وهن، وما اعتري حضارتها وأحوالها الاقتصادية من تدهور :

"إن الدولة فى طريقها إلى أن تصبب الماء (لغيرها) ومن أضاع الماء (أى مكافيات البلاد) يكون قد شل الذارع الفتية وقبدها فى الأغلال".

وعن كيف هجر الناس الحرف والصناعات وعم الفقر والخراب يقول :

"ولى الحق .. لقد نفذت الأغلال فى كل مكان وتجرد القوم من الملابس والزيوت والخطور، وصار كل إنسان يقول لم يبق عندي شئ ... "

وكيف أن أسوان وجرجا لم تعودا تؤديان الضرائب نتيجة شيوع الفتن فعزت الغلال ومنتجات المصانع... وعن كيف قلت سفن الصيد وتخربت المدن وأصبح الصعيد خراباً ... وكيف أدى انكماش النشاط الاقتصادى إلى انتشار البطالة .. وأصبح الصناع جميعاً عاطلين، وفسد أعداء البلاد فنونها ...، وأصبح بناء الأهرام فلاحين... وكيف أدى كل هذا إلى أن أصبحت العاصمة فى خوف من العوز، وأصبح الناس يأكلون الحشائش، ويبتلعونه بالماء وقد يأخذون الطعام من أفواه الخنازير...."

ثم يتابع "اييوير" قصته عن الخراب الذى حل بمصر فيقول :

"فقد اتبث الوباء فى كل ارض، والدم صار فى كل مكان، وأصبحت تلافف الموميات تتكلم دون أن يقترب منها إنسان ...".

ويصف "اييوير" التغيير العميق فى أحوال مصر الاجتماعية وكيف انقلب الوضع الاجتماعى الذى عرفته الدولة القديمة، فانهارت الملكية ومعها الطبقة الأرستقراطية، وأصبح المغلوب على امره فى القمة بعد أن كان فى القاع.

"إن مخازن الملك أصبحت حقاً مستباحة لكل إنسان وفانت كل مدينة دعونا نقصى العتاه بيتنا".

وكيف صب العامة غضبهم على الأغنياء فصاروا ينفقون بأطفالهم إلى الجدران. وترك الأثرياء أطفالهم الذين تمنوا ولادتهم، والقوهم فى الطريق عساهم يجدوا من يمد يده إليهم وفى هذا يقول :

"انظر أن السيدات النبيلات يهربن ويلقين بأطفالهم خشية الموت، أن أولاد رجال البلاد أصبحوا فى خرق باليه وأولاد الحكام يلقون فى الشوارع...

انظر أن السيدات القبيلات أصبحن يجمعن بقايا الحصاد... إن من لم يملك حفنة من القمح أصبح يملك مخازن، والذي لم يكن يملك ثوراً أصبح يملك الآن قطعاً ... لقد أصبحت القبيلات يعملن بأيديهن ويعمل النبلاء في حواريات الحرف، وأصبح من كان يتم على حصير مائكا لسرير.."

وكان لكل هذه التطورات آثار بعيدة المدى على الوضع الاجتماعي : أصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا بسروراء أصبحت كل بقعة تقول فلنقصي أصحاب الجاه من بيئنا .. وكيف أصبح الحكام ضياعاً وفي بؤس شديد ... وكيف ... حرمت البلاد من الملكية. " أن من كان يرفل في الحقل أصبح يرتدى السعال، ومن لم يفسح شيئاً لنفسه أصبح الآن مائكا لأغلى ملابس الكتان .."

وكيف النهار التكاثر الاجتماعي إلى حد :

"إن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً ليتجو بنفسه ..."
"انظر الآن، لقد حدث ما لم يحدث منذ وقت طويل، لقد سرقت عظمة الناس بملكك واخذوه ". "انظر الآن، أن الذي دفن كما يدفن الصقر "حورس"، أصبح ملقى فوق نعلش وأصبح الهرم خالياً مما كان فيه".

وعن كيف انهارت الدولة ، حتى أصبحت خيراتها نهباً مشاعاً للمرتزقة والأجانب ، كيف تمرد الجنود المرتزقة على الدولة، وكثير تعرض البلاد للإعتداءات الخارجية، يقول الحكيم ايبور:

" والأجانب الذين كانوا يخشونها، والذين عرف الشعب (نفاهتهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتي شيئاً، فالرمال (المحيطة بها) هي كل حمايتها، " إن الجنود الذين جندناهم من أجل صالحتنا أصبحوا ضمن الأسويين، لا بعداً للخراب الذي حدث (في مصر). فقد جعل القبطيين الأسويين يعرفون أحوال البلاد " " تخربت أقاليم البلاد، وتوافدت قبائل غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أي مكان".....

" وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان ... ، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغراباً وأهملوا جانباً . " (١)

أما عن تجارة مصر الخارجية بجيرانها، فيقول " الحكيم ابيوور " :

" ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل، فما الذي سوف تفعله إذن بخصوص أخشاب الأرز (التي اعتدنا أن نصنع منها) ثوابيتنا، والزيوت التي يحنط الكبراء بها، (وترد من) هناك، ومما يجاوز كفتي. ما عاد يأتي من ذلك شئ حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئاً ذا بال . " (٢)

وتعكس العبارات الآتية نزعة تشاؤم ويأس، تظهر لأول مرة في الأدب الفرعوني لكى تصوير سمة من سماته الأساسية، حتى فى ظل ظروف لم تكن تبرر اليأس أو التشاؤم :

" حقاً لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار، ليتها تكون النهاية للجميع، ليتها لا يكون حملاً ولا ميلاداً، وتخلو الأرض من الضوضاء والضجيج والزعزع ."

بردية " نفرقي " :

توجد هذه البردية فى متحف مدينة 'بطرسبرج' (٣). وقد نشرت لأول مرة عام ١٩١٣ ثم ترجمت إلى عدة لغات. والراجح أنها كتبت فى عهد الأسرة الثانية عشر، كدعاية للملك "أمنمحات الأول" مؤسس هذه الأسرة التى حكمت فيما بين عامى ١٩٩١ و ١٧٧٨ قبل الميلاد. وتنسب أحداثها إلى عهد الملك "سنفرو" أحد ملوك الأسرة الرابعة، الذى طلب من رئيس الكهنة فى معبد "الآلهة باست" ويسمى "تفرئى" أن يحدثه عن حدث من أحداث المستقبل، فقص عليه ما سوف تتردى فيه البلاد من فوضى، وعما يلم بها من خراب ودمار، حتى يأتى ملك اسمه "أمينى" (اختصار أمنمحات) ليخلص مصر من هذه المحنة. وإن "أمينى" سيأتى من الجنوب ويولد فى الصعيد من أم نوبية.

(١) و(٢) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٣٩٢.

(٣) سميت هذه المدينة "ليبيجراد" خلال فترة الحكم الشيوعى، ثم استعادت اسمها القديم أخيراً.

يقول الكاهن "تفرتى" يصف ما تردت فيه البلاد من فوضى وحزن ويأس :

"سأريك البلاد وقد أصبحت رأساً على عقب وحدث فيها ما لم يحدث من قبل.
سيمسك الناس بأسلحة القتال، وتعيش البلاد فى فزع سيصنع الناس سبهما
من القحاس. وسيسعى الناس للحصول على الخبز بإراقة الدماء. يضحك
الناس ضحكات الألم، ولن يكون هناك من يبكى على ميت أو يقضى الليل
صائماً حزناً على من توافيه منيته، ولن يهتم رجلاً إلا بنفسه . لن يعنى أحد
بترجيل شعره، ويجلس الإنسان لا يحرك ساكناً، بلما يرى الناس يقتلون
بعضهم البعض. سأريك (حالة البلاد) وقد أصبح الابن ضد أبيه وصار الأخ
عدواً (لأخيه) وصار الرجل يقتل أباه. لقد أنهى كل شئ جميل وصار الناس
يفعلون ما لم يفعلوه من قبل. أنهم يأخذون أسلاك الرجل ويعطونها
للغريب. سأريك المالك وقد أصبح فى عوز وحاجة، والغريب وقد اشرى
وشيع". "وأصبح للكلام فى قلوب الناس وقع كوقع النار، ولم يعد أحد يصبر
على سماع النصيحة."

ثم يصف الكاهن "تفرتى" ما طرأ من تغير فى الأحوال الزراعية،

وانكماش الإنتاج الزراعى وتغير الأوضاع الاجتماعية، فيقول :

"لقد قلت مساحة الاراضى، ولكن عدد ملاكها تضاعف ، ومن كان يمتلك
الكثير أصبح لا يملك شيئاً، ما اقل كمية القمح سأريك البلاد وقد أصبحت
شذراً بذراً، وصار من كان لا حول له صاحب سلطة ويملك السلاح ...
سأريك البلاد وقد أصبح فى القمة من كان فى الدرك الأسفل، وسيعيش الناس
فى القبور، وسيتمكن الفقير من الأثرياء، والمتسولون هم الذين سيأكلون
خبز القرابين، بينما ينتهج للخدم بما حدث".

وأخيراً يصل كاتب البردية إلى هدفه فيقول على لسان الكاهن "تفرتى" :

"وعندئذ سيأتى ملك من أهل الجنوب، اسمه "أمينى" له المجد، ابن امرأة من
أرض النوبة يولد فى الوجه القبلى، سيلبس التاج الأبيض، ويلبس التاج
الأحمر، ويوحد القطرين بما يشتهيته".

آثار الثورة الاجتماعية :

رأينا فيما سبق كيف فتكت الثورة بمصر، وما ترددت فيه البلاد من فوضى
وخراب، وكيف انتهك الأكرم والأحزان قواها. ولكنها خرجت من محنتها وقد تعلمت
أشياء جديدة عن قيمة الفرد، وفلسفة الحكم، ومسئولية الراعى عن رعيته، وأسس
الحكم الصالح، وعن مسئولية الكل أمام الخالق يوم الحساب.
كانت المحنة قاسية، كان ثمن المعرفة دماء ودموع والم. ولكن كان لابد لها
أن تحياها حتى يعرف الإنسان ويعى حقه فى الحرية وحقه فى الحياة.
وسوف نعتمد، فى محاولتنا تتبع آثار هذه الثورة على وثيقتين من أخطر
وثائق التاريخ الفرعونى هما وثيقة "الملك اختوى لابنه" الملك "مريكارع"، وقصة
القروى الفصيح".

وصية الملك "اختوى" لابنه (مريكارع) :

توجد البردية التى تضمنت هذه الوصية فى متحف "مدينة بطرسبرج". وقد
نشرت لأول مرة عام ١٩١٣، ثم ترجمت لعدة لغات. وترجع هذه البردية إلى عهد
الأسرة الثامنة عشر، وتعتبر من أهم الوثائق فى دراسة بعض جوانب الحياة فى مصر
فى آخر "عصر اللاهتاسيين".

وتتضمن البردية النصائح والتعاليم، التى وصل إليها "اختوى" خلال تجربة
الحياة. وكان يهدف من ورائها أن يجنب ابنه "مريكارع" ما وقع فيه هو من أخطاء.
كما تتضمن البردية معلومات هامة عن التغيرات العميقة، التى طرأت على فلسفة
الحكم، وأسس الحكم الصالح، والعقائد والقيم الدينية والاجتماعية، وأخلاقيات المجتمع
ومنزلة الفرد، فى أواخر "العصر الأهناسى".

وفيما يلى مقتطفات من وصية "اختوى لابنه" :

يا بنى تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك فى الأرض .. هدد من دوع البياكى
ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم لسانا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله،
ولا تكن فظاً يل كن رحيم القلب لا تقتل فإن ذلك لن يكون ذا فائدة لك،
بل عاقب بالضرب والحبس فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم ألا من يشور
عليك وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعظم خافية للقلب والإله هو الذى يعاقب
أخطاه بيديه. لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزياءه، رجل كنت تتلو معه
الكتابات*^(١).

"لا تميز بين ابن شخص (ذى حيلته) على شخص فقير، بل قرب إليك أى
الإنسان بسبب عمل يديه. أقم الحدود وشيد الحصون لأن الجيوش تنفج
مبيداتها.. انظر أيها الملك، يا من أريد له دوام السرور ، أنه لا يمكنك أن
تتفاحس وتنام مطمئناً إلى قوتك ، وتفل ما يرقب فيه قلبك اعتماداً على ما
فعله أنا قبلك، فتظن أنه لا يوجد لك أعداء داخل حدودك . ما أعظم الشخص
العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء".

ويستمر : " أختوى " فى تعاليمه فيحذر أبقيه من الاعتماد على الضعفاء ،
ويذكره بان الثورة قامت بسبب تمييز طبقة على أخرى ، كما يحذره من أن يعاقب
الناس دون خطأ جنوه .

ويتابع " اختوى " وصيته فيتكلم عن وجود محكمة بعد الموت ، يقف امامها
الإنسان صاغراً، لا ينطعه أمام قضائها الا العمل الصالح ، لأن ما فعله فى دنياه يكدم
بجواره .

ثم يأمره بطاعة الله والخوف منسبه فهو يعلم ما يخفى ، وان لا ينسى
آخرته، وان يعمل لليوم الآخر ، وان يذكر نعم الله عليه ، الله الذى خلق النفاس الحياة
فى خياشيمهم (أى الناس) .. انه يشرق فى السماء ليلى رغبتهم، انه خلق لهم
النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليفتاتوا منها .. " .

ثم يذكره بأن الله يقبل اخلاق الرجل المستقيم الضمير ، أكثر من قبوله للنور الذى يقدمه الغنى .

ويفسر اختوى لابنه فلسفة الجزاء الألهى فيقول :

"أنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) ، كما

يضرب الأب ابنه اكراماً لآخيه ، لأن الله يعرف كل الناس ."

ويتضح من دراسة نصوص البردية السابقة، حدوث تغيرات عميقة فى الفكر السياسى والاجتماعى ، وفى المعتقدات والقيم الدينية والاخلاقية فى مصر فى اواخر العصر الاهناسى، كما يتضح من الملاحظات الآتية :

١- يبدو الملك بشراً كسائر البشر، يمكن ان يخطئ ويصيب ، كما يمكن ان يملأ قلبه الندم على ما وقع فيه من خطأ . كما تعكس لهجة الملك قدراً كبيراً من التواضع والخوف من الله والرغبة فى إرضائه. ثم يعد إليها فوق البشر، يصلى الكل له ويتقربون إليه فى حياته ومماته ، ويسعون إلى كسب محبته ورضائه .

٢- تعكس الوثيقة تغيراً واضحاً فى فلسفة الحكم وفى معايير تقدير عظمة الرجال. فهي تجعل ما يتسم به الملك من فضائل اساس لما يتمتع به الملك من استقرار. وتدعو إلى العدل، وإقامة الحق بين الناس، كأساس للحكم الصالح. وترى أن الملك العظيم هو الذى يعتمد على عظماء الرجال لا ضعافهم ، وهو الذى يساوى بين الناس . ويفاضل بينهم على اساس ما يتمتع به كل منهم من كفاءه . وباختصار : إن الوثيقة تضع منهاجاً واضحاً لاسس الحكم الصالح .

٣- تعتبر هذه الوثيقة من أوائل الوثائق فى تاريخ مصر الفرعونية التى تتكلم عن محاكمة او حساب بعد الموت ، حيث يقف جميع البشر سواء أمام الله ، حيث لا ينفع الفرد فى اليوم الآخر إلا ما قدمت يداه من خير . كما تتضمن الوثيقة تفسيراً لحكمة الجزاء الألهى بأنه لصالح الفرد والمجتمع^(١).

١ - يقول أحد ملوك أماسيا لولده : " أصلح مكانك فى العالم الآخر بالاستقامة وأداء العداة فإن ثوب الأرباب ترتاح إليهما. " ثم يواصل حديثه فيقول : " لا تنق فى امتداد السرى، فإن (قصة العالم الآخر) برون العمر كأنه ساعة . وأذكر ان الإنسان يموت ثابة بعد زمانه وترجع أعماله على هيئة الكرم بحايته . وإن الحياة هناك معناها الخلود. وأن النعى هو من يستحق بها ، أنظر عبدالعزير صانع ، المرجع السابق ، ص ١٦٧-١٦٨

٤- تتضمن الوثيقة أيضاً معلومات هامة عن الحروب والمنازعات التي شهدتها هذا العصر. وعن الاستراتيجية العسكرية. إذ يذكر " اختوى " ابنه، بأنه إذا ضعف مركزه في الصعيد ضاع عليه شمال مصر. كما تدعو إلى زيادة السكان في مناطق الحدود حتى يمكن الدفاع عنها، وعن أهمية منطقة البحيرات المرة في الدفاع عن مصر، وعن كيفية محاربة قبائل البدو الآسيوية التي نشرت الرعب والفساد في شمال مصر.

٥- تعكس الوثيقة وعياً كافياً بخطورة تمييز طبقة من طبقات المجتمع على أخرى ، وكيف كان هذا الظلم الاجتماعي سبباً في الثورة التي خربت البلاد . وعلى العموم، يمكن القول ان مصر تعلمت الكثير من محنتها ، وان الملوك حفظوا تماماً درس الثورة فلم تعد اللبنة اشبه بالبارحة : وما كان لها أن تكون . ولكن ذلك كان إلى حين !!

قصة القروي الفصيح " خو إن أنوب " :

نشرت كاملة عام ١٩١٣ ثم ترجمت إلى عدة لغات ^(١) . وقد كتبت هذه البردية ووقعت أحداثها في عهد الملك تب كاو رع "، آخر ملوك الأسرة العاشرة في هناسيا. وكانت من أحب قطع الأدب وأكثرها رواجاً في عهد الدولة الوسطى ، لأنها كانت تعبيراً بليغاً عن آمال الشعوب في الحياة في ظل عدالة خالدة .

وهذه البردية عبارة عن خطاب ، كتب في بلاغة نادرة ، موجه رأساً إلى كبير رجال البلاط في عصور الملك " تب كاو رع "، وتتكون من مقدمة تحكي قصة من قصص الظلم الذي حاق بإنسان بسيط دون ما ذنب جناه، ويتبع القصة تسع شكاوى تنادي في جراءة وعن وعي وإدراك ، برد الظلم ونصرة الحق.

وتعتبر هذه البردية من الوثائق الخالدة في تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي للإنسانية جمعاء، لأنها تقنن ، في بلاغة رائعة ، آمال الشعوب في العدل والحكم الصالح والعدل الاجتماعي . كما توضح في دقة السند الشرعي الذي يربط بين

الحاكم

(١) نشرت بالعربية أكثر من مرة . انظر مثلاً : على منصور ، المرجع السابق ذكره

والمحكوم . بل يرى البعض أنها أول وثيقة فى تاريخ الفكر الانسانى ، تدعوا إلى الديمقراطية وحقوق الانسان، وتربط فى ذكاء بالغ بين المسئولية والسلطة كأساس للحكم ، وان الحاكم ما هو إلا راع مسئول عن رعيته (١) .

فضلاً عن هذا ، فإن هذه الوثيقة تصور المناخ الذى ساد مصر فى ظل العصر الاقطاعى فى اواخر " عهد الاهناسيين " ، وتعكس تقدماً منقطع النظير فى الوعى السياسى والاجتماعى بين عامة الشعب ، كما تعكس حنين مصر إلى عدالة خالدة . وتؤكد هذه البردية مرة أخرى، أن مصر قد تعلمت الكثير من تجربة المحنة والألم التى مرت بها خلال ثورة العصر الوسيط الأول ، ويكفى لبيان ذلك أن تقرأ الفقرة التالية :

يقول القروى الفصيح مخاطباً الملك :

"لقد وليت لتقضى فيما بين الناس من خصام وتعاقب المجرم، كن رحيمًا محسنًا، ونقب عن الحقيقة ، ولا تكن ظالمًا حتى لا تدور عليك الدوائر يومًا، ولا تسلب فقيرًا ماله ولا تنهب ضعيفًا تعرفه . ان مال الفقير حياته ومن اخذه فقد خنقه".

وهذه كلمة موجزة فى القصة :

حدث ذات يوم ان قرويا من وادى النطرون يدعى "خو ان أنوب" ، اراد الذهاب إلى اهناسيا (٢)، ليبيع بعض الحاصلات ، ويشترى بثمنها غلالاً لاسرته. فلما صار على مقربة من اهناسيا ، رآه من بعيد شخص يسمى "تحوتى نخت" ، كان من اتباع "رئس بن مرو" الذى كان رئيس البلاط فى قصر الملك "نپ كاوو رع" أحد ملوك الأسرة العاشرة . وعزم "تحوتى نخت" على اغتصاب ما مع القروى مستغلاً فى ذلك منصبه فى البلاط الملكى، ودبر لذلك حيلة .

(١) عمود السقا ، فلسفة وتاريخ العلم الاجتماعية والقانونية ، سى ذكره ، ص ١٧٢ - ١٩٧٣ . تاريخ القانون المصرى ،

نفس الماشر ، القاهرة ، برسنيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ٣١٥ .

(٢) كانت عاصمة مصر فى ذلك العصر

أمر " تحوتى نخت " أحد خدمه ان يحضر من بيته ، وكان قريباً ، قطعه من نسيج ووضعها فوق عرض الطريق . فلما قدم " خو ان أنوب " حذره " تحوتى نخت " من ان تدوس حميره على النسيج . فلما ساق القروى حميره على حافة الطريق من ناحية حقل شعير ، كان يملكه " تحوتى نخت " . نهره " تحوتى نخت " لأنه جعل من حقله طريقاً لحميره . فأجاب " خو ان أنوب " ، انه لم يقصد الاضرار به . فالطريق مغطى بنسيجه ، وليس امامه من سبيل للمرور سوى حقل الشعير . واثناء حوارهما أكل أحد الحمير شيئاً من الحقل . فأتخذ " تحوتى نخت " من ذلك ذريعته ليستولى على الحمار وما يحمل ، ثمناً لما اكله من شعير . فصرخ القروى أمن العدل أن تأخذ حمارى مقابل قبضه من شعير ، وصاح قائلاً انه يعرف صاحب هذه الضيعة " رنسى بن مرو " . انه يقف فى وجه اللصوص فى ارجاء البلاد ، فهل اسرق فى ضيعته . فنهره " تحوتى نخت " واوسعه ضرباً حتى بكى من الألم ، ثم أخذ حميره . ظل القروى بمنتجديه عشرة أيام أن يعيد إليه حماره ، ولكن دون جدوى . فلما ياس ذهب إلى رئيس البلاط يشكو إليه .

ورأى " خو ان أنوب " رئيس البلاط وهو بهم بالخروج من بيته ، فقال له : "هل لى ان ارفع إليك امراً ؟ ارجوك ان ترسل لى تابعك حتى ابلاغه ما اريد " فإرسل له "رنسى" تابعه ، فشرح له القروى مظلومته . وعندئذ رفع "رنسى" قضية ضد " تحوتى نخت " أمام القضاء الذين كانوا معه .

قال القضاء أن هذا القروى لابد أن يكون احد فلاحى " تحوتى نخت " الذى ترك العمل عنده ليعمل عنده غيره ، وان ما حدث هو ما يستحقه كل من يفعل فعلته وأن على " رنسى " الا يعاقب " تحوتى نخت " ، ويكفى أن يأمره بأن يعوض القروى عما فقده من ملح ونظرون . ولكن " رنسى " لزم الصمت فلم يرد على القضاء ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو ، ويطلب منه ان يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته . ويقول له :

" انك ابواليتيم، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له".

فذهب "رنسى" إلى الملك "نب كاو رع" ليحكى له قصة القروى الفصيح.
فلنصحه الملك ان يجعل ذلك القروى يطيل اقامته ليستمر فى الشكوى، وامر "رنسى"
ان يسجل كل ما يقوله القروى. وفى نفس الوقت أمر بأن يعنى بأمر القروى واسرته
ويكفل لهم ما يحتاجونه من قوت، على الا يعرف القروى شيئاً من ذلك. وجاء القروى
مرة تلو الأخرى، وفى كل مرة يعبر عن شكواه فى أسلوب بليغ ويقدر أكبر من الجراة
والشجاعة، حتى بلغت شكواه تسعا ، تعتبر من روائع الادب الفرعونى . وفى آخر
شكواه ينس القروى وصمم على قتل نفسه . وأفحص شكواه فى جراحة شديدة يقوله :
"انظر الى اشكو إليك ولكنك لم تسمع فهل تريد منى ان اذهب
واشكوك إلى "الوبيس" اله الموتى".

وترك القروى "رنسى" ليذهب ، فأرسل "رنسى" من جاء به . وكان القروى
يخشى ان يحل به عقاب من "رنسى" . فلما رآه ابتدره قائلاً :
" الى تواقى إلى الموت كما يتوقى الظمان عندما يقترب من الماء، وكما
يتوقى فم الرضيع إلى لبن (امه) " .
"فقال له "رنسى" :

" لا تخف ايها القروى . انظر : انك ستقيم معى " .

"فرد القروى فى يأس" :

" لن اكل خبزك أو اشرب من جعتك ما حبيت " .

"فرد عليه رئيس البلاط قائلاً" :

" تعال من هنا حتى تسمع ما قلته من شكواى " .

ثم أمر "رنسى" ان تقرأ شكواى القروى من بردية سطررت عليها. ثم
أرسل "رنسى" البردية إلى الملك. وطلب الملك من "رنسى" ان يحكم بنفسه فى قضية
القروى .

فأرسل لأحضار "تحتوى نخت"، وعوض القروى عن كل ما فقدته ، كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق، بأن أعطى القروى كل ما كان يمتلكه "تحتوى نخت". وهكذا انتصر العدل، وأوفى الحاكم مسئوليته نحو رعاياه، فحمى المظلوم من بطش الظالم، حتى لو كان هذا الظالم أحد اتباع رئيس البلاط لدى قصر الملك نفسه . وهكذا أكمل التاريخ دورة من دوراته ، واشرق على مصر فجر عصر جديد، نعمت فيه مصر بالرخاء وعدالة الحكم^(١).

١- وهذه بعض مقتطفات من بردية القروى المصحيح، تركا، ما ورد في المخطوط .
يقول الفلاح المصحيح عاطفاً "رسي"
"إذا كنت حقاً أباً لليتيم، وروحاً للأرمل، وأخاً للمختلفة، ورداء لمن لا أم له، فشجسى على أن أشتر سمكتك في هذه الأرض بما يتفق مع كل قانون قويم، وعساك تكون حاكماً بريئاً من الخشع، ونيلاً سرهاً عن الدنية، تزهق الباطل وتغلق الخلق ديلسى بدناه. وهأنذا أقول وانت تسمع. أقم العدل امدحك وتمدحك المداحون ...".
ويتابع القول :
"ها أنت رئيس وبيتك ميران، إذا احتل الميزان فأست عتلت ... فإذا سرت وجهك عمن يقطع فمن يرفع العار ؟"
أقم للعدل لرب العدل الذى عدل عدائه موجود "...." والعدل يحالذ إلى الأبد بهبط مع صاحبه إلى الحياة، فإذا دفس احتونه الأرض معه، ولن تزول سمعته من هذه الدنيا، ولسوف يذكر بالخير".
"قل الحق إذن والعمل الصواب فالعدل عظيم وحالذ....".

وفي جرأة شديدة يعنف القروى المصحيح رجل البلاط الملكي في قوله :
"إنك قادر ومقتدر، وذراعك طائلة، ولكن لمؤادك قاس، والرحمة قد تجاوزتك".
وكان نتيجة هذه الجرأة أن أمر "رسي"، يضرب الفلاح بالسياط، ولكنه لم يرتعد، بل تابع جرأته في قوله :
"ضل ابن مرو طريقه، وعسى وجهه عما يراه، وأصيب بالصمم عما يسمعه، وضل صميره عما يذكر به. إنك أشبه بقرية من غير عمدة، وجماعة لا كبير لها ، ومركب لا ريان فيها، وعصبة لا هادى لها أنت نبيل نهاب، وحاكم مرتش، وكبير لمنطقة كان ينبغي أن يمنع الاختلاس ، ولكنه أصبح غرودجاً لمن يود أن يحتلس".
ثم يوجه الفلاح المصحيح قوله للملك :
"أنت روح رب السماء وسط حاشيتك، ومنك قوام الخلق جميعهم ... فاقطع إذن دابر النهب وأوقفه وأكرم البائس، ولا تكسر غضباناً ضد الشاكى، واجلد قرب الآخره .-" أنظر فيما سبق، عبدالعزیز صالح، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٩٧، برستيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ٣١٤ .

الفصل الخامس

عصر الدولة الوسطى : عصر الرخاء الاقتصادي

(حوالي ٢١٣٤-١١٧٨ قبل الميلاد)

تمهيد :

يبدأ عصر الدولة الوسطى، كما سبق القول ، حوالى عام ٢٠٦٠ قبل الميلاد
المجيد بتولى ملوك الأسرة الحادية عشر عرش مصر . وخلال هذا العصر استمرت
مصر وحدثها المفقودة ، وشهدت فترة ازدهار اقتصادى ، أقترن فى نفس الوقت ،
بتغيرات عميقة فى الأوضاع السياسية والاجتماعية . ولكن فى أواخر عهد الأسرة
الثانية عشر ، أخذت جحافل القوضى والاحلال والظلم ، تدمر كل شئ مرة أخرى ،
كما فقدت مصر وحدتها، وعرف المغلوبون على أمرهم من أبنائها الظلم والاستبداد
على يد أمرائهم وسادتهم^(١).

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

ظهر خلال الفترة المتأخرة من العصر الإهناسى ، أى عصر الأسرة العاشرة ،
أسرة قوية فى طيبة ، أسسها "منتوحتب الأكبر" ، أو "إنيوتف" أو "انتف الأكبر"،
كما يسمى أيضا . وقد استطاعت هذه الأسرة ان تحقق قدراً من الاستقلال الذاتى فى
حكم إقليم طيبة ، وان تجمع جيرانها فى حلف ضد ملوك إهناسيا . وبعد فترة من
المنازعات والصراع ، سقطت إهناسيا فى يد أمراء طيبة ، ثم قدر لهؤلاء فرض
سيطرتهم على مصر كلها وأعادوا إليها وحدتها .

وهكذا انتهى العصر الوسيط الأول ، وبدأ عصر جديد هو عصر الدولة
الوسطى، الذى يشمل فترة حكم الأسرتين الحادية عشر ، وقد حكمت فيما بين عامى
٢٠٦٠ و ١٩٩١ قبل الميلاد ، والثانية عشر التى حكمت فيما بين عامى ١٩٩١
و ١٧٨٦ قبل الميلاد .

تبدأ فترة حكم الأسرة الحادية عشر^(٢) فى الحقيقة ، فى عهد الملك "إنيوتف"
أو " أنتف الثاسى "، حوالى عام ٢١٣٠ قبل الميلاد كما ذكرنا حالا .

١- لمزيد من التفصيل انظر :

Gardiner, op. cit , pp. 107-145 and Winlock , H.E., the Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New york , 1947 and Medies of Daily Life in Anicent Egypt , Combridge , Mass, 1955.

٢- يرى البعض ان مدة حكم الأسرة الحادية عشر تبدأ عام ٢١٣٤ قبل الميلاد فى عهد "منتوحب الأكبر" . ولكن الراجح ان هذه الأسرة لم تستطع فرض سيطرتها على مصر كلها الا فى عهد منتوحب الثانى ، أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ١٨٣ وما بعدها . وانظر فى الراى المخالف عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، ص ١٧١ وما بعدها .

وبدأت طيبة تنعم بعرش فرعون ، وتدفقت الضرائب على خزائنها من جميع أرجاء البلاد . وقد عمل ملوك هذه الأسرة كل ما فى وسعهم لتوطيد دعائم حكمهم ووحدتهم مصر ، كما بذلوا جهوداً عظيمة للتخفيف من كيوتهما ، وسر الامن والطمانينة والعدل ، وساعى فى ربوعها ، والنهوض بحضارتها واقتصادها . وقد خلف "منتوحتب الثانى" على عرش مصر ابنه منتوحتب الثالث الذى سار مقتفياً خطى والده ، ثم خلفه بعض ملوك ضعاف ، اتسم عهدهم بعدم الاستقرار .

ثم انهارت الأسرة الحادية عشر لأسباب غسيرة معروفة ، وخلفها على عرش مصر ملوك الأسرة الثانية عشر حوالى عام ١٩٩١ قبل الميلاد ، التى أسسها الملك "امنحات الأول" (١) . وكان هذا الملك رجلاً نبيلاً عصامى النشأة ، ولد فى صعيد مصر لام من النوبة . وقد استطاع بذكائه ، وحسن إدراكه وجهده ، ان يعتلى عرش مصر وينتصر على القوى الرجعية التى عارضته . وفى عصره عاد إلى مصر استقرارها كما أمنت حدودها ، وامتد نفوذها إلى خارج حدودها شرقاً وجنوباً . وفى عهد هذا الملك انتقلت عاصمة مصر من طيبة شمالاً إلى موقع جنوب منف ، حيث توجد قرية اللشت الحالية . وقد وجدت آثار هذا الملك فى أنحاء كثيرة من البلاد (٢) .

ويبدو ان أيام "امنحات الأول" كانت مليئة بالمتاعب . فقد اغتاله حراسه فى القصر ربما لصراع داخل الأسرة على عرش مصر (٣) ، وخلفه "سنوسرت الأول"

(١) سمي هذا الملك نفسه باسم آخر هو "وحم سوت" ، وهى تعنى "معد الهضة" ، عبدالعزير صالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ وكذلك : Gardiner , op . cit . p . 147-149

(٢) تقول ' بردية بقرتى ' وهى محفوظة فى متحف بطرسبرج ، التى كتبت فى عصر الملك "امنحات الأول" ، ولكن كاتبها سبها إلى أيام " سنفر " من ملوك الدولة القديمة ، ان " الملك سمرو " طلب من كاهن فى معد " الإله باست " فى الرقاريق ان يحدنه عن الماضى ويذكر له شيئاً يأتى به العبد . فطلب الكاهن ان يذكر الماضى ويتحدث عن المستقبل ، وأحد يصف للمأسى التى تحمل بمصر فى المستقبل حتى يظهر ملك يدعى ' أمبى " (امنحات الأول) ، احتارته الآلهة منذ أبعاد الأزمنة ليقف البلاد من وبلائها ويعيدها إلى ما كانت عليه . ويعتقد المؤرخون ان هذه البردية كتبت لتسجيد ملوك الأسرة الثانية عشر ، وإيهام الشعب ان العناية الإلهية ، قد بعثت " بأمنحات " لإنقاذ مصر . وقد سبقت الإشارة إلى هذه البردية . انظر ، أحمد فخري ، الأدب المصرى .

(٣) أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ٢١٥ . وعن العزير صالح ، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص ١٧٦ - ٢٠٤ ، ويلاحظ ان بعض المؤرخين لا يؤيد فكرة مقتل هذا الملك

الذى بسط نفوذه على كل مصر وكذلك البلاد المتاخمة لها . وقد اتسم عهده بالاستقرار والأمن . وقد خلف " امنمحات الثانى " ، " سنوسرت الثانى " ، الذى كان أول من اهتم بمشروعات الرى العظيمة فى إقليم الفيوم . وأعقب " سنوسرت الثانى " ، البطل العظيم " سنوسرت الثالث " ، الذى اعتبره كثير من المؤرخين اعظم ملك جلس على عرش مصر . فقد قضى تماماً على نفوذ أمراء الأقاليم والقبائل وامتيازاتهم . وكان أول من كون جيشاً نظامياً فى التاريخ ، كما اشتهر بأعماله العسكرية التى ردت لمصر هيبتها وأمنها .

وقد مجدت الأجيال اللاحقة " الملك سنوسرت الثالث " ، وأنزلته منزلة الآلهة ، وشيدت المعابد لعبادة هذا البطل الأسطورة ، وقد خلفه على العرش ابنه " امنمحات الثالث " ، وكان إدارياً حازماً ، ومصلحاً عظيماً ، وسياسياً حكيماً ، وبناءً كبيراً ، وقد نعم الابن كثيراً بثمرة أعمال والده العظيم ، وقد اشتهر هذا الملك بطول مدة حكمه التى ناهزت الخمسين عاماً ، وفى أواخر أيامه ضعفت سلطة العرش ، وقد خلفه ملوك ضعاف ، كان من بينهم " الملكة سببك نوفر " Sebeknofru " التى رأى أحد المؤرخين فى اعتقالها عرش مصر نذير شر وخراب .

ثم انتهت الأسرة الثانية عشر ، ربما لوجود أعداء أقوياء لمصر فى فلسطين ، وربما بسبب الصراع على العرش ، وربما نتيجة استرداد أمراء الأقاليم سلطتهم التى فقدوها ، عندما ظهر فى تاريخ الأسرة الثانية عشر ملوك ضعاف ، ولكننا لا نعرف على وجه اليقين لماذا انتهت هذه الأسرة العظيمة ^(١) .

وبسقوط الأسرة الثانية عشر ، انتهى عصر من امجد عصور مصر الفرعونية ، ودخلت مصر عصرها الوسيط الثانى ، حيث حل بها الخراب والدمار ولقها الظلم والظلام ^(٢) .

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سن ذكره ، ص ٢٢٢ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن عهد الدولة الوسطى ، يمكن الرجوع إلى الأعمدة الآتية : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ١٨٣ - ٢٣٣ ، عبد جمال الدين محمد ، شخ عن تاريخ مصر السياسى والحضارى ، تاريخ مصر الحضارى فى العصر الفرعونى ، سبق ذكره ص ١٠٠ - ١٠١ وكذلك :

المبحث الأول سمات العصر

لقد واجهت الدولة الوسطى تحديات خطيرة ، تمثلت أساساً فيما حل بمصر من خراب وظلم وظلام وتمزق خلال عصرها الوسيط الأول . ويرى بعض المؤرخين أن نظام الإدارة في عهد الدولة الوسطى ، لم يكن يختلف في جوهره عن النظام الذي ساد في عهد الدولة القديمة ، وإن كل ما يوجد من اختلاف بين العهدين ، إنما يتمثل في تغيير أسماء بعض الوظائف ^(١) . ولكننا نعترض على هذا الرأي ، نظراً لحدوث تغيرات هامة في نظام الإدارة، كما يتضح مما يأتي :

١- تدل وثائق العصر على اختفاء التركيز الواضح في السلطة ، وهو من سمات نظام الإدارة في عهد الدولة القديمة ، حيث كان عدداً من الوظائف الهامة يركز في يد شخص واحد . ففي خلال هذا العصر وجد وزيران ، أحدهما للشمال والآخر للجنوب ، بدلاً من وزير واحد لكل مصر ^(٢) . كما كثر عدد صغار الموظفين واتسعت سلطاتهم وعلا شأنهم.

ونلاحظ نفس الشيء بالنسبة للملوك أنفسهم . إذ لم يعد الملك ينفرد بحكم مصر وحده، بل جرت عادة ملوك الأسرة الثانية عشر ، على إشراك أبناءهم في حكم البلاد أثناء حياة الملك ، الأمر الذي ساعد على الإقلال إلى حد كبير ، من الصراع داخل الأسرة الحاكمة على عرش مصر .

٢- كان منصب الوزير قاصراً ، في النصف الأول من عهد الدولة القديمة ، على أبناء الملك . أما في عهد الدولة الوسطى ، فقد تولى هذا المنصب أشخاص لم تكن تربطهم بالملك رابطة قرابة . ونلاحظ نفس الظاهرة حتى بالنسبة لمنصب الملك نفسه ، فقد كان مؤسس الأسرة الثانية عشر ، رجلاً عصامي النشأة .

(١) السقا ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٩٩ حاشية رقم ١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٩ رقم (١) .

٣- تضاعلت سلطة حكام الأقاليم بشكل ملحوظ ، وخاصة خلال عصر الأسرة
الثالثة عشر ، واصبحوا مجرد موظفين لدى الملك . وكثيراً ما كان الملك يرسل
مندوبين عنه لزيارة الأقاليم وكتابة تقارير عن أحوالها ^(١) .

٤- اتسع نطاق تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي عما كان عليه في عهد
الدولة القديمة ، كما سنرى فيما بعد ، الأمر الذي أدى إلى تزايد أعباء الإدارة
وتعقد مشكلاتها . بل لقد وصل التدخل في عهد الأسرة الثانية عشر، إلى درجة التنظيم
الدقيق للحياة اليومية للناس ^(٢) .

٥ - شهد هذا العصر تغييراً واضحاً في فلسفة الإدارة والحكم .

٦- شهد هذا العصر ظهور ما يعرف بمجالس الطوائف والحرف ، كما سنرى
في حينه .

ونورد فيما يلي كلمة موجزة عن حكام الأقاليم ، وعن التغير الذي اعتري
فلسفة الحكم والإدارة في عهد الدولة الوسطى .

أولاً : حكام الأقاليم :

سبق أن رأينا أن حكام الأقاليم قد تمتعوا بقدر عظيم من النفوذ في أواخر أيام
الدولة القديمة ، حتى اصبحوا أشبه بالملوك داخل أقاليمهم . ولكن ثورة العصر
الوسيطة الأول، والتي قوضت دعائم الملكية ، حدث في نفس الوقت من سلطة أمراء
الأقاليم خلال هذا العصر، رغم استقلالهم بحكم أقاليمهم .

وقد حاول ملوك الأسرة الحادية عشر ، تارة بالقهر وتارة بالحيلة ، كسر
شوكة حكام الأقاليم أو كسب ولاءهم ، ولكنهم لم يستطيعوا العودة بهذا الولاء إلى ما
كان عليه الحال في العصر الذهبي للدولة القديمة. كانوا مخلصين للملك أحياناً، وكان
ما يتمتعون به من نفوذ يتناسب عكسياً مع ما كان يتمتع به الملوك من نفوذ. ولكنهم

(١) عدليم أبو بكر ، المرجع السابق ذكره ، ص ٩١-٩٨

(٢) كما ندل على ذلك بعض الوثائق التي وجدت في " مذبة كامون " التي ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشر . كما
سرى فيما بعد . انظر على ذلك .

لم يعودوا خداماً للملك . كانوا يدفعون الضرائب للملوك ويرسلون ما يطلبه هؤلاء من رجال لأعمالهم الحربية، ولكن اهتمامهم وولاءهم كان لأنفسهم وأقائليهم أولاً وللملك ثانياً^(١) .

وخلال فترة حكم الأسرة الثانية عشر ، استطاع الملك " امنمحات الثالث " ، القضاء على نفوذ الحكام وتجريدتهم من ألقابهم ، كما قضى "الملك سنوسرت الثالث" على نفوذهم وامتيازاتهم ، وحولهم إلى موظفين تابعين للملك . ولكن يبدو ان ذلك كان إلى حين .

ويلاحظ في نفس الوقت ، ان حاكم الإقليم لم يعد يتمتع بسلطة مطلقة ، أو بحكم وفقاً لهواه ، كما كان عليه الحال في أواخر عهد الدولة القديمة أو خلال العصر الوسيط الأول . بل تدل وثائق عهد الدولة الوسطى ، على انكماش سلطتهم وعلى تغير واضح في فلسفة الحكم في أقاليمهم .

ثانياً : فلسفة الحكم :

أسفرت ثورة المغلوبين على أمرهم في العصر الوسيط الأول ، عن تغيير عميق في فلسفة الحكم في عصر الدولة الوسطى . ولقد اهتزت فكرة الملك الإله ، وخاصة في العهود الأولى من عصر الدولة الوسطى ، وتناخس الملوك وحكام الأقاليم في هذا العصر، بعد التهم بين الناس ، وسهرهم على رعايتهم ، فاطمان الناس إليهم ومجدوهم مختارين لا عن قهر . بل لقد ذهب بعض الباحثين ، إلى ان عصر الدولة الوسطى هو عصر الحكم العادل ، وإن هدف الحاكم تمثل أساساً في القانون العادل . .

(١) يقول جاردنر في كتابه التي سقت الإشارة إليه عن مصر خلال هذا العصر :

"Egypt was feudal state more than ever before or after " , op . cit., p.12 et seq "

ويؤيد " هرمان كيس " هذا الرأي . ولكن يلاحظ ان هذا ينطبق على النصف الأول من عهد الأسرة الثانية عشر ، كما أنه كان انقطع من نوع جديد ، لم تضعف معه سلطة الملك ، ولكن زادت فيه سلطات حكام الأقاليم برضاء الملوك ولعناخ الرعية، خاصة في عهد " الملك سنوسرت الثالث " الذي اجمعهم لسلطانه . كما ألقى حقهم في توريث وظائفهم لابنائهم انظر ، عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص ١٨٥ وأحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

وتعكس نصوص كثيرة هذا التغير فى فلسفة الحكم ، واتسام الملوك بفزعة إنسانية واضحة . ومن أهم الأمثلة على ذلك بردية " القروى الفصيح " والتي يرى البعض أنها كتبت فى عصر الدولة الوسطى ، وقد سبق دراسة هذه البردية . ونورد فيما يلى بعض النصوص التى تعكس فى وضوح التغير فى طبيعة الذات الملكية وفى فلسفة الحكم .

يقول الوزير " بتاح حتب" ^(١) ، وقد بلغ من الهرم عتياً وسرت آلام الشيخوخة فى اوصاله ، موجهاً كلامه ليكون مثلاً لابناء العظماء:

" لا يدخلنك الغرور بسبب علمك ، ولا تتعال لأنك رجل عالم، تستشر الجاهل كما تستشر العالم ... " . "إذا كنت زعيماً فلا تسع الا وراء كل ما اكتملت محاسنه، حتى تظل صفاتك الخلقية دون ثغره فيها. ما اعظم الحق، فان قيمته خالدة لم ينل منها أحد منذ أيام "اوزوريس" .. انه (أى الحق) مثل الطريق السوى أمام الضال، ولم يحدث أبداً ان (عرف عن) عمل السوء انه اوصل صاحبه سالماً فى مأمته. أحتى ظهرك لمن هو أعلى منك، لرئيسك فى العمل، وسيعمر بيتك خيراته وتنال مكفأتك فى موعدها المقدر .. لها ... " .

ويعكس النص السابق أفكار ذات أهمية بالغة . فالنص يصور الملك بشر يمكن ان توجه إليه النصيحة من وزيره ، الذى يطلب منه البعد عن الغرور كما يطلب منه ان يستشير الناس ، ويلتزم جانب الحق حتى يكون مثلاً يحتذى به . بعبارة أخرى ، انتفت صفة الألوهية عن الملك وأصبح كسائر البشر .

(١) توجد هذه البردية فى " متحف اللوفر " ، وترجع إلى عهد الأسرة الثمانية عشر ، وقد ترجمت إلى عدة لغات . انظر دراسة لها من : أحمد محرم ، الادب المصرى ، سبق ذكره ص ٤٣١ .

ويفخر " ائتمحات الأول " وهو ينصح ابنه " ستوسوت الأول " ^(١) ، بما فعله كى يعيد إلى مصر الظمائية والعدل ويؤمن حدودها ، كما يفخر بما أقامه من معابد وحصون ، وبما أخدمه من فتن فى الشمال والجنوب ، كما يقول فى فخر :
" لقد أعطيت الفقير وربيت اليتيم ، وجعلت من كان لا شئ يصل إلى (غرضه) مثل ذلك الذى كان شيئاً مذكوراً " .

وعلى الرغم من ان النص السابق لا يقطع بما إذا كان هذا الملك ، قد فعل ما ذكره ام لا ، الا انه يعكس فلسفة جديدة فى الحكم ، جعلت الملك يجد فخراً فى انه فعل الخير من أجل بلاده ، وشملت رعايته الفقير واليتيم .
ويفخر " أمينى " ، الذى أقطعه " الملك ستوسوت الاول " الاقليم السادس عشر من اقليم مصر ، قائلاً :

" انى لم استعمل القوة مع أى ابنه من بنات الاهالى ، ولم اظلم ابنه ارملة ولم أقبض على عامل ما ، ولم اطرده راعياً ما ، ولم يكن هناك رئيس .. اخذت منه عماله الثناء العمل . ولم يكن هناك فقير ... ولا جانع فى عصرى ، وعندما حلت سنة المجاعة حرثت جميع اراضى الاقليم ... وابقيت الاهالى احياء واعطيهم طعاماً ، حتى لم يوجد بينهم جانع واحد ، وقد اعطيت الارملة كما اعطيت المقزوجة ، ولم اوثر العظيم على الصغير ... " وعندما عادت الفيضانات العالية وتوافر كل شئ ، تجاوزت عن متأخرات ضرائب المزارعين " .

وسواء كان " أمينى " صادقاً فيما ادعى أنه فعل أم لا ، فمما لا شك فيه ان النص السابق يسجل الافكار التى سادت فى هذا العصر عن الحاكم العادل ، وما يتعين عليه ان يفعل من أجل ابناء اقليمه .

(١) وردت هذه الصائغ فى بردية ترجع إلى الأسرة الثامنة عشر ، وقد اشار إليها أحمد محرسى فى " منه من لاء " ، ١٩٥٠ ، القاهم ، ٤٤٢ ، وقد سبقنا الإشارة إليه

وكذلك كان " اميلى " يفخر بأنه لم يسرق أو يأخذ شيئاً لنفسه ، بل كان يسلم كل الضراب للبلابط ، وكان الولاء للملك فى هذا العهد عملاً يستحق الفخر والمباهاة^(١).

ويقول أحد ملوك الاسرة الثانية عشر لوزيره :

" إذا جاءك الخصوم فاعمل ان تقيم كل شئ وفقاً للقانون ، بحيث يحصل كل صاحب حق على حقه^(٢) .

ليس غريباً ان نجد هذه التغيرات العميقة فى فلسفة الحكم ومقومات الحكم العادل، خلال عصر الدولة الوسطى. لقد جاء ملوك هذه الدولة وامامهم تاريخ ثورة دامية ، غيرت كثير من المفاهيم التى سادت خاصة فى اواخر عهد الدولة القديمة، واعلت من شأن الفرد وحدت من سلطة الملوك وامراء الاقاليم، وانزلتهم منزلة البشر. وبؤيد هذا الاتجاه نحو فلسفة جديدة فى الحكم الصالح ، تلك الثورة الدينية التى بدأت فى اواخر عهد الدولة القديمة ، وامتدت حتى شملت عهد الدولة الوسطى ، تلك الثورة التى تمثلت فى التحول عن عبادة " رع إله الشمس " أو دين الملوك إلى "عبادة أوزيريس" ، الاله الطيب ، الذى يكفى العمل الطيب ليكسب الفرد رضاه وتجراً سباحته قبل الموت ، فيكتب له الخلود. فقد كان فى هذا التحول انتصار للخير، الذى مثله " اوزيريس " ، على الشر ، الذى مثله "ست" ، كما كان فيه تمجيد للرابطة الاسرية ، ووفاء الزوجة لزوجها، ووفاء الابن لآبيه^(٣) . وقد اتخذ الشعب

(١) عبدالمعزم ابوبكر ، المرجع السابق ذكره ، ص ١١٩ والسقا ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ حاشية رقم (٢) ، وعبد العزيز

صالح الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص ١٨٥ . مع ملاحظة وجود اختلاف صئيل فى ترجمة النص الفرعونى .

(٢) السقا ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ حاشية رقم (٢) .

(٣) استحدثت " عقيدة اوزيريس " على عقول الناس وعواطفهم . ويمكن ان تلخص هذه العقيدة فيما يأتى . نشأ صراع بين " اوزيريس " ، اله الخير ، و " ست " اله الشر على عرش مصر ، وان كانا احبوا ولدا للالاهين " حيب ولوت " اللذين اعتبرا من نسل "رع" الخالق الاعظم . ونجح "ست" فى اغتيال "اوزيريس" . ثم عادت الحياة مرة اخرى إلى " اوزيريس " ، بعصل وفاء اخته " ايريس " ، التى بكت وتصرفت للالهة حتى يعيدوا إليه الحياة . ولما عادت الحياة إلى "اوزيريس" ، ترك دينا العذر وبعط إلى العالم السفلى ، بعد ان نزل عن عرش مصر لابه "حور" . وبدأ صراع جديد بين "حور" ، الذى كان مؤمناً بدالة قمية والده ، وعنه "ست" . وعندما احتكما إلى الالهة ، قررت اميرا ، ان "حور" هو الوارث الشرعى لعرش مصر ومنذ هذه اللحظة أصبح الملك يسس فى حياته "حور" وبعد وفاة "اوزيريس" . وقد بدأ فراعنة مصر فى اعتناق مذهب "اوزير" أو "اوزيريس" فى عهد الاسرة الخامسة ، بعد ان ساد الاعتقاد بأن من احتق هذا صار بعد الموت " اوزيراً " . هذا وقد وردت قصة "اوزيريس" فى وثائق كثيرة مثل " متون الاهرام " و"أناشيد الدولة الوسطى " و"متون العراية المدفونة " . فانظر سليم حسن ، ص ٢١٤ - ٢١٥ . ويذهب برستيد إلى ان مرالى " ايريس " و " نفيس " ظلت اقدس تعمر عن اخرون عرفه قلب المصرى ، واتخذت صوراً متنوعة إلى أن ظهرت فى روايات المعجزات الاورورية فى اوربا ، بعد ذلك بثلاث ألف سنة ص ٥٩ .

من عبادة " اوزوريس " نبراسا في معاسلتهم ، حتى سادت في مصر تباشير دعوة السيد المسيح .

ولكن يبدو ان الفترة الاخيرة من عصر الدولة الوسطى ، قد شهدت انتكاسة في فلسفة الحكم وما حققته من تقدم . فقد عاد للملوك ما كان لهم من نفوذ وسلطان ، وعاد الموظفون إلى مdahنة الملك والتمسح في اعتابه ، واختفت ، أو كادت ، فكرة الاعلام من شأن الفرد واعتماده ، على ما يقدمه من عمل صالح، حتى يضمن الفجاح في الدنيا والآخرة، وحلت محلها النعمة القديمة ، وهي ان الخير كل الخير في عطف الملك ورضاه .

ولكن ، يمكن ان نقرر كقاعدة ، ان أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاه أو متجبرين في الأرض ، بل أننا نعرف أنهم كانوا فخورين بعدالتهم بين الناس وسهرهم على رعايتهم .

ثالثاً : نهضة الفنون والآداب والعمارة :

شهد عصر الدولة الوسطى ، محاولات عظيمة للنهوض بفنون مصر وآدابها وعمارتها ، بغية الرجوع إلى ما كانت عليه في العصر الذهبي للدولة القديمة . وقد اسفرت هذه المحاولات، عن اضافة الكثير من عناصر الحيوية والابداع إلى الفنون والآداب وهندسة العمارة وتخطيط المدن ، حتى أصبحت مصر أعظم أمم الشرق القديم حضارة وقوة.

ومن المعروف أن قواعد الفن واتجاهاته الأساسية في مصر الفرعونية ، قد بدأت في العصر العتيق ، واخذت شكلها النهائي في العصر الذهبي لبناء الاهرام . ومع ذلك ، فإن آثار الدولة الوسطى تعكس في وضوح، حدوث تطورات هامة في الفنون والانشيب والعمارة ، خلال هذا العصر . كما تؤكد ان هذه التطورات لم تكن تفتقر على الاطلاق للابداع والاصالة الفنية^(١).

(١) أحمد محري ، مصر الفرعونية ، ص ٢٢٣ ، وعبدالعزير صالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ١٩٣ وكذلك : Barlwy, op cit , pp 24-25, 37-38, 44, 53 and 58 and Herich II , History of the World's Art, Spring Book, London , pp 130 -131

لقد حاول فنانون الدولة الوسطى ، من نحّاتين ونقاشين ورسامين ، الفكّك من إيسار القواعد الصارمة المثالية التي فرضها فنّانو " مدرسة منفذ " ، على النحت والنقش خلال عصر الدولة القديمة . أما فنّانو الدولة الوسطى فحاولوا الجمع بين الواقعية والمثالية في أعمالهم . وإن كانت الغلبة للمثالية . يصورون الوجه والبدن كما هي في واقع الحياة ، ولكنهم كانوا يضيفون على التماثيل ، وخاصة تماثيل ملوك هذه الدولة ، هيئة مطلقة مرفوعة سامية ، وتقاسيم متناسقة ، وانتصاب قوية كاملة ، ونظرة إلى الأفق البعيد ترنو إلى الخلود ، في جلال وهدوء .

كما حاول فنّانو الدولة الوسطى صبغ أعمالهم بصبغة واقعية ، متأثرين في ذلك باتجاه بدأ يظهر عفواً في طيبة خلال عصر الانتقال الأول . واهتموا بدراسة الوجوه التي عبرت عن ملامح أصحابها كما هي في واقع الحياة ، كما حاولوا أن يترجموا الخصائص الذاتية التي تفرق بين ملك وآخر . وقد بلغ هذا الاتجاه ذروة نجاحه في عصر الأسرة الثانية عشر ، كما يبدو في الملامح الصارمة لوجه " سنوسرت الثالث " ، والرحمة والوداعة والهدوء ، التي يعبر عنها في روعة تمثال " انمحات الثالث " ، الذي احب السلم والعمران .

كل هذا مع الاحتفاظ لملوك هذا العصر بطابع اسرى معروف ، تمثل أساساً في بروز عظام الوجنتين ^(١) .

حقاً : لقد ترك هذا العصر أعمالاً فنية تعتبر ، دون شك ، من أروع ما أنتجه فنّانو مصر في كل العصور .

وقد ازدهرت الآداب في هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، جعل غالبية الباحثين يعتبرون عصر الدولة الوسطى ، ازهى عصور الأدب في تاريخ مصر الفرعونية ، كما اعتبرتها الأجيال اللاحقة المثل الكلاسيكي للأدب الجيد . وقد ظلت الأجيال اللاحقة تردد تعاليم "الملك انمحات الأول " ، وحكمة " الوزير بقاح حوتب " ، وتقرأ رسائل "تخت"

(١) عبدالعزير صالح ، المرجع السابق ذكره ، ص ٣٤٠-٣٤٢ ، وثروت عكاشة ، الفن المصري القديم ، ٢ - النحت والتصوير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٥٨٣ وما بعدها وانظر أيضاً :

Gardiner, op.cit., pp. 143-145.

لاينه^(١) ، وتعيد قصة " القروي الفصيح " وقصة " الملاح الغريق " . لقد نجح مفكرو هذا العصر في التعبير عن فلسفة الحكم الصالح ، وعن العدالة والحق ، وعواطف الحب والوفاء والحق ، وعن الخير والشر . كما كانت بعض اعمالهم تصويراً صادقاً لبعض جوانب حياة من المجتمع . ومن المؤكد ، اننا مدينين لمفكرى هذا العصر ، بأروع ما ابدعته مصر الفرعونية من قصص ، نجد حتى يومنا هذا متعة في قراءتها^(٢) . هذا ، وقد تركت الدولة الوسطى معابدها وأهراماتها وما شيدته من حصون وقصور وبيوت في كل أرجاء مصر . وقد حققت العمارة خلال هذا العصر درجة عالية من التطور والرقى ، كما تشهد بذلك معابد ومقابر الدولة الوسطى في بنى حسنى والبرشا وأسيوط والدير البحرى والعراة المدفوعة والفيوم . الأمر الذى يؤكد ما تمتعت به الدولة الوسطى من ازدهار ورخاء اقتصادى .

أما تخطيط المدن فقد وصل إلى درجة عالية من التقدم لم تكن متوقعة في هذا العصر المبكر . وأوضح دليل على ذلك ، الخطة التى أعدت لبناء " مدينة كاهون " أى اللاهون ، التى بناها " الملك منتوحتب الثانى " كمقر للحكم ، قرب هواره فى الفيوم^(٣) . وتعطى هذه الخطة ، وهى لالالت باقية حتى اليوم ، فكرة واضحة عن المدينة فى هذا العصر . وقد قسمت المدينة إلى قسمين أساسيين : أحدهما به قصر الملك وعلية القوم ، والآخر منازل من الراجح أنها كانت للعمال والعامة . ويمر بالمدينة عدد من الطرق الرئيسية والفرعية . وتتسم بيوت العمال بالبساطة والتواضع ، أما قصور الملك وعلية القوم التى تتميز بحدائقها وبساتينها ، فتدل دلالة واضحة على ما تمتع به هؤلاء من رفاهية ونعيم .

(١) أحمد بحرى ، مصر الفرعونية ، ص ٢٠٤-٢٠٧ .

(٢) عبدالمعزم ابو بكر ، المراجع السابق ، ص ١٨٣ ، عبدالمعزم صالح ، المراجع السابق ، ص ٢٣٨-٢٤٣ ، أحمد بحرى ، الادب المصرى ، سبق ذكره ، ص ٣٨٣ وانظر أيضاً

Gardiner, op. cit., p. 130-131.

(٣) المراجع أنها أول محاولة فى تاريخ البشرية لبناء مدينة ، وفقاً لخطة مسبقة ، وذلك فى حدود ما تعلم وأبصر .

Gardiner, op. cit., p. 143

كما تعكس خطة بناء "مدينة كاهون" التقسيم الطبقي الذي عرفتته الدولة الوسطى ، وكذلك التفاوت الواضح في توزيع الثروة بين أفراد المجتمع^(١) . كما نلحظ الخطة ، وما أدخل عليها من تعديلات قبل عملية بناء المدينة ، على درجة عالية من التقدم في هذا الفن ، وكيف حاول القائمون بعملية التخطيط الاقتصاد في نفقات البناء^(٢).

المبحث الثاني

النهضة الاقتصادية والرخاء الاقتصادي

تؤكد وثائق عصر الدولة الوسطى، أن مصر قد عرفت خلال هذا العصر ، نهضة اقتصادية لم تعرف مثيلاً لها من قبل . وقد شملت هذه النهضة كل أوجه النشاط الاقتصادي: كالزراعة والحرف والصناعات التحويلية والاستخراجية ، والتجارة الداخلية والخارجية . وقد أسفرت النهضة عن انتشار العمران وتحقيق قدر كبير من الرفاهية الاقتصادية ، جعلت غالبية المؤرخين تصنف هذا العصر بأنه عصر الرخاء الاقتصادي " وعصر القنمية الاقتصادية " .

وهذه كلمة موجزة عن الأنشطة الاقتصادية الرئيسية .

١- الزراعة:

كانت الزراعة، وخاصة في الصعيد ، المصدر الأساسي للدخل بالنسبة لغالبية السكان. وقد أولى حكام الدولة الوسطى ، وخاصة في عهد الأسرة الثانية عشر ، الزراعة عناية بالغة، شملت طرق الزراعة ، وأدوات الإنتاج الزراعي ، وفن إدارة المزارع ، والرقابة على العمليات الزراعية ، وتجميع وحفظ الإنتاج الزراعي . إن كانت الدولة، وخاصة في عهد هذه الأسرة، توزع الأراضي الزراعية على

الأسر

(١) بلغت مساحة أحد القصور حوالي ٤٥ × ٦٠ مترًا ، وهي لا تقل كثيرًا عن المساحة المخصصة لحي العمال بأكمله

وكان القصر عمادًا ومقسماً إلى قسمين رئيسيين أحدهما للرجال والآخر للنساء

(٢) أحمد محري ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ١١١

وقد قللت المدينة قائمة ، على الأقل حتى زيارة "هيرودوت" لمصر قبل الميلاد بقليل . وقد اعتبر "هيرودوت" وغيره من الرحالة الإغريق والرومان هذه المدينة إحدى عجائب الدنيا . وقد وجد في هذه المدينة الكثير من الوثائق الهامة ، والأمتعة والأدوات التي تمدنا بالكثير عن الحياة في هذا العصر . ومن بينها مصابيح وكتابات عن أمراض النساء والحيوانات وإحصاءات وبيانات عن الأسر ، وكذلك وثائق عن مدى تدخل الحكومة لتنظيم حياة الناس.

بالتساوى، وتراقب عملية استغلالها. وكانت تستعيد الأرض من الأسر التى تهمل فى زراعتها. كما كان الإنتاج الزراعى يخضع لحصر وإحصاء دقيق، حفظاً لما تم إنتاجه من حاصلات.

لقد أدرك المصريون منذ فجر التاريخ ، أن النهر العظيم هو عماد الحياة ، فهدبوا مجراه ، وشقوا القنوات والمصارف وأقاموا الجسور ، ودأبوا على رعايتها وتطهيرها ، حتى يمكن الاستفادة من مائه والسيطرة عليه . فكتيراً ما كان قصور النيل، كما كانت فيضاناته العالية ، سبباً فى قصور الأقوات ، مما أدى أحياناً إلى حدوث مجاعات خطيرة^(١). وقد سار ملوك الدولة الوسطى فى خطى أسلافهم واهتموا اهتماماً بالغاً بمشروعات الري، بهدف الاستفادة من ماء النيل والسيطرة عليه . فحرصوا على تسجيل منسوب مياه النيل^(٢). كما اشتهروا بمشروعات الري العظيمة ، خاصة فى إقليم الفيوم . وفى عهد الملك سنوسرت الثانى بدأ الاهتمام بمشروعات الري فى الفيوم ، وفى عهد " امنمحات الثالث " ، أقيم سد عند مدخل إقليم الفيوم بالقرب من قرية اللاهون ، لمنع الفيضان من إغراق أراضي هذا الإقليم ، وتخزين مياه الفيضان للاستفادة منها ، عندما تدعو الحاجة . وقد اقترن هذا المشروع العظيم ، بشق الكثير من القنوات والمصارف والجسور فى إقليم الفيوم . وقد مكن هذا المشروع من استصلاح ما يقرب من نحو ٢٧ ألف فدان^(٣) . ولكن يبدو أن الاهتمام بمشروعات الري لم يكن قاصراً على هذا الإقليم ، بل شمل مصر كلها^(٤) .

(١) غللت مصر تعاني من المأسى والمجاعات ، التى كان يسببها قصور النيل ، عبر تاريخها الطويل وحتى العصر الحديث ، عندما أصبحت فى شح هذه الآثار من خلال بناء القنوات والسدود لحفظ مياه النيل . وكانت البداية عند بناء القناصر البحرية فى عصر محمد على الكبير .

(٢) توجد وثائق ترجع إلى عهد " امنمحات الثالث " تدل على أن الحكومة كانت تقوم بتسجيل منسوب مياه النهر عند حصون والقلاع التى انشأها هذا الملك فى شتى بقعة فى جنوب مصر ، بطريق ذلك شهب ميخائيل ، الزراعة ، مسطور فى تاريخ الحضارة المصرية ، وقد سبق ذكره .

(٣) ترتب على إقامة " سد اللاهون " انكساف بحيرة " مرسور " وهى البحيرة التى سماها اليونانيون موبرس (أى البحر) وبحصار الماء من مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية ، إذ كانت مدينة القيوم الحالية تقع على شاطئ هذه البحيرة ، من ذلك العصر وبعد إقامة السد وانكساف البحيرة ، أصبحت القيوم تقع على بعد حوالى ٢٠ كيلو من البحيرة . ويعرف هذه البحيرة الآن بحيرة قارون . ولا زال ارتفاع منسوب المياه فى البحيرة ، وما يرتب عليه من طغيان مائتها على الأرض الزراعية يمثل مشكلة تحاول الدولة مواجهتها بإيجاد مناهل جديدة لمياه الصرف من إقليم الفيوم ومن المعروف أن مياه البحيرة على العصور القديمة كانت عذبة ، أما الآن فهى ملحة وغير صالحة للرى .

(٤) أحمد حسنى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ٢٣٩ وكذلك .
Shfai Ali, Fayum Irrigation, Bull. de la Soc. Royal de l'Egypte xx, 1940; Petrie, Jilabun Kaham and Gurots, London 1891, and Caion- Thompson and Gardiner, B., the Desert Fayum, London 1934

وقد ظل سد اللاهون قائماً ، على الأقل حتى عام ٢٤ قبل الميلاد ^(١) .
كذلك عمل بعض ملوك الدولة الوسطى على توفير ماء الشرب في بعض
المناطق النائية. والمثل على ذلك مخازن المياه والآبار التي أقامها " منئوحتب الثاني "
في الطريق الموصل للبحر الأحمر ماراً بوادي الحمامات ، وذلك لتوفير الماء للقوافل
التجارية ، التي كانت تذهب إلى بلاد " بونت " عن طريق البحر الأحمر ^(٢) .

وعلى الرغم من ظهور نظام مجالس الطوائف والحرف في عهد الدولة
الوسطى ، وهى المجالس التي كانت تهدف إلى رعاية مصالح أعضاء الطائفة أو
الحرفة ، فقد كان الرعاية والمزارعون وعمال الحرف والصناعات يعيشون حياة
متواضعة وضيقة ، وكثيراً ما عاثوا من الفقر ونظف العيش ، يستحقون الرحمة
والرثاء ^(٣) .

كما ان هناك بعض الوثائق التي تشير إلى تعرض أفراد الطوائف الدنيا في
مجتمع الدولة الوسطى ، لصور من الاضطهاد القتل والقسوة الظالمة ، التي كانت
تصل أحياناً إلى حد سلب حقهم في الحياة . فهناك وثائق تشير إلى دفن خادمة وابنتها
أحياء ، حتى تكون في خدمة سيدها في الحياة الأخرى ^(٤) . كذلك هناك نص يشير إلى
أن الفلاح كان يرمى هو وأسرته في الماء ليغرق دون رحمة ، بعد ان يضرب ويعذب ،
إذا عجز عن تقديم المحصول لمالك الأرض ^(٥) . كما تدل وثائق وآثار " مدينة كاهون "
على ان حياة العمال كانت وضيقة وتنقسم يشظف العيش .

(١) المرجع السابق ذكره ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ ، وكذلك عبد العزيز صالح ، الأرض والملاح في مصر الفرعونية ، مشور في :

الأرض والملاح في مصر على مر العصور ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٣٤-٣٥

(٢) أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٦٨ وعبد ادهم بكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر الفرعونية - دار
الماورف ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٥٢ - ١٥٤ ، و ديورات ، قصص الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول ، القاهرة
١٩٦٥ (الطبعة الثالثة) ص ٣٦ - ٣٨ .

(٤) أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٢ ، وكان ذلك في عهد الأسرة الثانية عشر ، حيث بدأت
فكرة حرية المرد وحقوقه تصعب مرة أخرى ، كما سبق ان اشرنا . ولكن لا نعرف ما إذا كان هذا الخدم أحياء مع سادتهم
يخلل العادة التي كانت سائدة في هذا العصر

(٥) أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ ، ويحيى ميخائيل ، المرجع السابق ، ص ٤٩٤ - ٥٠١ .

ولكننا لا نعرف ما إذا كانت الوثائق السابقة تشير إلى حالات فردية ، أم أنها كانت تعكس الوضع العام السائد في ذلك العصر . ولكننا نميل إلى اعتبارها حالات فردية ، لأن القول بأن هذه الوثائق تعكس الوضع الغالب ، لا يتفق مع المناخ العام وفلسفة الحكم في عهد الدولة الوسطى ، حيث كان الملك وحكام الأقاليم يقفون بعدالتهم وإحقاقهم للحق ورعايتهم لشئون رعاياهم، كما سبق أن رأينا ^(١) .

٢- تربية الحيوان :

لقد اشتهر المصريون منذ فجر التاريخ وعلى مر العصور ، بحبهم الشديد للحيوان ورفقهم به . وقد شهد عهد الدولة الوسطى اهتماماً بالغاً بتربية الحيوان . فقد كان أصحاب الماشية يتركون أمر القطيع لطائفة من الرعاة المحترفين المجربين ، الذين عرفوا بكفاءتهم وخيرتهم في هذا المجال . كما كان أصحاب الماشية يحاولون التتبع السلالات الجيدة من الماشية ، ويعنون بطرق تغذية وتسمين الحيوانات بتقديم غذاء خاص لها ، تمثل أساساً في عجين الخبز .

ومن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تملك في هذا العصر ، ثروة حيوانية ضخمة . كما أنه من الثابت تاريخياً أن تربية الحيوان كانت أكثر ازدهاراً في منطقة الدلتا ، نظراً لانتشار المراعى الطبيعية . لهذا كان أصحاب الماشية في جنوب مصر يرسلون حيواناتهم إلى الشمال للرعى .

ويبدو أن الرعاة كانوا يكونون طائفة قائمة بذاتها ، اتخذت من الرعى وتربية الحيوان طريقة حياة . وكان للرعاة سمات خاصة بهم ، كانوا أقرب إلى الوحشية ، يطلقون شعورهم ، ويسبسون عراة إلا من نقبة لا تكاد تستر عورتهم . وكانوا يعيشون حياة بوهيمية تتسم بشظف العيش . فضلاً عن هذا ، فقد اشتهروا بدراية وخبرة في تربية الحيوان ، ولكنهم غالباً ما كانوا يحترفون مهن أخرى بجانب الرعى ، مثل صيد الطيور والحيوانات والأسماك ، وصناعة الحصر والقوارب في وقت فراغهم .

(١) سبق أن رأينا أيضاً أن بعض الدارسين يرى أن عصر الدولة الوسطى ، إنما يمثل عصر العدالة والقانون العادل والحكام العادل . انظر أيضاً ، بحسب ميخائيل المرجع السابق ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ ، حيث تعرض الكاتب تعريضاً شديداً لهذا على فكرة استعمال الطبقة الأرستقراطية للطبقة العامة .

وكان أصحاب الماشية يراقبون الرعاة رقابة صارمة ، ويحاسبونهم حساباً دقيقاً على القطيع الذى يترك لهم أمر رعايته . وكان صاحب القطيع يميز حيواناته عادة بعلامة خاصة ، حتى لا يختلط بقطيع غيره من الملاك (١) .

٣- الصناعات والحرف :

فضلاً عما سبق ، فقد شهدت الدولة الوسطى جهوداً صادقة وجادة للنهوض بالصناعات والحرف وتطويرها ، بعد أن تدهورت خلال العصر الوسيط الأول . وقد ساعد على تحقيق هذه الغاية ، زيادة معرفة العامل المصرى بخصائص وأسرار المواد الأولية ، وارتقاء خبرته وكفاءته بعد أن توارث المهنة جيلاً بعد جيل . فضلاً عن هذا ، فإن ازدهار أوجه النشاط الاقتصادى الأخرى ، قد ساعد على تقدم الصناعات والحرف المصرية فى هذا العصر ، وهى صناعات كانت تقوم أساساً على تحويل مسود أولية محلية إلى منتجات صناعية لإثباع السوق المحلية التى ازدهرت هى الأخرى فى هذا العصر . كما ساعد على تقدم الصناعات التحويلية ما بذلته الدولة من جهود لتوفير المواد الأولية خاصة من المعادن . كما أن زيادة صلات مصر بالدول المجاورة سهل عليها مهمة الحصول على المواد الأولية الضرورية للصناعة ، والتى كانت مصر تفتقرها مثل الأخشاب الجيدة .

ويلاحظ أن بعض وثائق هذا العصر ، تدل على زيادة تدخل الدولة فى الصناعات الاستخراجية وبعض الصناعات التحويلية ، وخاصة صناعة الذهب . إذ كانت هذه الصناعة تخضع لإشراف دقيق ، وكان العاملون بها يعتبرون من موظفى الدولة . لهذا فإننا نسمع بين موظفى الملك عن " المشرف على صهر الذهب " أو " المشرف على الصياغ" (٢) .

(١) نعيم مىخائيل ، المرجع السابق ذكره ، ص ٤٩٤ - ٥١٩

(٢) عبدالمعزم أبوبكر ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤

وهذه كلمة موجزة عن أهم الصناعات الاستخراجية والتحويلية في هذا العهد :

١/٣ - الصناعات الاستخراجية :

تعرضت الصناعات الاستخراجية لإهمال كبير في العصر الوسيط الأول ، نظراً للظروف غير الملائمة التي سادت في هذا العصر ^(١) . أما في عهد الدولة الوسطى ، فقد نالت هذه الصناعات اهتماماً بالغاً ، وعمل ملوك الدولة الوسطى على إرسال بعثات التعدين لاستخراج الذهب والنحاس والأحجار المختلفة ، من مقاجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء وأسوان ووادي الحمامات وتل العمارنة . وكان لاستخراج الذهب أهمية خاصة في هذا العصر ، وكان هذا من بين الأسباب التي دفعت ملوك الدولة الوسطى للاستيلاء على مناجم الذهب في النوبة ، حتى نجحوا في ضم النوبة نهائياً إلى مصر في عهد "سنوسرت الثالث".

وقد تقدمت خلال هذا العصر طرق صهر المعادن ومزجها ، فعرفت طريقة مزج النحاس بالقصدير لإنتاج البرونز ، الذي كان أفضل من النحاس لصلابته وسهولة صبه في قوالب .

ويبدو أن استخراج المعادن، كان احتكاراً حكومياً، أو خضع على الأقل لتدخل الدولة المباشر، نظراً لأن الظروف التي كانت سائدة في الكثير من الأماكن النائية، حيث تستخرج المعادن، لم تكن ملائمة للمبادرة الفردية . إذ لم يكن في مقدور الأفراد توفير الأمن والطمأنينة للعاملين في استخراج المعادن والأحجار في تلك المناطق .

٢/٣ - الصناعات التحويلية :

تقدمت الحرف والصناعات التحويلية عموماً خلال هذا العصر ، كما تقدمت طرق الإنتاج والمنتجات . وتدل بعض آثار هذا العصر ، على أن بعض الصناعات الدقيقة ، وخاصة صياغة الذهب ، قد وصلت إلى حد الإعجاز .

وهذه كلمة موجزة عن أهم الحرف والصناعات التحويلية في عهد الدولة

الوسطى :

(١) محمد جمال حنار ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

١/٢/٣ - الصناعات المعدنية : ومن أهمها صياغة الذهب والفضة والذهب الأبيض ، وصناعة البرونز وبعض الأدوات المعدنية التي كانت تستعمل فى المنازل ، أو كأدوات إنتاج فى مجالات أخرى كالصناعة والتجارة والزراعة مثلا .

وقد وصلت صياغة الذهب لدرجة من التكامل الفنى النادر فى كل العصور . فقد استطاع الصانع المصرى ، أن يصنع رقائق من الذهب ، كان سمكها يتراوح ما بين ١٧٪ و ٥٠٪ من المليمتر . بل لقد وجدت رقائق كان سمكها ١٪ من المليمتر^(١) . ونشاهد نفس الدرجة من الإعجاز الفنى فى بعض الحلى الذهبية والتيجان الذهبية التى وجدت فى اللاهون بالفيوم ، وهى ترجع إلى نفس العصر . هذا وقد تقدمت طرق تلوين الذهب وأيضا صناعة الفضة والذهب الأبيض .

وقد ساعد على تقدم هذه الصناعة وفرة المادة الخام ، والمهارات البشرية الفائقة . هذا فضلا عما أولاه الملوك لهذه الصناعة من رعاية وتشجيع دائب . إذ كان الملوك يقدمون مكافآت لمن يتميز فى هذه الصناعة . ويبدو أن الملوك كانوا يلحقون ببلاطهم صياغا يعملون كموظفين لديهم ، إذ نسمع بين موظفى القصر عن " المشرف على صهر الذهب " و " المشرف على الصياغ " . كما سبق أن ذكرنا .

ونلاحظ أن صياغة الذهب ، قد انحصرت فى عائلات معينة ، يتوارث أفرادها هذه الحرفة جيلا بعد جيل . الأمر الذى ساعد على اكتسابهم خبرة وكفاءة عالية فى هذا الفن .

وقد اكتشف البرونز فى عهد الدولة الوسطى . وكان يستخدم على نطاق محدود فى صناعة التماثيل الصغيرة . وقد تقدمت طريقة صناعة هذه التماثيل بشكل ملحوظ ، إذ كان المثال يبدأ بصناعة التمثال الذى يريده من شمع العسل ، ثم يغطى الشمع بطبقة من الطين . وبعد أن يجف الطين يذاب الشمع ، ثم يصب البرونز فى قالب الطين للحصول على التمثال المطلوب^(٢) .

(١) ليس هناك ما يقطع بصحة هذا

(٢) عبد النعم ابو بكر ، المرجع السابق ، ص ٤٥٧ ونورت عكاشة ، المرجع السابق ، ص ٦٢٩ - ٦٢٨ و ص ١٠٤٣ -

٢/٢/٣ - الصناعات الغذائية : وكان من بينها وأقدمها صناعة الجعة والتبيض والزيوت النباتية من الخردل والخروع والخس والزيتون . ولا بد أن هذه الصناعات قد تقدمت نظرا لزيادة حجم الطلب المحلي، مع ازدهار الأحوال الاقتصادية في هذا العصر.

٣/٢/٣ - الغزل والنسيج والحصر والحبال : وهي من أقدم الصناعات المصرية. وعلى الرغم من أنها لم تتقدم كثيرا وظلت عملية النسيج بسيطة للغاية بالمقارنة بالمستوى الذي ارتقت إليه خلال عصر الدولة الحديثة ، إلا أن اثار هذا العصر تدل على أن عمال هذه الصناعة كانوا من التساجين المبدعين . وقد تنوعت منتجات الغزل والنسيج ، خاصة غزل ونسيج الكتان ، وتدل وثائق هذا العصر على سيطرة العمل النسائي على صناعة الغزل والنسيج^(١).

٤/٢/٣ - صناعة الجلود : تقدمت هي الأخرى وتنوعت وكثرت منتجاتها التي كانت تستعمل في الاستعمال الخاص ، كالأحذية وفي المنازل كالمقاعد وفي بعض الصناعات كصناعة المركبات وغيرها . ولكننا لا نعرف حتى الآن ، طريقة دبغ الجلود في الدولة الوسطى .

٥/٢/٣ - صناعة المنتجات الخشبية : لم تتقدم كثيرا نظرا لرداءة الأخشاب المحلية . ورغم ذلك فقد نجح عمال هذه الصناعة ، على الرغم من بساطة أدوات الإنتاج التي كانوا يستخدمونها، في تطوير المادة الخام المحلية وتكييف طرق الإنتاج بما يلزم أغراضهم .

وخلال هذا العصر ظهر أو تقدم فن الحفر على الخشب ، وتطعيم الخشب بالعاج والأينوس والذهب . كما ظهرت صناعة " الأبلحاج " ، إذ وجدت بين آثار هذا العصر قطعة من الخشب مكونة من ست طبقات .

وكانت هذه الصناعة تعتمد على البلدان المجاورة ، وخاصة في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط والشاطئ الإفريقي الشرقي ، للحصول على حاجتها من الأخشاب الجيدة، مثل الأينوس والزان والآرز .

١ - كانت هذه الحرفة تاول في مكان ملحق بالدار تعمل فيه طائفة من النساء، عبدالعزیز صالح، الشرق الأدنى القديم، - - - ذكره، ص ١٧٧.

ومن أهم الأسباب التي ساعدت على تقدم هذه الصناعة ، انتشار استخدام المعادن في صناعة أدوات الإنتاج المستخدمة في صناعة المنتجات الخشبية .

٦/٢/٣- صناعة الورق : وهي من أقدم الصناعات التي اشتهرت بها مصر الفرعونية . وقد تقدمت هذه الصناعة خلال هذا العصر إلى حد بعيد ، كما ظهرت صناعة الخشب المقوى . ومن المعروف أنها اعتمدت على البردي الذي وجد بوفرة في هذا العصر .

٧/٢/٣- صناعات الفخار والزجاج والقيشاني : تقدمت هذه الصناعات وتنوعت منتجاتها. ويلاحظ أن صناعة الفخار بصفة خاصة قد تقدمت ، نظرا لوفرة المادة الخام والمهارات البشرية التي ارتقت على مر العصور ، بعد أن عرفت مصر هذه الصناعة منذ فجر التاريخ . وقد سبق أن رأينا أن بعض سكان الجزر قد عرفوا في عصور ما قبل التاريخ " بشعب الفخار الملون " ، نظرا لمهارتهم الفائقة في صناعة الفخار في عصر لم تكن قد اكتشفت فيه بعد عجلة صانع الفخار .

أما صناعات الزجاج والقيشاني : فلم تتقدم كثيرا ، كما أننا لا نعرف حتى الآن طريقة صناعة الزجاج في هذا العصر ^(١).

٨/٢/٣- صناعة السفن والقوارب : تقدمت وزاد إنتاجها ، وقد ساعد على ذلك رواج التجارة الخارجية والداخلية في هذا العصر . وقد وجدت بعض آثار هذه الصناعة في بعض الأماكن على ساحل البحر الأحمر .

٩/٢/٣- صناعة الأسلحة : تنوعت وارتقت هي الأخرى ، وخاصة في عصر الأسرة الثانية عشرة، التي اشتهرت بأعمالها العسكرية من أجل تأمين حدود مصر ، ونشر نفوذها في البلاد المجاورة ، وخاصة في عهد " سنوسرت الأول " الذي أنشأ أول جيش منظم عرفه التاريخ ^(٢) .

(١) كان هناك اعتقاد أن صناعة الزجاج من ابتكار المينيين، ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أن المصريين سبقوا شعوب الأرض في ذلك، حين اعتدوا إلى عناصر الزجاج في وادي الصحراء، أنظر في ذلك عماد جمال الدين عثمان وهري وياسر وعبدالعزير صادق، مصر وحضارات العالم القديم، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٩٥-١٩٩٦، ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق ذكره ، ص ٤٥٤ - ٤٨٩ . وعبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، ص ١٨٤ - ١٩٣ .

ويبدو أن عمال الصناعة والحرفيين كانوا يحبون حرفهم ، إذ نجد الكثير من الصور التي تصور العمال في حالة سرور وبهجة يتبادلون النكات خلال العمل ، وكثيرا ما كانوا يستمعون إلى الموسيقى أيضا .

ومما لا شك فيه أن كفاءة وخبرة العمال في بعض الصناعات ، قد وصلت إلى حد الإعجاز ، وخاصة بعد أن عرفوا مع الزمن ، خصائص وأسرار المواد الخام التي كانوا يستخدمونها .

ويلاحظ أن الحرف كثيرا ما كانت وراثية ، الأمر الذي أدى إلى احتكار عائلات معينة لبعض الحرف . ولكن لم يكن هناك ما يحول من الناحية القانونية ، دون انتقال العامل من صناعة إلى أخرى .

ولم يكن عمال الصناعات والحرف عموما أكثر حظا من فلاحى الأرض ^(١) . ولكن يلاحظ في نفس الوقت ، أن عمال بعض الصناعات الدقيقة مثل صناعة الذهب كانوا يتمتعون بمركز ممتاز ، ويلقون رعاية بالغة ، ومساعدات كثيرة من الملوك .

٤- التجارة الداخلية والخارجية :

كذلك ازدهرت في عهد الدولة الوسطى تجارة مصر الداخلية والخارجية ، التي عمل الملوك على تشجيعها وتوفير المناخ الملائم لنموها . فقد عملوا على نشر الأمن في كل أرجاء البلاد ، وأقاموا المحطات والمخازن التجارية ^(٢) والكثير من التحصينات على حدود مصر الشرقية والغربية والجنوبية ، لتسهيل تجارة مصر الخارجية مع الأمم المجاورة . كما نجحوا في نشر نفوذ مصر في البلاد المتاخمة ، وخاصة مناطق النوبة والسودان وبلاد بونت والساحل الفينيقي وسورية والعراق وإيران والأناضول وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص وكريت ،

(١) سبق أن رأينا أن آثار مدينة "كامري" أو اللاهوت بالهجوم تدل على أن عمال الصناعة كانوا يعيشون في بيوت وصغيرة كما تدل على تفاوت صارح في توزيع الثروة والدخل بين الطبقة الارستقراطية وطبقة العمال في هذه المدينة . إذ شام الساحة المحيطة ببناء ٢٠٠ أو ٢٥٠ منزل من منازل العمال ، روع المساحة الكلية للمدينة . أما الباقي فقد حصص لبناء عدد محدود من القصور للنبلاء ورجال البلاط . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، عند العرض صنالح ، الأرض والعلاج في مصر . الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ٥٩ - ٦٨ وحاشية رقم (٤٠) .

(٢) مثل المراكز التجارية التي سبقت في عهد الأسرة الثانية عشر عند بلدة كومه في شمال السودان .

خاصة في عهد " سنوسرت الثالث " و " إمنمحات الثالث " ^(١) . كذلك زادت صلة داخل البلاد بالواحات . وكانت الواحات تتميز بإنتاج بعض السلع الجيدة ، مثل الخمور والزيوت والأملاح المعدنية (النظرون) التي كانت تستخدم في التحنيط ، كما كانت مصر تستعين بعمال إقليم الهلال الخصيب في استغلال الفيروز في شبيه جزيرة سيناء ^(٢) .

وخلال هذا العصر ، زادت صلات مصر بالخارج واتسع نفوذها ، لأنها كانت أقوى أمم الشرق القديم وأكثرها ثقافة في هذا العصر ، خاصة أيام الأسرة الثانية عشرة ، حيث كانت الجاليات المصرية تقيم في سورية وفلسطين . كما سمحت مصر لأهل الشام بالعمل في مصر .

ومن المعروف أن مصر كانت تعتمد على الخارج في الحصول على بعض السلع التي كانت تقتقر إليها ، مثل الأخشاب الجيدة والفضة والمعادن والأحجار الكريمة والزيوت . كما كانت تصدر للخارج الكثير من منتجاتها مثل الورق والأواني والمنسوجات والمصوغات ^(٣) .

هذا ، وقد أسفرت الجهود السابقة وتقدم الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي ، عن نهضة اقتصادية بعيدة المدى ، أدت إلى انتشار العمران وتحسن مستوى معيشة السكان وزيادة عددهم .

ولعل ما سبق ، يفسر لنا ، إصرار بعض المؤرخين على تسمية عصر الدولة الوسطى ، بعصر الرخاء الاقتصادي والتنمية الاقتصادية .

(١) أحمد محري ، المرجع السابق ، ٢١١ ، ٢٣٠ - ٢٣١

(٢) عماد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ - ٢٩٨ ، وعبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، ص ٢٠٠

(٣) عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، حتى ١٩٣ - ٢٠٠ .

المبحث الثالث

النظم الاجتماعية والاقتصادية

رأينا أن المجتمع المصرى فى عهد الدولة القديمة قد انقسم أساسا إلى طبقتين: الطبقة الأرستقراطية وطبقة العامة . وأن الملك الإله ، كان قمة التنظيم الاجتماعى ، يسعى الجميع إلى كسب رضاه وعطفه . ويعيشون فى ظله مخلصين . كما رأينا كيف هزت ثورة العصر الوسيط الأول المجتمع من جذوره وكادت تدمر كل شئ ، وكان عصر الدولة الوسطى هو العصر الذى نعم بثمار الثورة الاجتماعية .

لقد هزت الثورة الاجتماعية فكرة ألوهية الملك . ونزل الملوك إلى مستوى البشر ، وعرف هذا العصر بعصر الملوك المصلحين الشرعيين ، وعصر القوانين العادلة التى تسرى على الملك والشعب معا .

أما حكام الأقاليم ، فقد اهتزت أيضا سلطاتهم ، يل وتحولوا فى أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة ، إلى مجرد موظفين لدى الملك ، ولكنهم لم يعودوا إطلاقا خدما أو تابعين له ، كما كان عليه الحال أيام العصر الذهبى للدولة القديمة .

وفى نفس الوقت ، شهد عصر الدولة الوسطى ظهور طبقة وسطى ، تكونت أساسا من بعض صغار الموظفين وأعيان البلاد . كما نسمع عن وجود " عبيد " جاءوا من خارج مصر .

ويرى البعض أن العامة قد أصبح لهم ، ابتداء من عهد الدولة الوسطى ، حق تولى المناصب العامة . ويعتمد هذا رأى على كثرة المقابر الكبيرة التى أقامها العامة أسوة بالكهنة والأشراف ، الأمر الذى يعنى أن العامة قد أصبح لهم حق فى الخلود ، كالأشراف سواء بسواء . كما يدعم هؤلاء رأيهم بأن الثورة الاجتماعية قد حطمت القيود التى فرضها الإقطاع على الشعب ، وخلصت الشعب من ربطة التبعية وأعادت للفرد حريته . وينكر البعض هذا رأى ويعتقدون أن تحقيق المساواة الدينية فى عصر الدولة الوسطى ، لا يعنى بالضرورة تحقيق المساواة السياسية ، ولا يعنى بالضرورة أن العامة أصبح لهم حق تولى المناصب العامة .

ونميل إلى ترجيح الرأي الأول ، لأنه الأكثر اتفاقا مع روح عصر الدولة الوسطى ، العصر الذى شهد نزول الملوك إلى مستوى البشر ، كما شهد انهيار تركيز السلطة فى شخص الملك ، كما كان عليه الحال فى عهد الدولة القديمة ، كما أنه العصر الذى تولى فيه عرش مصر ، رجل عصامى النشأة ولد فى الصعيد لأم من النوبة .

ولكننا نرى أيضا أن فكرتى المساواة الدينية والسياسية قد اهتزتا فى أواخر عهد الدولة الوسطى ، نتيجة تزايد سلطان الملوك العتاة ، مثل " سنوسرت الثالث " ، الذى أصبح إلهما أو كاد . ونسى الملوك التجربة المريرة الدامية ، التى عاشوها أسلافهم خلال العصر الوسيط الأول ، حيث أودت الثورة بالعرش وصاحب العرش وأتباع صاحب العرش ، ودمرت قصورهم وحتى قبورهم وأشلاءهم ، وألقت بهم ونسائهم وأبنائهم فى عرض الطريق ، لا يجدون ما يستتر عوراتهم أو فتات العيش ليسدوا رمقهم .

وقد شهد عصر الدولة الوسطى أيضا ، ظهور نظام اقتصادى جديد بظهور المجالس الطائفية والحرفية . وكانت المجالس مكونة من أعضاء الطائفة أو الحرفة ، بقصد الدفاع عن مصالح الطوائف أو الحرف التى تمثلها .

وكانت الطائفة عبارة عن هيئة تجمع بين أفراد المهنة الواحدة . فهناك طائفة الفلاحين وطائفة الصناع وطائفة الكهنة وطائفة الجنود . وقد رأينا أن المهن كانت تورث بحكم العادة والظروف الاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك مانع قانونى يحول دون احتراف الشخص مهنة أو حرفة جديدة كما سبق أن ذكرنا .

وكانت هذه المجالس تنظر فى شئون الطائفة ، وتساعد الموظفين الإداريين على التعرف على رغبات الحرفيين ومشكلاتهم ، وتنظر فى شكايات الموظفين ضد رؤسائهم . فضلا عن هذا ، فقد كانت هذه المجالس تتولى التوفيق فى المنازعات التى تحدث بين أفراد الطائفة . وكان لكل طائفة رئيس ومراقب يقومان بالفتيش عليها .

ويشبه هذا النظام، إلى حد ما، نظام الطوائف الذى عرفته أوروبا فيما بعد ، ولكنه لم يكن نظاماً مغلقاً مثل النظام الأوروبى .

لقد جعل نظام الطوائف للدولة حق الإشراف والرقابة على شئون العمال والزراع ، الأمر الذى دفع بعض الباحثين إلى القول بأن مصر عرفت فى عهد الدولة الوسطى ، نظاماً اشتراكياً " يشبه إلى حد كبير ، النظام الاقتصادى المعروف باسم اشتراكية الدولة ^(١) . ويقوم هذا رأى على أن نظام الطوائف جعل للدولة حق الرقابة على شئون العمال والفلاحين . ونظراً لأن الدولة كانت تقوم بمهمة التوجيه والإرشاد للمنتسبين للطوائف ، وأن حق الرقابة والتوجيه ، كان يقوم على أساس اعتقاد الدولة أن كل من يحترف مهنة ما ، إنما يقوم بوظيفة اجتماعية ، الأمر الذى يفرض على الدولة أن تحدد فى وضوح حقوق والتزامات كل من الزارع والعامل .

ويرى أصحاب هذا رأى ، أن هذه النزعة "الاشتراكية" تبدو أكثر وضوحاً فى مجال الزراعة ، حيث كانت الدولة تقوم بتقسيم الأراضي الزراعية إلى مساحات متساوية وتوزيعها على الأسر . وكان رب الأسرة ، أو من يحل محله ، يعتبر مسئولاً أمام الدولة عن زراعة نصيب الأسرة من الأرض ، كما كان مسئولاً عن التبليغ سنوياً عن عدد أفراد الأسر التى زاد عدد أفرادها . إذ كانت الدولة تعطى الأسرة قطعة جديدة من الأرض فى مثل هذه الحالة . وكذلك إذا أغرق الفيضان القطعة التى كانت ممنوحة لها ، أو إذا لم يصل هذه القطعة ماء النهر . كذلك كانت الدولة تحرم الأسرة من الأرض الموزعة عليها ، إذا ما ثبت إهمالها أو تقصيرها فى زراعتها .

وتظهر نفس النزعة "الاشتراكية" عند تحصيل المالك الضريبة المقررة على الأرض . إذ كان المالك يعفى المزارعين من جزء من الضريبة ، يتناسب مع ما أصاب الأرض من نقص فى المساحة بسبب النهر ، وذلك حتى تتكافأ الضريبة المحصلة مع

(١) من أهم أصحاب هذا رأى: G. C. , Paris 1934, *Un Socialisme d'Etat, Quinze siècle avant* , S. Dantines.

ورد فى السقا ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ حاشية رقم (١).

ما تبقى من الأرض الموزعة على الأسرة ^(١) . كذلك كانت الدولة تراعى عند فرض الضرائب على ثروة الفرد حالة الفيضان ، الأمر الذى استلزم حصر أملاك الأفراد وتسجيل مستوى ماء النهر . هذا فى حين اتسم العصر الوسيط الأول بالظلم فى جباية الضرائب ، وكيف كان جباة الضرائب " يكيلون حتى يطفح الكيل " ^(٢) .

ويعترض فريق آخر من الكتاب على هذا رأى ، ويرون أن النظام الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الدولة الوسطى هو نظام الاقتصاد الموجه ، وأنه كان بعيدا كل البعد عن اشتراكية الدولة ، لأن الأفراد كانوا يتمتعون بحرية واسعة فى مزاوله النشاط الاقتصادى .

فعلى الرغم من أن الدولة لم تترك الزارع وشأنه ، إلا أنها لم تأخذ على عاتقها مهمة الاستغلال الزراعى حيث يعمل الفلاح بأجر تدفعه الدولة ، بل كان الفلاح هو الذى يقوم بالاستغلال وبيع الضريبة للدولة ، ويأخذ فائض الإنتاج الزراعى . ولكن لا يمكن أن نعتبر هذا الفائض أجرا ثابتا ، بيدر القول بأن الفلاح كان أجيرا يعمل لحساب الدولة ، أو بأن النظام الاقتصادى الذى كان سائدا فى هذا العصر ، يمثل صورة من صور اشتراكية الدولة ، ذلك لأن مقدار الفائض للفلاح بعد دفع الضريبة يتوقف على عوامل كثيرة من بينها ما يقوم به الفلاح من جهد ، وما يبذله من رعاية لأرضه . فضلا عما سبق ، فإن الدولة لم تكن تحل محل الأفراد فى كافة فروع الإنتاج الأخرى ، بل كانت تكتفى بتوجيه الفرد بما يكفل تحقيق مصلحة المجتمع ، وتوفير له من العمل ما يكفى حاجته ^(٣) . وتبرير ذلك هو أن الدولة كانت تعتبر الزارع يقوم بوظيفة اجتماعية . ولهذا كانت الدولة تعوض الفرد عما أصابه من خسارة بسبب كارثة طبيعية ، أو إذا طغى الفيضان على الأرض التى يزرعها . ويبدو لنا أن " الماعت أو العدالة ، الأصيلة فى وجدان مصر ، كانت دائما وراء هذه النزعة .

(١) السقا ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) عبد المنعم أبو بكر ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ، ويجب ملاحظة ، المرجع السابق ص ٥٠٠ .

(٣) ولكن على الرغم من ذلك فإن كثيرا من الوثائق تشير إلى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى فى هذا العصر ، ومن الأمثلة على ذلك التعدين وبعض الصناعات التحويلية مثل صناعة النسيج ، أو السمن ، وقد سقت الإشارة إلى ذلك

ونرى أنه من الضروري لتقدير وجهات النظر السابقة ، أن نناقش مسألة أخرى هي مشكلة الملكية الفردية في عهد الدولة الوسطى .

يرى بعض الباحثين أن الملك كان المالك الوحيد للأرض الزراعية ، وأن الأفراد لم يكن لهم حق الملكية الخاصة . لقد وجدت الملكية الفردية في عصر الدولة القديمة ، وكان حق الملكية حقا مطلقا ، يتضمن كل عناصر هذا الحق من استعمال واستغلال وتصرف . ولكن في أواخر عهد الدولة القديمة ، أدى استبداد الملوك إلى استحوادهم على جميع الأراضي ، أي أصبحت الأرض كلها مملوكة للملك ، ولم تعد الأرض ابتداء من عصر الأسرة الخامسة ، من بين عناصر الثروة الفردية . وقد استمر هذا الوضع قائما في عصر الدولة الوسطى .

ويعترض بعض الكتاب على الرأي السابق ، ويدعون أنه حتى في عهد الإقطاع لم تكن ملكية الأرض الزراعية خالصة للملك وحده ، وأن إغفال ذكر الأرض ، كعنصر من عناصر الثروة الفردية ، إنما يرجع إلى أن الملوك في العهد الإقطاعي ، كانوا يعفون ممتلكات المعابد والأرض المقطعة من الضرائب . هذا علما بأن الملوك قد توسعوا في آخر عهد الدولة القديمة ، في منح هذه الاقطاعيات ، الأمر الذي أدى إلى كثرة الأراضي المعفاة من الضرائب .

وحتى لو سلمنا بأن ملكية الأراضي الزراعية كانت خالصة للملك وحده ، فيجب ملاحظة أن هناك فارقا جوهريا بين ملكية الملك للأرض في تلك العصور ، وملكية الدولة أو الملكية العامة للمجتمع ، في النظم الشيوعية والاشتراكية .

ففي العصر الفرعوني ، لم يكن للدولة شخصية معنوية مستقلة عن شخصية الملك ، بل كان الملك هو الدولة . لهذا ، فإن ملكية الملك لجميع الأراضي كانت ملكية خاصة خالصة له .

فضلا عن هذا ، فإن القول بملكية الملك لجميع أراضي مصر في كل العصور ، إنما كان يعنى ملكيته لها من الناحية النظرية ، أو كان ينصرف إلى ملكية الرقبة من

الناحية النظرية ، فى حين كان حق الانتفاع بالأرض حقا خالصا للأفراد أو المعابد أو الآلهة .

أما فى عصر الدولة الوسطى ، فقد عادت للملكية الفردية قوتها ، كما هو ثابت فى كثير من وثائق العصر ^(١) . ونحن نميل إلى تقبل هذا الرأى ^(٢) .

نخلص مما سبق ، إلى أن النظام الاقتصادى الذى ساد فى عصر الدولة الوسطى ، باستثناء الفترة المتأخرة من حكم الأسرة الثمانية عشرة ، إنما يمثل صورة من صور الاقتصاد الموجه ، الذى يقوم على تدخل الدولة فى كثير من أوجه النشاط الاقتصادى ، لتحقيق أهداف معينة .

ويتضح مما سبق ، أن هذه الأهداف قد تباينت فى طبيعتها . بعبارة أخرى لم تكن هذه الأهداف دائما ولبدة الرغبة فى تحقيق فلسفة معينة ، يسعى النظام الاقتصادى إلى تحقيقها . فمثلا كان قيام الدولة بإرسال بعثات للتعدين ، يرجع إلى عجز الأفراد عن القيام بهذا النشاط ، نظرا للظروف القاسية التى سادت فى مناطق التعدين ، وكثيرا منها كانت مناطق نائية وغير آمنة . وأحيانا كان تدخل الدولة سببه رغبة الملوك فى الارتقاء بصناعة معينة لأسباب شخصية بحتة ، مثل تدخل الملوك فى صناعة الذهب ، والتى كانوا يولونها عناية خاصة ، حتى يمكنها أن توفر لهم منتجات راقية ترضى نوقهم ومزاجهم الخاص . وأحيانا كان تدخل الدولة سببه الرغبة فى زيادة الإنتاج ، كما هو الحال فى تدخل الدولة فى المجال الزراعى . واكن هناك أمثلة لتدخل الدولة بغية تحقيق نوع من الرعاية الاجتماعية ، أو العدالة

(١) و (٢) يستند الرأى الذى ينمى وجود حق الملكية الفردية فى عهد الدولة الوسطى ، على بصوص غامضة لا يمكن أن تكون دليلا قاطعا على صحة هذا الرأى . هناك من يقول إن الملك قد تكفل فى هذا العصر بزراعة جميع الأراضي ، وهذا قد يعنى أن الملك يرعى الزراعة ، كما أن عملية الحرق كانت أصلا مسئولية الفرد ، ولظروف خاصة تدعى إحكام "اميسى" لتحمل هذه المسئولية ، وقد سبق دراسة هذا النص ، أما النص القائل بأن ميدنا يوسف ، قد اشترى كل الأرض من المزارعين لصالح الهرعون (سحر التكوين ، الإصحاح السابع والأربعين) ، إنما يدل على أن الأرض كانت أصلا مملوكة للأفراد . فضلا عن هذا ، فإن وثيقة سيدنا يوسف تتخصص فى موضوع آخر قور المزارعين "لم يبق لتأشسى إلا أنفسهم وأرضهم" . أما الرأى المخالف ، فهناك وثائق واضحة تؤكد ، ومنها الوثائق التى تسجل تصرفات بين الأفراد حول أرض زراعية ، كما تؤكد هذه الوثائق أن هذا الحق كان مطلقا . انظر ، السقا ، المرجع السابق ، ص ٣١٣ - ١٣٦ ، وشعيق شحاته ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

الاجتماعية ، كما هو الحال فى تقسيم الاراضى الزراعية بين الأسر بالتساوى ، وتعويض الأسرة عن الأرض التى أغرقتها مياه النهر، أو زيادة نصيبها من الأراضى وإنقاصه ، تبعاً لما يطرأ من تغير فى عدد أفراد الأسرة . فضلاً عن هذا ، كانت الدولة تراعى اعتبارات متعلقة بالعدالة عند فرض الضريبة على الأفراد . ولا شك أن فى كل ما سبق تأكيداً لمدى استقرار فكرة العدالة أو "الماعت" فى ضمير ملوك مصر ، عبر كل تاريخها، كما أكدنا مراراً^(١). بل لقد بلغ الأمر حد تقديس وعبادة "الماعت" ، باعتبارها إلهة ، كانت تسمى "ابنة رع" و "سيدة السماء" وأحياناً "حاكمة القطرين" . أما القول بأن هذا النظام كان يمثل صور اشتراكية الدولة، فإننا نعترض عليه للأسباب الآتية :

١- لقد وجدت الملكية الفردية فى هذا العصر ، كما اكتملت لها كل عناصر الحق المطلق ، وليس صحيحاً أن الملك كان المالك الوحيد للأراضى الزراعية . ويصدق نفس رأى على أوجه النشاط الاقتصادى الأخرى .

٢- أن النشاط الاقتصادى فى هذا العصر ترك أساساً ، فى كل صورته للمبادرة الفردية، وأن الأفراد كانوا يتمتعون بحريات واسعة عند قيامهم بالنشاط الاقتصادى .

٣- على الرغم من تزايد تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، فإن الهدف الرئيسى لهذا التدخل لم يكن تحقيق الاشتراكية بمفهومها المعاصر، كما أنه لم يصل إلى حد افتراض الدولة مسئولية الاستغلال الزراعى أو الصناعى أو التجارى اعتماداً على عمال أو موظفين يعملون لديها فى مقابل أجر ثابت . هذا ، وإن كنا لا ننكر وجود الكثير من المشروعات العامة فى هذا العصر .

ولكن مما لا شك فيه أيضاً، أن ثورة العصر الوسيط لم تذهب كلها هباء. إذ يتضح مما سبق أن مسائل العدل الاجتماعى ورعاية الدولة للفرد، قد بدأت تترك بصماتها على السياسة الاقتصادية للدولة. هذا وإن كنا نعتقد أن العهد المتأخر من

١- مقرر لمزيد من التفصيل حول تأثير العوامل الاجتماعية على الدين وظهر المصلح الاجتماعى فى مصر المرومية .

عصر الدولة الوسطى، يمثل عودة إلى عصر ما قبل الثورة الاجتماعية. لقد بدأت فكرة حقوق الفرد تضمحل، وعادت فكرة ألوهية الملك، وأصبحت مصر على حد تعبير جاردنر، وهو من أعظم علماء "المصريات" في عصرنا، دولة إقطاعية كما لم تكن من قبل أو من بعد !!!^(١).

وهكذا نسي قراثة مصر مرة أخرى ، التجريبية الدامية التي طحنت أسلافهم عندما تقاعسوا عن مسئوليتهم نحو رعاياهم ، وامنعوا في القسوة والظلم عليهم ، حتى جعلوهم يتطوون على أنفسهم ، ينسجون من مواردهم الروحية ، الأمل في الخلاص ، بعد أن جعلهم الملوك يعيشون غرباء في بلادهم ، لا يعرفون من مظاهر الحياة إلا وجود مادي ، هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة !!! .
وهكذا تهيأت الظروف لكي يعم الظلام مرة أخرى مع جحافل "الهكسوس" .

١- انظر ما ذكره الكاهن " جمع خبر رع - سير " عن مدى تدهور الأوضاع الاجتماعية وانتشار الظلم وتفشى السواح والأجرام ، في كتاب برستيد الذي سبق ذكره ، ص ٢٨٣-٢٨٦ . إن قراءة ما ذكره هذا الكاهن مارالت ، تشير في النفس إحساساً دائماً اسوداً على الرغم من أنها كتبت منذ نحو أربعة آلاف عام ، أي في أواخر عصر الدولة الوسطى (عيسى بن عيسى ١٩٠٦ - ١٨٨٧ قبل الميلاد) وهذه مقتضعات منها :

" إني أتأمل في الأشياء التي حدثت ، الحوادث التي وقعت في البلاد . إن التحولات تسير قدماً ، يس على مثال السنة الماضية والسنة أنقل عيشاً من الأخرى الاستقامة بذت خارجاً ، والجور يوجد في وسط ردهة المجلس . إن خطط الألهة تنتهك ، وتصاريفهم يحس النظر عنها . إن البلاد في حزن ، واحدهم في كل مكان ، والبدان والأفاليهم في نواح . إن كل الناس ، على السواء ، يرحلون تحت مظلم ، أما على الاحرام ، فقد وضعت له نهاية . أن أسياؤا الخدوء ألقوا ، إن صباحاً يجيء كل يوم ويرجع مرة أخرى إلى ما (سبق) أن كان . عندما أريد أن أتحدث (عنه) فإن أعصائي تقع تحت عبء ثقل . فقد ألم بي حزن بسبب قلبي . إنه محبة لألم أن أسكت عما يتصل به . إن قلباً آخر ، كان ليتوء تحت العبء (ولكن) قلباً جسوراً في الخبط هو رفيق سيده . كنت أرجو أن يكون قلب قادراً على أن يتحمل " .
" .. . إن الأرواء تجيء اليوم وعداً لأنكون مرن (المرن) . كل الناس صامتون فيما يتبع به ، (مع أن) الأرض كلها في اضطراب عظيم . لا يوجد أحد يحاياً من السوء ، كل الناس على السواء يفعلونه . إن القلوب يستول عليها الحزن "

الفصل السادس

العصر الوسيط الثاني : محنة الهكسوس

(حوالي ١٧٧٨ - ١٥٧٥ قبل الميلاد الجديد)

تمهيد :

تستغرق هذه الحقبة ، والتي توضح المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط الثاني أو عصر الاضمحلال الثاني ، مدة من الزمان تزيد قليلا على القرنين ، تبدأ بنهاية حكم "الملكة سببكنفرو" ^(١) ، آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة ، حوالي عام ١٧٧٨ قبل الميلاد المجيد . هذا وينتهي العصر الوسيط الثاني ، حوالي عام ١٥٧٥ قبل الميلاد المجيد ، عندما نجح " الملك أحمس الأول " فى تحقيق أحلام أسلافه العظام وطرد "الهكسوس" " Hyksos " من مصر ، وأسس فى طيبة الأسرة الثامنة عشرة ، مؤرخا بذلك بداية "عصر الإمبراطورية" الذى يعرف " بعصر الدولة الحديثة " .

ويكتنف تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر الفرعونية ، الكثير من الغموض والمتناقضات ، نظرا لندرة الوثائق التاريخية التى يمكن الوثوق بها ^(٢) . وقد ترتب على ذلك وجود خلافات عميقة بين المؤرخين ، بصدد الكثير من المسائل الجوهرية الخاصة بهذا العصر ، مثل الأسباب التى أدت إلى انهيار " الأسرة الثانية عشر " ونهاية عصر الدولة الوسطى ، ومن هم الهكسوس ؟ ومتى وكيف تمكنوا من اعتلاء عرش مصر ؟ وكيف كانت العلاقة بينهم وبين أبناء مصر ؟ إلخ .

ونوجز فيما يلى السمات الأساسية للعصر الوسيط الثاني .

يشمل هذا العصر فترة حكم الأسرات من الثالثة عشرة حتى الأسرة السابعة عشرة ، وخلالها ساد مصر الفوضى والخراب والظلام ، وعانى أبناءها ظلم الأجنبي الدخيل المتمثل فى " حكم الهكسوس " .

Sebeknofra Or Sebeknofre

(١)

(٢) وعنى سبيل المثال : يعتمد المؤرخون فى دراسة هذه الحقبة على كتاب المؤرخ اليهودى "فلافيوس جوزيفوس" "Flavius Josephus" المعروف " بصند ابون " " Against Opon " ، والذى كتبه دفاعا عن بني جسه ضد ما كتبه العالم السكندرى " ابون " عن اليهود . ويشك الكثير من المؤرخين فى صدق " جوزيفوس " فيما ادعى انه نقله عن المؤرخ المصرى " مانيتون السكندرى " عن تاريخ العصر الوسيط الثاني . كذلك يشك بعض المؤرخين المعاصرين ، فى صدق بعض الوثائق المزعومة التى كتبت فى عصر الدولة الحديثة عن العصر الوسيط الثاني ، نظرا لاعتقادهم ان هذه الوثائق ، كانت تهدف للحقيقة رعية فى تجسيم بطولات وإيجاد ملوك "عصر الإمبراطورية" ويرى هؤلاء المؤرخون ، أن عصر الدولة الحديثة " قد شهد محاولات عديدة لتزييف وقائع التاريخ . انظر فى ذلك : Gandiner A. op- cit , 147 et seq.

ويشبه هذا العصر إلى حد كبير العصر الوسيط الأول . فكلاهما سبقه مجموعة من الملوك الضعاف ، التي كثرت في عهودهم دسائس ومؤامرات القصر والصراع من أجل اغتصاب عرش مصر ^(١) . الأمر الذي أدى إلى انهيار السلطة المركزية ، وزيادة سطوة ونفوذ كبار ملاك الأراضي والتبلاء وحكام الأقاليم ^(٢) ، ثم ضياع وحدة مصر السياسية في نهاية الأمر . وفي كلا العصرين تعرضت مصر لهجمات من الخارج ، جاءت من الشرق وشملت الدلتا ، بل وامتدت إلى الوادي حتى مصر الوسطى . وفي كلا العصرين كان خلاص مصر على يد أمراء " بيت طيبة " العظيم .

من الصعب على الإنسان أن يجد سبباً واضحاً مقتنعاً ، يفسر لماذا أخذ نجم الأسرة الثانية عشرة في الأفول ، وما أعقب ذلك من ضعف شامل تفشى في أرجاء البلاد ^(٣) . وقد فسر بعض الباحثين ما أصاب مصر من وهن ، بظهور أعداء لها في الشرق وفي الجنوب . ويميل البعض إلى افتراض أن ظاهرة الضعف ، إنما ترجع إلى كثرة الدسائس والمؤامرات والخلافات التي حدثت داخل " البيت المالك " ، حتى قطعت أوصاله ، وما ترتب على ذلك من عجز ملوك هذه الأسرة عن الحد من سلطة حكام الأقاليم ، الذين قوى نفوذهم واستقل كل منهم بالتصرف في إقليمه أو إقطاعيته ، كما لو كان ملكاً له ^(٤) . وقد أدى هذا في نهاية الأمر ، إلى انهيار الأسرة الثانية عشرة ^(٥) .

(١) عاصمة أيام الأسرة السادسة حيث قتل الخراس ملكهم "تتي الأول" ، كما كانت هناك محاولة لقتل "الملك بيسي الأول" أحد ملوك نفس الأسرة ، دبرتها زوجته . أما اسوء أيام العصر الوسيط الثاني ، فكانت أيام الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .

(٢) Horcht, H., op. cit., p. 129 - 130

(٣) عندما وجد المصريون أن جيوش بلادهم قد عجزت عن مقاومة الأحيى الدخول الذي احتل أرضهم ، استعانوا بالسحر لمواجهة الاعتقادهم أن الأحيى إنما استعان هو الآخر بالسحر لسحق بلادهم . انظر في ذلك : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٤) اسرف الملوك في العطايا للكهنة والتبلاء ، بدوى ، ص ٩ .

(٥) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

وقد تنازع حكم مصر بعد الأسرة الثانية عشرة ، الأسرتان الثالثة عشرة ، والتي حكمت من منف ، والأسرة الرابعة عشرة ، والتي حكمت من "سغا" في غرب الدلتا . وخلال هذه الحقبة اتهازت وحدة مصر السياسية . إذ الراجح أن هاتين الأسرتين قد حكمتا في وقت واحد ، كل منهما في جزء من مصر . بالإضافة إلى ذلك ، فإن بعض البيوت أو العائلات الكبيرة ، مثل "بيت طيبة" ، و "بيت قفط" ، و "بيت أسيوط" ، وغيرهم قد نازعوا الأسرتين "الثالثة عشرة" و "الرابعة عشرة" ، سلطة الحكم وانفرد كل منهم بالحكم في منطقة معينة^(١).

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الأسرة الرابعة عشرة تحكم من سغا في غرب الدلتا ، ظهر على مسرح الأحداث "الهكسوس" في شرق الدلتا . وهكذا تقطعت أوصال مصر ، حتى كتب لها الخلاص حوالي عام ١٥٧٥ قبل الميلاد الجديد . ولكن من هم "الهكسوس" ؟

الراجح أنهم جماعات يطلق عليها "الجنس السامي" ، جاءت أصلاً من أواسط آسيا ، واستقرت في فلسطين حقباً من الزمن ، ثم بدأوا في التسلل إلى شرق الدلتا أيام الأسرة الثالثة عشرة بحثاً عن لقمة العيش^(٢) . ومع الزمن ، ونتيجة لما أصاب مصر من ضعف ، قوى نفوذهم حتى بلغ حداً من القوة ، شجع أحد رؤسائهم على ادعاء عرش مصر ، وتأسيس عاصمة لهم في "أواريس" في شرق الدلتا^(٣) . وقد تمكن "الهكسوس" من السيطرة على كل الدلتا ، ثم امتد نفوذهم إلى الوادي حتى مصر الوسطى شمال "الإشمنونين" .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ - ٢٤٠ .

(٢) ربما كانوا أسرى من فلسطين أو أجرام حاربوا للعمل كخدم في مصر . انظر في ذلك : Gardiner, op., cit., p. 147 هذا وينسب المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" ، إلى أن "الهكسوس" كانوا يهوداً ، وكانوا ملوكاً ذوي سطوة وجاه وحساسة ومجد وتاريخ . ويقول هذا المؤرخ أنه قل ذلك عن "مانيون السمودي" ولكن يرى البعض أنه ليس هناك ما يؤكد أنه المؤرخ اليهودي نسباً بقيل بأمانة عن "مانيون" . أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ ، حاشية (٢) Gardiner, op., cit., p. 157 وكذلك :

(٣) من المسلم به الآن يرى الباحثين المعاصرين أن كلمة "الهكسوس" مشتقة من الكلمة المصرية "حقا حاسوت" التي كانت تطلق أيام الدولة الوسطى على حكام البلاد الأجنبية ، ولكنها لم تكن تشمل أفراد هذه المجموعات التي هاجرت إلى مصر وكان المصريون القدماء يطلقون عليهم اصطلاح "عامو" أي الاسيويون . وهذا الرأي هو رأي جاردنر ، ويقلبه معظم الباحثين المعاصرين . انظر في تفصيل ذلك : Gardiner, op., cit., p. 155-160 وكذلك : أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٥٩ وسيد توفيق ، معالم وتاريخ وحضارة مصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، طبعة ١٩٨٧ ، ص ٢٥١ - ٢٦٠ .

أولاً : الأحوال الاقتصادية والنظام الاقتصادي :

تكاد تجمع الوثائق الفرعونية وكذلك كثير من المؤرخين ^(١) ، القدماء والمحدثين ، على أن العصر الوسيط الثالى ، كان عصر فوضى وخراب وصراع على الحكم . ولقد لخص جاردنر وصف هذه الحال بقوله إن هذا العصر كان ^(٢) :

state of dire havoc and confusion.

وقد وصلت حالة البلاد درجة من الفوضى ، بحيث كانت بلا ملك ، أو يتنازع حكمها أكثر من ملك فى وقت واحد .

وقد أدى ذلك إلى تدهور أحوال مصر الاقتصادية إلى حد بعيد ، وأهملت الزراعة ونظم الري والحرف ، وانكمشت تجارة مصر بسبب الحروب الداخلية بين حكام الأقاليم المصريين ، وبينهم وبين "الهكسوس" ، نتيجة لانهيار السلطة المركزية . كما يكاد يجمع المؤرخون ، خاصة المصريون ^(٣) ، على أن مصر عانت لأول مرة فى تاريخها قدراً كبيراً من الذل والمهانة من "الهكسوس" ، الذين عاملوا أبناءها بقسوة ودون رحمة ، وحرقوا مدنها ، ودمروا معابدها ، وذبحوا البعض ، واسترقوا زوجات وأطفال البعض الآخر .

فضلاً عن هذا ، فقد عبدوا الإله "الأسويى سوتخ" ، أحد مظاهر "الإله ست" . وقد سبق أن رأينا "ست" كان قاتل "الإله اوزوريس" الطبيب الذى أحبه المصريون كثيراً ^(٤) . ويشذ عن هذا الاتجاه ، عالم المصريات "جاردنر" ، الذى لم ير فى عبادة "الهكسوس" لـ"ست" إهانة لمشاعر المصريين ، لأن الإله "ست" كان يعبد من المصريين أنفسهم . كذلك يذهب "جاردنر" إلى أن جزءاً كبيراً من المصريين تقبل حكم "الهكسوس" ، كما قامت بينهم علاقات كانت ذات نفع للطرفين . بل ويرى "جاردنر" أن

(١) على سبيل المثال ما نقله "جوسيفوس" عن المؤرخ المصرى "ماتيتون السردى" ، وكذلك الآثار التى وجدت بمعبد الملكة حتشبسوت فى بنى حسن ، أحمد محرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص

Gardiner, op. cit., p. 149 - 150

(٢)

(٣) أحمد محرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) آثار ذلك حقيقة المصريين ، بما فى ذلك ملوكهم ، فلم يرض "الملك سقروح" أن يعبد الهكسوس "سوتخ" بدلاً من "آمون رع" . وبعد نفس الشاعر ضمن الآثار التى وجدت فى معبد "الملكة حتشبسوت" فى بنى حسن ، انظر أحمد محرى ، المرجع السابق ص ٢٥٤ وما بعدها .

"الهكسوس" بذلوا جهدا صادقا لكسب ود المصريين وإرضائهم ، وأن ما أحدثه أمراء بيت طيبة من خراب ودمار في مصر ، يفوق كثيرا ما أحدثه " الهكسوس " ^(١) .

وخلال هذا العصر ، انتهز حكام الأقالييم ما أصاب الملوك والسلطة المركزية من انهيار ، وعملوا على تقوية دعائم نفوذهم واستقل كل منهم بإقليم وتصرف فيه كما لو كان ملكا ، دون أن يقيم وزنا يذكر للفرعون ، أو للفراغة الذين اقتسموا حكم البلاد . ويرى "جاردنر" أن النظام الاقطاعي كان أساسا إقتصاديات البلاد ، وأنه وصل في هذا العصر قدرا بالغا من القوة نتيجة ضعف الملوك وحدة الصراع بينهم .

ويلاحظ ، أن تأثير " الهكسوس " على حضارة مصر كان محدودا وكان مقصورا على الجانب المادي فقط ، وتمثل في رأى البعض في إدخال الحصان والعربات التي تجرها الخيول ^(٢) وبعض الأسلحة كالخنجر والسيوف البرونزية ، والأقواس المركبة ذات المدى القوى البعيد . كذلك أثر "الهكسوس" في فن بناء الحصون ، لأنهم اتبعوا في بناء حصونهم ، طرقا كانت جديدة على المصريين ^(٣) .

نخلص مما سبق ، إلى أن انهيار السلطة المركزية للدولة ، والصراع من أجل السلطة ، وانقسام البلاد إلى دويلات أو أقاليم ، وما جرى من حروب أهلية والاحتلال الأجنبي لجزء كبير منها ، أدى إلى تدهور أحوال مصر الاقتصادية وسيطرة النظام الاقطاعي على إقتصاديات البلاد .

ولكن ما كان لهذا الوضع أن يدوم . إذ بدأ المصريون يشعرون بمرارة الاحتلال الأجنبي البغيض ، وتيقنوا من حقيقة " أن الويل دائما للمغلوب من الغالب " ^(٤) . ومع الزمن تجمعت القوى الوطنية بزعامة "أمراء طيبة" ، الذين كتب لمصر الخلاص على أيديهم من محنة "الهكسوس" ، كما كان خلاص مصر على أيديهم من محنة العصر الوسيط الأول .

Gardiner, op., cit., pp. 147-175 .

(١)

(٢) يرى بعض المؤرخين أنه لا يوجد دليل حاسم على أن "الهكسوس" جاءوا بالخيول والعربات ، وأنهم لم يستعملوها إلا في واسط فترة حكمهم بعد أكثر من قرن ونصف من بداية هذا الحكم . انظر أحمد مخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ومريد من التتصيل انظر

Sane Saderbergh , The Hyksos Rule in Egypt , J. E. A. , 37 , 1951 , p. 59 .

(٣)

Gardiner, op., cit., pp. 171

(٤) تمكس كتابات المصريين حتى اليوم ، عن الشعور بالمرارة من احتلال "الهكسوس" لبلادهم ، رغم مدى قرون عديدة .

لقد بلغ "بيت طيبة" درجة من القوة أثلقت ملوك "الهكسوس"، ودفعتهم إلى التحرش بأمرأء هذا البيت. فقد أرسل ملك الهكسوس إلى "سقنرع" كبير بيت طيبة، يشكو من أن أفراس النهر في طيبة تغلق نومه وهو في "أفارس" في شرق الدلتا، ويطلب من "سقنرع" أن يسكتها. وانتهر "سقنرع" الفرصة، وبدأ حروب أسرته الطويلة من أجل تحرير مصر من "الهكسوس". ولكن القدر حال بينه وبين تحقيق النصر النهائي، إذ مات، وكما يبدو، شهيدا بعد إصابته بجروح بالغة^(١). وبعد موت "سقنرع" حمل الرابية بعده ابنه "كامس" Kamose. وتدل وثائق هذه الحقبة، على أن "كامس" كان غيورا على وحدة مصر واستقلالها. جمع ذات يوم كبار رجاله وقال لهم:

"أريد أن أعرف ما جدوى قوتي، فهناك ملك في "أفارس" وآخر في "كوش".
وها أنا ذا احكم بين أسبوي ونوبي، وكل منا يحكم جزء من مصر ولا
أستطيع الوصول إلى "منف". إنه (أي ملك الهكسوس) يحتل الأشمونين.
والنعب أهل بالناس بسبب خدمتهم للأسبويين. سأحارب حتى أبقر بطنه.
إن رغبتي هي أن أنقذ مصر وسحق الأسبويين."

وكم كانت خيبة أمله في كبار رجاله عظيمة. إذ تعكس نصائحهم له قدرا لا يحسدون عليه من الجبن والتقاعد واللامبالاة للاحتلال الأجنبي لأرض بلادهم، وإذ لا لهم لبنى وطنهم. يقول كبار رجاله:

"إن احتلال الأسبويين امتد حتى مدينة القوصية شمال أسبوت، ولكننا
مطمعنون هنا في مصر... إما إذا جاء أحد وحاربنا فإننا سوف نقاومه."

وحزن "كامس" ولكنه كان مصرا على تحرير بلاده فحارب "الهكسوس" وهزمهم في "معركة نفروسي" في إقليم الأشمونين. ويقول "كامس" وكله عزة وفخر:

(١) وجدت في رأسه وركبته جروح خطيرة، ربما أصابته خلال إحدى المعارك. يرى "جاردنر" أنه ليس هناك دليل يبرر القول بأن "سقنرع" مات شهيدا. انظر في ذلك: Gardiner, op. cit., p. 163-164.

" لقد دمرت مدنها وحرقت ديارهم حتى أصبحت تلالا حمرء ، جزاء التخريب
الذى الحقوه بمصر " .

ولكن القدر لم يكتب "لكامس" أن يكون القاهر الأخير لأعداء بلاده ، بل احتفظ
بهذا الشرف المقدس لأخيه "أحمس الأول" . سار "أحمس" فى خطى أبيه وأخيه ،
فواصل حرب التحرير ، وانتصر على أعداء وطنه واستولى على عاصمتهم "اقاريس"
بعد معركة طويلة . ولما فروا نحو الشرق تبعهم إلى جنوب فلسطين ، وحاصروهم فى
مركز تجمعهم فى شاروهين^(١) سنوات ثلاث ، حتى سقطت فى أيديه وفرق شملهم ، ثم
عاد ملتحدا لمتقبله طيبه استقبال الأبطال . وهكذا انتهى العصر الوسيط للثاني ،
وبدأ عصر الدولة الحديثة أو "عصر الإمبراطورية" بتأسيس "أحمس الأول" الأسرة
الثامنة عشر^(٢) .

(١) لم يكن بهابة "الهكسوس" فى شاروهين ، فقد استمر وجودهم فى جنوب فلسطين حتى كان "للملك توتمس الأول"
شرف القضاء عليهم تماما وعو ذكرهم من التاريخ كأمة لها كيانها أو كقوة حربية .

(٢) من أهم الوثائق فى تاريخ هذه الحقبة لوحة "كامس" التى عثر عليها عام ١٩٥٤ عند ترميم معبد الكرنك ، ولوحة
"كارنافول" وهى عبارة عن لوحات صينية تتضمن ما أملاه عليه مدرسه ، وكذلك اللوحة المعروفة "بيدية ميبالية" التى ترجع
إلى "عصر الرعامسة" ، والنصوص التى وجدت فى مقبرة "أحمس الأول" . وتوجد هذه المقبرة فى الكتاب بالعرب من ادور .
هذا ويبدو لنا أن أهم المراجع المعاصرة عن تاريخ هذه الحقبة هو كتاب "جاردنر" الذى سبقته الإشارة إليه ، والمراجع المختار
إليها فى هذا الكتاب . وانظر أيضا - أحمد قمرى . المرجع السابق ، ص ٢٥١-٢٦٠

الفصل السابع

عصر الدولة الحديثة : العصر الإمبراطوري

(١٥٧٥ - ٩٤٥ قبل الميلاد)

تقديم :

يمتد عصر الدولة الحديثة، والذي يعرف أيضاً بالعصر الإمبراطوري، أو "عصر الدولة العالم" على حد قول "برستيد"^(١) من عام ١٥٧٥ حتى ٩٥٠ أو ٩٤٥ قبل ميلاد السيد المسيح، ويشمل فترات حكم الأسرات الثامنة عشر والعاشر والعشرين.

يمثل هذا العصر في رأي البعض^(٢)، الدورة التاريخية الثالثة من تاريخ مصر الفرعونية، نظراً لأنه شهد مولد الإمبراطورية، وإعلاء صرحها، ثم انطفاء جذوتها وانتهيارها. وإن كنا نعتقد، إنه كان يمثل واحدة من المحاولات المستميتة، ليث الحياة في شجرة الحضارة الفرعونية، التي بدأت تفقد قدرتها على الخلق والإبداع، بعد أن ذهب الرعيل الأول من بناء الحضارة في عصر الدولة القديمة، أو عصر بناء الأهرام. تلك الصروح التي لازالت، حتى يومنا هذا، تمثل واحدة من كبرى معجزات الخلق الحضاري وأحد ألقاها، التي لازالت حتى يومنا هذا، تستحوذ على اهتمام الفكر الإنساني وتثير فضوله، على أمل أن يميّط اللثام عن أسرارها. ويبدو لنا، أنها ستبقى هكذا، تتحدى في عزة صارمة كل قدرات البشر.

ونعرض فيما يلي في إيجاز شديد، لأهم ملوك أسرات عصر الدولة الحديثة.

الأسرة الثامنة عشر :

حكمت الأسرة الثامنة عشر، أكثر من قرنين ونصف من الزمان. كان عصرها عصرًا بطولياً، شهدت بدايته ظهور ملوك عظام شيدوا صرح الإمبراطورية المصرية، بحب وعزيمة. وكان من بين هؤلاء.

١- "الملك أحمنس الأول"، بطل تحرير "تاسرى"، أن مصر، الذي أعاد إلى ترابها قدسيته، وظهرها من دنس الهكسوس.

٢- "الملك تحوتمس الأول"، الذي وضع اللبسات الأولى قسي صرح

الإمبراطورية، وقد قيل عنه في أحد الوثائق :

Gardiner, op. cit, p. 77

-١-

٢- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، المرحع السابق الذكر، ص ٢١٥.

"أطلق حدوده تامرى إلى ما تحيط به الشمس، وعوض أهلها بعد
خوفهم، وأقصى الشر عنها، وجعلها فوق رأس الدنيا كلها، وجعل
الجميع اتباعاً لها" (١).

٣- "الملك تحوتمس الثالث" : كان عصره عصر إعلاء القيم النبيلة، وتدعيم
بناء الإمبراطورية، وكان أعظم العظماء، إذ كان قائداً عسكرياً فذاً، وفى نفس الوقت
فناناً مرهف الحس، يقدر قيم الجمال والفن والحق والعدالة.
قال عنه حاجبه " انتف " :
" كان خادم الفقير وأب اليتيم " .
وخطبه وزيره " رخميرع " قائلاً :
" لقد سموت بالعدالة إلى عنان السماء " .

٤- الملكة حتشبسوت :

ابنة "الملك تحوتمس الأول"، و"الملكة أحمس" وزوجة "الملك تحوتمس الثالث".
كانت قوية الشخصية ، لا حدود لطموحها. كما كانت تميل إلى التشبه بالرجال. تركزت
فيها السلطة أثناء فترة حكم تحوتمس الثانى، وبعد وفاته وتولى الملك تحوتمس الثالث
الحكم. وهو صغير السن، استطاعت حتشبسوت أن تحيه جانباً. بل ونجحت فى
ارغامه على العزلة فى معبد آمون، وتوجت نفسها ملكة على مصر .
أبدت اهتماماً خاصاً بالصناعات الاستراتيجية، خاصة مناطق الفيروز فى
سيناء، كما عملت على تنمية علاقات مصر التجارية ببلاد بنت، وجلب النباتات والسلع
الأجنبية إلى مصر، كما سنرى فيما بعد. ولكن رغم كل هذا فقد نجح تحوتمس الثالث
فى إقصاءها عن العرش، وتدمير الكثير من آثارها.

٥- الملك أمنحوتب الثالث :

بدأ عهده بمظاهر الفتوة التى بدأها عصر أبيه، وخرجت جيوشه لتؤكد سيطرة
"تامرى" على كل أرجاء امبراطوريتها، وكان يجب أن يقال عنه أنه :

" حاكم ينال ما يشاء بسيفه ويعمل بسيديه ".

بلغ ثراء مصر وخيراتها في عصره، قدراً لم تعرفه من قبل^(١). ولكنه أخذ بعد بدايته الصارمة، يستكين إلى الدعة، ويتساق وراء نزواته. فأسرف إسرافاً كبيراً في الزواج بأميرات مصريات وآشوريات وبابليات وميتانيات. بل لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه تزوج إحدى بناته^(٢). وامتلأت حجرات قصره بالجواري الجميلات، ومع ذلك ضن بأميرات بيته على أى ملك أجنبي، أيا كان شأنه. وهكذا غرق في ملذاته حتى القاع، ولم يعر ما بدأ يصيب الامبراطورية من تفكك ووهن أى اهتمام، وصم أذنيه عن شكوى أوفياتيه من الهيار هيبة مصر، في الكثير من أرجاء الامبراطورية. وكتب احد هؤلاء إليه :

" كان حكام كنعان إذا رأوا جندياً مصرياً ولوا الأكراب، أما الآن "

" فإن أبناء "عبدو عشرتا" ^(٣) يستخفون بالمصريين ويهددونى "

" بأسلحة فتاكه "

ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد اتساق المصريون فى نفس الاتجاه، وحفلت حانات ومشارب طيبة، بافداح الجعة والتبذير وأهل الطرب والراقصات المحترقات، وعم الفساد^(٤)^(٥).

٦- الملك امنوحتب الرابع أو " اخناطون " :

تولى العرش بعد وفاة أبيه "الملك امنوحتب الثالث"، ولم يكن قد تجاوز الستة عشر ربيعاً، وقد سار فى نفس درب أسلافه . فقدم ولاءه للإله آمون . ثم تزوج من

١- المرجع السابق، ص ٢٠٥-٢١٠.

٢- المرجع السابق، ص ٢١٢.

٣- أحد حكام الآشوريين فى أواسط سوريا، الذين قربت شوكتهم وبسط نفوذهم على حساب حوران، أنظر عبدالمعز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، سبق ذكره، ص ٢٢٩.

٤- انعكس كل هذا فى وثائق العصر، وانقلبت ظاهرة الفساد القدرسى فى ذلك العصر الذى جعلت كتاباتهم يخوف على تلاميذهم، وأكثر من نصيحهم حتى يبعدوا عن الشر المستقر، الذى ملته حانات ومشارب الجعة فى طيبة.

٥- أنظر فى أثر الرفاهية والرخاء على الدولة أو الحضارة، مقدمة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦، ص ١١٦-١١٩، حيث يقول " لم يد أنسعت أحوال هؤلاء المتحلبين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من العنى والرفعة، دعاهم إلى السكون والدعة وتعاقبوا فى الزائد على الضرورة واستكثروا من الأثاث والملابس والسائق فيها وتوسعة البيوت واحتطاط بدين والأصهار للحضر".

أشهر ملكات التاريخ " الملكة نفرتيتي " . كان صوفياً حالمًا أنصرف كل فكرة إلى التأمل في الكون وأمور الدين ، حتى اهتدى ، أو كاد ، إلى وحدانية الإله ، كما سنرى فيما بعد.

لم يحدث خلاف بين المؤرخين والباحثين في تاريخ مصر الفرعونية بقدر ما حدث بشأن اخناتون . فقد اعتبره البعض مارقاً دمر الامبراطورية ، في حين نظر إليه آخرون باعتباره رسولاً أو نبياً . وإيا كان الرأي فمن المؤكد انه ترك بصماته على تاريخ الإنسانية حتى يومنا هذا.

٧- الملك توت عنخ آمون :

تولى عرش مصر بعد اخناتون وهو طفل صغير لم يتجاوز ثمانى سنوات ، ومات وهو فى ريعان الشباب . اتجه فى البداية إلى عبادة اتون، ثم اضطر إرضاء لكهنة آمون الذين كانوا قد نجحوا فى القضاء على الدين الجديد إلى تغيير اسمه من "توت عنخ اتون " إلى "توت عنخ آمون " على الرغم من أنه كان نكرة بين ملوك هذا العصر العظام إلا أن محتويات مقبرته ، خاصة قناعه وتابوته الذهبى وأثاثه الجنائزى، أذهل العالم نظراً لما تجسد فى كل هذا من عبقرية الاداء والصنع ^(١) .

٨- الملك " حور محب " :

والتقل الحكم بعد ذلك إلى حكام غرباء عن الأسرة. وكان من بين هؤلاء، "حور محب" الذى أحزنه ما آلت إليه مصر من فوضى وخراب ^(٢) ، فحاول ما استطاع، إصلاح ما أفسده آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر. ولكن لم يقدر لإصلاحاته الإدارية والقانونية النجاح. كما لقيت نفس المصير محاولته المشيئة، إخفاء أثار ' دعوة اخناتون " داخل الصروح التى أقامها لنفسه فى معبد الكرنك ^(٣).

١- اكتشفت مقبرته فى نوفمبر ١٩٢٢ ، تحت مقبرة الملك رمسيس السادس ، ومن حسن الحظ أنها وجدت سليمة لم تعبت بها أيدي لصوص القابر. ويذهب بعض الخبراء المعاصرين إلى أن قناعه الذهبى ، يتميز بأروع قناع منحته يدى فنان على مر العصور

٢- ورد فى أحد الوثائق انه حاول الإصلاح بعد أن رآه " أوسان الطليم التى كانت تعرف من مصر " احمد فخرى ، المرجع السابق، ص ٣٣٨.

٣- تحمل "رسائل تل العمارنة" ومقارنها بأثار تلك الفترة وحالة الردى والأهيار التى عمت مصر فى آخر عصر الأسرة الثامنة عشر، النظر لمزيد من التفصيل، عبدالعزیز صالح، المرجع السابق، ص ٢٣٧ - ٢٤٢ ، واحمد فخرى، المرجع السابق الذكر، ص ٣٠٠ - ٣٢٨

لقد حاول " حور - محب "، وقف مظاهر التفكك والفوضى التي أصابت مصر، كما أدت إلى تدهور واضح في الأحوال الاقتصادية. وتؤكد بعض الوثائق، أن " حور محب " كان يقضى الليل والنهار في التفكير، فيما يمكن عمله لإصلاح مصر، وأنه قد أخذ قلماً وقرطاساً من البردي، ثم أصدر التشريعات الآتية :

التشريع الأول : ويحدد العقوبات التي توقع، على كل من يعوق السفن التي تحمل الضرائب إلى - ان الدولة. وكان عقاب ذلك جددع الأنف والنقى إلى حصن تارو" على مقربة من الفتطرة.

التشريع الثاني : فيحدد الإجراءات التي يتعين اتخاذها، في حالة سرقة سفن محملة بالضرائب الخاصة بالدولة، وتكون مرسله إلى الملك.

التشريع الثالث : فخاص بالإجراءات التي تتخذ ضد من يحاول سرقة، أو يحول دون وصول سفن محملة بأشياء مستحقة لزوجة الملك أو مرسله إلى المعابد.

التشريع الرابع : فيختص بمعاقبة الموظفين الملحقيين، بمكتب قرابين الملك، الذين يذهبون إلى قرية من القرى، لأخذ نبات "كث" ويجعلون أرقاء بعض الناس، يشتغلون فترة من الزمن دون رضى سادتهم.

التشريع الخامس : فخاص بالجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للاستيلاء على جلود الحيوانات، دون وجه حق.

التشريع السادس : فخاص بالإجراءات التي تتخذ ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين، وما يحدث من تلاعب من موظفي الضرائب.

التشريع السابع: فيحدد العقاب الذي يوقع على من يأخذ من الفلاحين النباتات المسمى " سم "، الذي كان ضرورياً لصناعة الجعة، بحجة أنه يؤخذ للوفاء بضرائب الملك.

التشريع الثامن : خاص بالعقوبات التي توقع على من يأخذ الحبوب أو الخضروات من الفلاحين دون وجه حق.

أما التشريع التاسع فقد تعذر على المؤرخين فهم هدفه.

أما التشريع العاشر: فيحرم القسوة أو كثرة العمل على الأرقاء. وإلى جانب الإصلاحات التشريعية التي كانت تهدف إلى إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد، قام " حور محب " بـالكثير من الإصلاحات الإدارية. وكذلك حاول إصلاح مرفق القضاء، بأن حسن أحوال القضاة المادية، كما اعتبر أن اعتداء أحد أعضاء سلطة القضائية على العدل وظلمه للناس بسبب رشوة أو غيرها، إنما يعتبر من الجرائم الكبرى التي عقوبتها القتل.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد أعاد تنظيم الجيش، وكفل لجنوده وضباطه حياة كريمة، كما قرر لهم أياماً للراحة. كما حاول إعادة تنظيم البلاط الملكي. وتدل بعض الدراسات المعاصرة الخاصة بعصر الدولة الحديثة، أن " حور محب " قد نجح إلى حد كبير في إصلاح أحوال مصر، ووقف أعمال الظلم التي كانت تتعرض لها، الأمر الذي أعاد لمصر ثقتها بنفسها وأعاد الطمأنينة إلى نفوس أهلها^(١).

انتقل الحكم بعد " حور محب "، إلى شيخ طاعن في السن، كان زميلاً له في الجيش ويسمى " رمسيس " أو " رع - مس - سو " ولم يعمر طويلاً، وخلفه في الحكم " الملك سيتي الأول ".

الأسرة التاسعة عشر:

يمتد حكمها أكثر من قرن من الزمان، خلال الفترة من ١٣٠٨ إلى ١١٩٤ قبل ميلاد السيد المسيح. وظهرت على مسرح الأحداث في أعقاب " عصر المتعصب "، الذي أودى بالأسرة الثامنة عشر، بعد أن شيدت الامبراطورية، وأدت رسالتها نحو مصر. وبهذه الأسرة يبدأ " عصر الرعامة " وكان من أعظم ملوكها :

١- " الملك سيتي الأول " : المؤسس الحقيقي للأسرة التاسعة عشر، واعتبر المصريون عهده مبشراً باستعادة المجد السالف، ولهذا سمي " وحم مسوت "، أي " معبد الموالييسد "،^(٢) بمعنى باعث النهضة من جديد. أما خارج مصر، فقد

١- أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٢٣٦ - ٣٣٨، وعبد الرحيم صدي محمد حسني، القانون الجنائي عند الفرعامة، طبعة

Gardiner, op.cit., p 248

"Repetition of Birth"

لمصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٧ - ٢١ وكذلك

٢- الاصطلاح الانجليزى المرادف

تصور أعدائها أن حداثة عهده تمثل فرصة سانحة للقضاء على ما بقي لمصر من نفوذ خارجي، ولكنهم كانوا مخطئين .

سار في خطى " حور محب "، وحاول إصلاح مصر واستعادة قوتها وأمجدها، كما استعاد نفوذها الخارجي. وترك لنا مقبرته في وادي الملوك والتي تعتبر أهم المقابر جميعا. كما ترك معبده في أبيدوس، لتتذكر كفاحه من أجل مصر^(١).

٢- " الملك رمسيس الثاني " : أعطي الملك "رمسيس الثاني"، أوتوسر ماعت رع سنين رع" عرش مصر القديمة في عام ١٢٩٠ قبل ميلاد السيد المسيح، وفرض اسمه وشخصيته على التاريخ ورواه المؤرخون، هو وزوجته "الملكة نفرتاري"، أي جميلة الجميلات وكان عصره عصر رخاء وثراء عظيمين.

نعم بحكم طويل مستقر، بلغ نحو سبعة وستين عاماً، في عاصمته الجديدة " ير عميسو " أي "دار رمسيس"^(٢)، حتى وافاه أجله وهو في التسعين.

جاهد منذ البداية من أجل استعادة مجد مصر الامبراطوري. ففضى على "شعوب البحر"، وأمن حدود مصر الغربية. وفي العام الرابع من سنين حكمه اتجه نحو الشرق، فأحتل " مملكة أمورو " في الشام ، ثم بدأ صراعه مع الحيثيين، معتمداً على جيش قوامه عشرين ألف مقاتل. وكاد " ملك الحيثيين " موآثالي، أن ينجح في قتل "رمسيس الثاني" في كمين نصبه له خلف " مدينة قادش ". ولكن شجاعة "رمسيس" وحرسه، مكنته من النجاة، وأعقب ذلك إعلان ملك الحيثيين الولاء لمصر وضم "قادش" إلى الامبراطورية المصرية^(٣). وفي الأعوام التالية دعم انتصاراته وأعاد الاستقرار إلى الامبراطورية، كما أحل علاقات الود والمصاهرة بين الطرفين،

محل الحروب والعداء.

١- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ٢٤٢ - ٢٤٦، سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر المروية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٨٣ - ٢٨٥، احمد محري، سبق ذكره، ص ٣٣٩ - ٣٤٤

٢- شيدها " رمسيس الثاني " في نفس الموقع الذي كانت به " أفارس " Avans " عاصمة المكسوس " .

٣- تؤكد المصادر الخيلية أنهم الحقوا بالنصريين الفريجة ولاحقوا الجيش المصري حتى دمشق ويوجد المؤرخون أنفسهم في حمير، أيهما يصدقون أنظر : المرجع السابق ، ص ٢٦١ وما بعدها وكذلك :

Breasted, J H, the Battle of Kadesh, Chicago, 1903

رجل " رمسيس الثاني " عن الدنيا، بعد أن ترك " الرمسيسوم "، " وأبو سنبل " وتمثيله العملاقة^(١)، لتؤكد للإنسانية عظمته، ومعجزات البناء التي تركها^(٢) (٣).

ولكن السنوات الأخيرة من حكم "رمسيس الثاني"، وكان قد وهن العظم منه وبلغ من العمر عتياً، شهدت بداية تدهور أحوال مصر الداخلية، وتفكك ثم انهيار امبراطوريتها، تحت وطأ هجمات من عرفوا في التاريخ " بشعوب البحر"^(٤).

ولم يستطع من خلف "رمسيس الثاني"، سواء في ذلك، "الملك مرنبتاح" أو "باترع" (١٢٢٤ - ١٢١١ قبل ميلاد السيد المسيح)، أو ملوك الأسرة العشرين، إيقاف هذا التدهور واستعادة هيبة مصر أو امبراطوريتها.

حقاً، لقد حاول "رمسيس الثالث" (١١٨٢ - ١١٥٠ قبل ميلاد السيد المسيح) أن ينقذ مصر من محنتها. وعلى الرغم من أنه حقق قدراً من النجاح، إلا أن المأساة بدأت تتفاقم في أواخر أيام حكمه، وخلال فترة حكم خلفائه، والذين بلغ عددهم ثمانية وربما أكثر، من "رمسيس الرابع" حتى "رمسيس الحادي عشر"^(٥).

وعلى الرغم من أن مصر، شافت من غفوتها، في "العصر الصاوي"، إلا أن اليقظة كانت بالغة القصر، وعادت مصر بعدها إلى ما كانت عليه.

وهكذا بدأت شمس الحضارة الفرعونية، تآذن بالمغيب، بعد أن تفاسقت مشكلات ومحن " عصر المتاعب " " Time of troubles " ، على حد تعبير "أرنولد توينبي".

١ - بلغ وزن أحد تماثيل نمر الف ملن، أما معننه الشهير في أبي سنبل، فقد تحته المصريون بالأزميل في الصحر
٢ - سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٨٥ - ٢٩١ ، عبد العزيز صاخر، المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٧ - ٢٥٤، أحمد
نصرى، المرجع السابق، ص ٢٤٤ - ٢٥٦.
٣ - قال "رمسيس الثاني" "أمنحوب الثالث" في عدد روحائه وعظيائه، وقيل أنه خلف ٥٩ بتاً و ٧٩ أو مائة ولد. أنظر: عبد
العزيز صاخر، المرجع السابق، ٢٤٨.
٤ - قبائل هندو-أوروبية عاشت فساداً في المنطقة.

وانقسمت مصر، إلى أقلية مهيمنة تنكرت لمسئوليتها نحو مصر وأبنائها وعجزت عن الخلق والإبداع الحضاري. أقلية، اكتفت بالعيش على أمجاد الغابرين، وأغلبية مطحونة أو "برونتياريا داخلية"، تنكر على الحاكم المستبد ولانها، وتعيش غريبة في وطنها، تنتظر الخلاص والمخلص. واكتملت سمات "عصر المتعصب"، بظهور "البرونتياريا الخارجية"، ممثلة في من عرفوا "بشعوب البحر"، ثم الليبيين وغيرهم، حتى جاء قمبيز غازيا لمصر في عام ٥٢٥ قبل ميلاد السيد المسيح^(١).

١- أحمد حمدي، المرجع السابق ذكره، ص ٣٤٤ - ص ٤٤٥، عبد العزيز سنخ، الشرق الأدنى القديم، ص ٢٥٨ - ص ٢٧٧ وكذلك .

Gardner, op cit pp 177-315 and Heicht, op - cit -, pp - 131 - 138.

ومن الجدير بالذكر أن مؤلف "جاردنر"، يعتمد من أفضل المصادر التي تعرضت لدراسة عصر الرعامسة بدقة وبشيء من

التفصيل، خاصة الفصلين التاليين :
The Ramesside Period : (1) The nineteenth Dynasty , pp. 247 - 280
The Ramesside period: (2) the Twentieth Dynasty , pp. 251-315.

المبحث الأول

نظام وفلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة

يتضمن هذا المبحث عرضاً موجزاً لنظام الحكم فى عصر الدولة الحديثة، ثم نتبع ذلك بعرض موجز للملامح الأساسية لفلسفة هذا الحكم.
أولاً: نظام الحكم فى عصر الدولة الحديثة :

كان الملك على قمة السلطة يجمع بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. إذ كان الملك، كما سنرى فى حينه، المخول بإصدار القوانين نيابة عن الإله، وكان الهدف الأسمى لأى قانون هو العدالة أو الحق . ومع ذلك، فقد كان الملك ملزماً باحترام القوانين التى يصدرها. بعبارة أخرى كانت الملكية ملكية مقيدة .

وعلى الرغم من أن الملك كان رمزاً للعدالة، ولم يكن فى التنظيم القائم فى ذلك العصر، ما يحول دون تصدى الملك للفصل فى القضايا المعروضة عليه. وعلى الرغم من أن محاكم العدالة كانت تستمد سلطاتها بناء على تفويض منه، إلا أن الملك نادراً ما كان يتدخل فى أعمال السلطة القضائية. بل كان الملك يلزم القضاء بألا يطيعوه، إذا كان فى توجبها ما يخالف القانون^(١). وكان الملك يختار من يشغل وظيفة القضاء، من بين الأشخاص المتميزين أولئك الذين يتسمون بالهيبة والكفاءة .

كما كان الملك هو رأس السلطة التنفيذية، يساعده فى القيام بأعمال الدولة، وزير أو أكثر، وكثير من الموظفين .

وفى عصر الدولة الحديثة، كان يوجد وزيرين أحدهما فى طيبة والآخر فى شمال مصر . وكان الوزير يختار من بين كبار رجال الدين أو الجيش، وغير هؤلاء من كبار رجال الدولة، المولعون بمعرفة الحقيقة والبحث عن العدالة .

١ - لم يكن فى التشريعات أو التقاليد القائمة ما يحول دون تدخل الملك، لتشكيل محكمة خاصة، لتطرق فى بعض الجرائم، مثل الجرائم التى قد ترتكب ضد الملك، أو التى يرتكبها بعض الأمراء ورجال البلاط . ولكن وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الملك يعصر المحاكمات، كما كان يلتزم الحياد التام، ومن الأمثلة على ذلك قضية تأمر الملكة وبعض رجال البلاط، لقتل "رمسيس الثالث". أنظر فى ذلك، أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٧٧ - ٣٢٨.

ثانياً: فلسفة الحكم في عصر الدولة الحديثة :

انقسمت الحضارة المصرية القديمة، منذ بداية ظهورها في العصر الحجري الحديث، بطابع فريد، هو استقرار الآلهة في وجدان وفكر أهل هذه العصور، في مرتبة أسنى وأعلى على الإنسان .

وكان " رع "، في اعتقاد المصريين، أول ملك إلهي " Roi Divine " . كما أستقر في قلوبهم وأذهانهم، أن " الإله رع " قد شيد مصر بنفسه، وإن كان قد ساعده في ذلك الآلهة الآخرون .

وكانت عدالة " الإله رع " . عدالة مثالية كاملة لا يشوبها أي شائبة. كما عرف عن " رع "، أنه كان يحكم بالعدل، وينصف المظلوم، ولا يقبل هدايا أو قرايين من الظالمين أو المستبدين من بنى البشر، سواء كانوا هؤلاء حكاماً أو محكومين.

وكان أول ملك انساني Roi Divine وفقاً لتقاليد مصر الفرعونية، ابناً لآخر ملك إلهي كما كان ورثته الشرعي^(١)، ولهذا كثيراً ما لقب الملك " ابن رع " أو " ابن الشمس"^(٢).

وكان هذا الإله مصدر القانون، وهو الذي يبيح أفعال الإنسان أو يجرمها . كما أنه الذي يحدد العقاب، وإن اختلف العابدون، حول ما إذا كان هذا الإله هو " أمون رع " أو " أوزيريس " إله البعث، أو كان هذا الإله هو " توت " Toth .

وعلى الرغم من انتقال حق العدالة، أو الالتزام بالعدالة من الآلهة إلى الملوك، ثم إلى الأشخاص الذين اختارهم الملوك لتولى مسئولية القضاء، إلا أن الملك كان ملزماً باحترام القوانين، وإن كان هو الذي أصدرها، لأنه أصدرها باسم الإله^(٣) .

١ - يقال إن أول ملك انتقلت إليه العدالة من الآلهة " رع "، كان الملك " منس " Menes .

٢ - يظهر ذلك من أسماء عائلية ملوك مصر، ففي عهد الدولة القديمة نجد " حفرح " و"مكارح"، وفي عصر الدولة الحديثة، نجد "احمس الأول" أو "نب - بختي - رع"، "وتحتمس الأول" أو "عاجر كارع"، كما كان اسم "حشيموت" "ماعت" كما رع، "وتحتمس الثالث" "نس - حير - رع"، وحتى "حورع"، آخر من حكم مصر في فترة الانتقال، التي أعقبت نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة، كان يسمى "حسر - حير - رع" .

٣ - يعبر ذلك المعنى، بأنه كان نتيجة الشروط التي فرضها حكام الأقالييم، عندما تنازلوا عن سلطانهم لملك فريء الأمر الذي أدى إلى توحيد مصر فيما بعد. انظر في ذلك : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة، بوى، فلندرز، ترجمة حسنى محمد جرجير وعبدالمعزم عبدالحليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣٨ - ٤١ .

ويؤكد المؤرخون، بما في ذلك المؤرخين الأغريق والرومان الذين زاروا مصر قبل أو بعد ميلاد السيد المسيح بوقت قصير، أن المجتمع المصري لم يعرف قانون الانتقام أو شريعة الغالب. ولم يحكمه ملوك تمتعوا بسلطة الحكم المطلق قط. بل كانت الملكية دائماً ملكية مقيدة^(١)، وأن الملك كان يعرف دائماً، أنه لا يمكن أن يخفى الظلم عن أعين " رع "، صاحب الحق الأصيل في العدالة. ومن ثم كان الملك يراعى حرمة القانون في كافة تصرفاته، سواء كانت خاصة بأمور الحكم أو بشئون حياته الخاصة. ويقرر "نيودورس الصقلي"^(٢)، الذي زار مصر حوالي عام ٥٩ قبل الميلاد، أن ملوك مصر لم يحكموا بلادهم حكماً أوتوقراطياً كغيرهم من حكام الدول الأخرى، كما أنهم لم يحيوا حياة طليقة من كل ضابط أو قيد، إلا في حالات قليلة.

تخلص مما سبق، أن فكرة العدالة " الماعت "، قد ظلت حية في وجدان مصر دائماً. وكان القضاة عندما يباشرون أعمالهم، يعطون على صدورهم تمثالاً يرمز للعدالة^(٣)، أي " الماعت ". ويبدو لنا، أن الأساس الديني للقانون، قد دعم مبدأ العدالة والإنصاف بشكل ملحوظ. وقد تأكد هذا بصفة خاصة منذ العصور التي أعقبت الثورة الاجتماعية، التي أعقبت عصر الدولة القديمة، والتي أعلنت من قيمة الفرد وحقوقه. كما أن حق الخلود لم يعد حكراً على الملوك، بل أصبح من حق أي فرد، أن يرنو إلى تحقيق هذه الرغبة الفطرية في الحياة الأبدية.

وتتضمن الصفحات التالية، بعض النصوص القديمة، التي تؤكد بوضوح، سيطرة فكرة العدالة على التشريعات والقوانين. ويجب أن يكون واضحاً أن النصوص الآتية، قد جاءت كأمثلة، ولم ترد على سبيل الحصر. يقول "بشا حوتب"، أحد حكام الأقاليم في عهد الأسرة الرابعة :

" العدالة هي أمر عظيم، لا يجب أن يتغير، ويجب أن تكون "

"مكفولة للجميع .. ولم يحدث أي اضطراب فيها منذ عهد "

(١) عبد الرحيم صدقي محمد حسني، القانون الجنائي عند المصريين، سبق ذكره ص ٢١-٢٢ .

(٢) جورج روماني، ألف كتاباً من أربعين جزء عن تاريخ العالم، خصص جزء منها لتاريخ مصر.

(٣) كانت العدالة من بين الأفكار والقيم الأخلاقية والفلسفية، التي حظيت بالتقدير والعبادة، فكان هناك آلهة للحكم وأخرى للجمال. وكانت للعدالة إلهتها، التي كانت تسمى " الماعت " عند المصريين، " ونجس عند البابليين، " ونميس " عند الآشوريين. انظر: عادل بسونى، المرجع السابق، ص ٤٣.

"أوزوريس " Osiris " أن أي عقبة في طريق العدالة، يعنى"
"فتح الطريق أمام العصف... أن حدود العدالة لا تتغير... أن"
"معانيها تعاليم يعظمها الابن من أبيه"^(١).

وعندما تولى الحكم الملك " حور محب " صاحب المرسوم الملكى الشهير،
أعلن على الناس :

"أن صاحب الجلالة، بعد أن استشار قلبه حول الطريقة التى "
"يعد بها وضع القوانين، واستنصل الكسب وابعاد الاخطاء...أن"
"تصميم صاحب الجلالة الكبير على منع أى اخطاء جزافية أو"
"أى تعسفات تلحق بالمصريين، قصراً كانتوا أم بالقين ... أن"
"جلالته يعمل فى كل وقته لتحقيق الخير فى مصر ."

وقد استدعى الملك كاتبه، وأمره بأن يعلن أن :

"صاحب الجلالة مولاي يامر بأن يبحث الكل عن كل أنواع الظلم،
"وأن يعاقب المذنبون، بعد أن أحسن بنقشى الظلم فى أنحاء"
"البلاد...."^(٢)

ويتضح من وثائق كثيرة، أن الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة، كانوا
يفخرون بأنهم يحرصون على تحقيق العدالة . يقول " رخميرع "، الذى كان وزيراً
فى عهد "تحوتمس الثالث" :

"ها أنا أتحدث بنفسى، وأعلنها حتى يسمعها أولو الأبواب"
"لقد سموت بالعدالة حتى عفان السماء، وجعت بهاءها يعم"
"الأرض باتساعها، فاستقرت فى خياشيم الناس، كنسمة"
"الشمال، التى تطرد عكوسات السرد...، وأبيت المنكر ولم

١- انظر فى تفصيل ما ورد بالمر، عبدالعزير صالح، الشرق الأدنى القديم، المرجع السابق ذكره، وبرى، المرجع السابق ذكره، ص ٤١. وعبد الرحيم صدقى محمد حسنى، المرجع السابق، ص ٩ - ص ٢١. عادل بسيونى، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، الشرق الشرق القنبة، دار نهضة الشرق القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٣ - ص ١٠٨.

٢- نقلا عن عبدالرحيم صدقى، المرجع السابق ذكره، ص ٢٠.

"افعله .. وجعلت القمام ينقى على أم رأسه، ولم اضح بحق"
"من أجل مكافأة، ولم أصم الناس عن صغر اليدين، ولم أقبل"
"رشوة النسان ..."^(١).

وعلى نقوش مقبرة "رخميرع" فى طيبة الغربية، سجل المرسوم الملكى الذى أصدره "تحوتمس الثالث" بتكليفه بأعباء الوزارة، وفيه يخاطب الملك وزيره :

"يا أبى الرب التحيز، وهذه تعاليم نرجو أن تتبع سبيلها. ثم يضيف "

"الملك : تطلع إلى منصب الوزير هذا ومن يفتأ لكل ما يحدث "

"فيه، فهو عماد الأرض كلها، ولاحظ أنه ليس بالمنصب الهين "

"ولكنه من المذاق ... وهو لا يعنى (مجرد) تكبير الذات واحتسرام "

"الرقساء ورجال البلاط . وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير " الفرد "

"الشعب ... فإذا قصدك شك من الصعيد أو من الدلتا أو من " أى بقعة "

"فى الأرض. فعليك أن تتأكد من أن كل شئ يجرى وفقاً " للقسطن "

"والعرف. وامنح كل ذى حق حقه ولاحظ أن من يلى " منصباً كبيراً "

"يسردد الهواء والمساء كسل مسا يفعله، ولا يمكن أن "

"تستمر تصرفاته خفية ... تصرف وفقاً للعدل، فالمحابة يمقتها الرب. "

"واليك نصيحة تخلق بها : عامل من تعرفه كما تعامل من لا تعرفه، "

"وانظر إلى المقرب إليك نظرك إلى البعيد عنك ... لا تشج بوجهك "

"عن صاحب شكوى، ولا تؤمن سريعاً على صدق من يحادثك ... لا "

"تغضب على فرد بغير حق وأقصر غضبك على من ينبغى الغضب "

"منه . كن مهيباً يهابك الناس . والتهيل هو من يجله الناس وتكفى "

"مهافته إذا أحق الحق ولكنه إذا أخاف الناس وأسرف فى "

"ترويعهم وكانت به لقيصه، نزلوا به "من مصاف الرجال. "

"ولسوف تلجج فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق. "

١ - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢١ - ٢٢٢ وكذلك "

Gardiner, op. cit., p196.

ريشور " جاردنر " إلى صعوبة التحديد الدقيق لتاريخ كتابة هذا النص ، وإل احتمال أنه كتب فى عصر الدولة الوسطى

"قالناس يتوقعون العدل في كل تصرفات الوزير . وتلك سنة القضاة "

"منذ حكم الرب على الأرض، كن غنياً مع المتكبر، فالفرعون "

"يفضل من يستحي على من يتكبر...^(١)"

ويقول "ديودورس"، الذي أنفرد من بين المؤرخين القدامى، بوصف النظام

اليومي لحياة الملك ما يأتي :

" لقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات شتى "

" والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينفهم في المتع والملذات "

" وكان طعام الملوك بسيطاً محدود الأصناف وهذا يشير إلى أنه كان "

" لهم نظام خاص في الغذاء محافظة على صحتهم وضماناً لسلامتها "

" التي توقوف عليها رفاهية البلاد أنه (أي الملك) لم يكن "

" يستطيع أن يقوم بأي عمل عام أو يدين شخصاً أو يعاقب آخر لمجرد "

" نزعة شخصية، أو لقصد التشفى والانتقام أو لأي دافع آخر لا يتفق "

" وروح العدالة^(٢)، ولكن كان مقيد التصرف في كل حالة وفق ما تنص "

" عليه القوانين، ومن أجل ذلك رأينا الملوك وقد راعوا المساواة "

" والعدل في المعاملة بين رعاياهم، فأكتسبوا من محبتهم ما يزيد كثيراً "

" مما يكونه لأهلهم من حب . "

ويؤكد "بترى"، أن نظرية الحق الإلهي للملك كانت مقيدة تقديداً كبيراً بالنسبة

لملوك مصر^(٣).

ويذهب "بترى"، إلى أن حياة الملك الخاصة لم تكن ملكاً له وحده، إذ كان عليه

أن يتصرف في كل لحظة طبقاً للنظام مرسوم، دون أن يجد مجالاً للتدخل والعيب كما

كان يفعل أمثال "ديونيسيوس" أو "كاليجولا".

١ - نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٢٠-٢٢١ .

٢ - عندما تأمرت "الملكة امتس" على حبة روجها فلذلك "سبي الأول"، ترك أمر المحاكمة للقضاة ولم يتدخل الملك في القضية

وقد حدث نفس الشيء عندما تأمرت إحدى زوجات "وميسس الثالث" على حياتها

٣ - أنظر بترى، المرجع السابق الذكر، ص ٩٢-٩٤ ونروت عكاشة، المرجع السابق، ص ٢٥٥-٢٧٢

المبحث الثاني

أهم سمات عصر الدولة الحديثة

اتسم عصر الدولة الحديثة، والذي استغرق نحو أربع قرون من الزمان، بسمات تفرد بها عن غيره من العصور التي سبقتة. ويمكن أن نجمل تلك السمات فيما يأتي :

أولاً : كان عصر الدولة الحديثة عصرًا بطوليا ، شهد مولد الامبراطورية المصرية وإعلاء شأنها ودعم بنائها . وكان الفضل الأول في ذلك "للملك أحمس الأول" "والملك تحوتمس الأول"، "والملك تحوتمس الثالث"، ومن ورائهم سيدات عظيمات ، تفردت بهن الأسرة الثامنة عشر.

لقد قاد هؤلاء مصر، وسار على الدرب خلفهم كل أبنائها، الذين انطلقوا في عزم وإصرار وحيوية، ينفضون عن كاهلها، تراب المذلة التي قاست مرارتها خلال محنة "الهكسوس"، وينشرون نفوذها وسطوتها جنوباً حتى مشارف الخرطوم، وشرقاً حتى نهر الفرات، ويرسون دعائم امبراطورية مترامية الأطراف.

انطلقوا في حيوية ذافقة، إلى رحاب واسعة، يتاجرون ويتعلمون ويجلبون لمصر خيرات ونفائس الامبراطورية .

ومن المؤسف، أن نفس العصر الذي شهد مولد الامبراطورية وإعلاء صرحها، هو نفس العصر الذي كان مقدرًا له أن يشهد أيضاً بداية انهيارها، ثم غروب شمسها في العصور اللاحقة .

لقد خلف الرعيل الأول من عظماء ملوك طيبة، جيل آخر من الملوك ، شغلوا بأمور أخرى غير مصر وامبراطوريتها ، واستكانوا إلى الدعة ، قاتعين بالعيش على أمجاد الغابرين. شغل أحدهم بزوجاته ومحظياته وتبيذه وجعته ، حتى استنفذت كل قواه. وعندما وافته المنية كان حطاماً بشرياً ، مع أنه لم يكن قد بلغ الخمسين عاماً بعد. أما الآخر، ونعني به "أختاتون"، فقد انصرف عن مصر وامبراطوريتها، واستغرق

في تأملاته الفلسفية، يتعبد في محرابه وينظم أناشيد التوحيد ، في حين كان كهنة آمون يتربصون للانقضاض عليه وعلى دعوته، كما سنرى في حينه .

ولم تفلح ثورة الإصلاح القانوني والإداري، التي أشعلها "حور محب"، ولا الجهود الخارقة التي بذلها "رئيس الثاني" لإنتقاذ الامبراطورية، كما لم تفلح بقطة "العصر الصاوي" في عهد الأسرة السادسة والعشرين، في إيقاف عوامل الفناء، التي بدأت تنحدر في جذور شجرة الحضارة، حتى أذنت شمسها بالمغيب، وجاءها قمبرق غازيا في عام ٥٢٥ قبل الميلاد المجيد .

ثانياً : كما اتسم عصر الدولة الحديثة عموماً ، خاصة عصر الأسرة الثامنة عشر، بقدر ملحوظ من الرخاء الاقتصادي ، الذي أدى الى تحسن ملحوظ في مستوى معيشة غالبية سكان مصر ، الذين بلغوا نحو ١٢ الى ١٤ مليون نسمة خلال هذه الحقبة من تاريخها^(١).

ويؤكد هذا الرخاء ، الآثار التي خلفها هذا العصر ، مثل المعابد والمقابر والقصور والبيوت ، سواء في ذلك بيوت علية القوم أو عامة الشعب. إذ يتضح من بعض الدراسات ، أن البيت النمطي في "العمارة" كان عبارة عن "فيلا" تحيط بها حديقة، تحفل بأشجار الظل والفاكهة والزهور ، وأحواض من الماء لتربية الأسماك والبط. كما يكفي لمعرفة مدى الرخاء والرقى الحضاري الذي نعمت به مصر ، انتشار حب الزهور وتربيتها والتخلي بها وتقديرها كرمز للترحيب بالضيوف^(٢).

أما حياة الملوك ، فكانت بذخاً صارخاً لم تعرف مصر مثيلاً له من قبل. فقد تطرف بعض ملوك هذا العصر ، في حب النساء والحلى والخمر، وحفلت قصورهم بعدد لا يحصى من الزوجات والمحظيات المصريات والميتانيات والبابليسات والأشوريات.

Badawy, A., op. cit., p. 25 - 28.

١- برى، المرجع السابق، ص ٢٣٢ وكذلك :

٢- برى، المرجع السابق، ص ٢٩٨ ويصف أحد الحوي المعاصرين هذا العصر بأنه .

" Egypt was to all appearances basking in the glow of a golden age ."

انظر في ذلك :

Parker, Simon B Texts from the Amarna Period in Egypt , p.2

ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد أقبل الشعب على المتعة ، وحفلت
"طبيبة" بالحانات والمشارب التي تقدم النبيذ والجعة ، كما تقدم الرافصات المحترفات
والمغنين الذين يقدمون المتعة لرواد هذه الحانات .
ويبدو أن الكل أصبح يردد النشيد التسملي الذي كان يقوم يردونه في
احتفالاتهم :

" احتفل بهذا اليوم السعيد واستنشق رائحة العطر وزيوته. وضع
"أكاليل من أزهار اللوتس على ساقي أختك وصدرها. تلك المقيمة في"
"قلبك. انجالسة بجوارك بين عزف الموسيقى وغناء المنشدين. ولا "
"تهتم بشيء بل اغلثم فرص اللذات قبل أن يجيء اليوم الذي تقرب "
"فيه من الأرض التي تالف السكون " (١).

ثالثاً : كذلك فمن المؤكد أن من أهم السمات التي تميز عصر الدولة الحديثة،
تلك الثورة الدينية، التي أشعل نارها "الملك أخناتون"، الذي اعتلى عرش مصر نحو
سبعة عشر عاماً، خلال الفترة من ١٣٦٧ إلى ١٣٥٠ قبل ميلاد السيد المسيح (٢).
لقد ظلت فكرة الوحدانية، تراود عقل وقلب الكثيرين من رواد الفكر في مصر،
منذ أن بدأوا يفكرون في القوى المجهولة التي تحكم الطبيعة. وعندما بدأوا يفكرون
في مرحلة مبكرة من حضارتهم الحجرية، في البحث وفي الحياة الأخرى .
كانت وحدة الخالق هي الأساس الذي قام عليه تفسير نشأة الوجود في مذهبي
"كهنة عين شمس" " وكهنة منف "، وإن شأب الفكرة قدراً من الغموض والتناقض. لقد
اتفق دعاة المذهبين، على رد نشأة الكون إلى خالق واحد، ولكنهم اختلفوا في من هو
هذا " الخالق ". هل هو "إله توم" عند أصحاب المذهب الأول، أم هو " الإله بتاح "
عند انصار المذهب الثاني.

١ - ملاح عن رسم بطريرك مرجع السداس ، ص ١٧١

٢ - لم يتم ملكاً في تاريخ مصر العروبية من اختلاف بين مؤرخين المعاصرين، ما ادّره " أحاقول "، حتى بعد زمانه ساكنو
من ثلاث آلاف سنة . انظر في ذلك

2- Parker, Simon, B , Editor, op. ci, pp.

ومع الزمن، ومنذ أواخر عصر الدولة القديمة، وبداية عصر الدولة الوسطى، أخذت فكرة الوجدانية أو التوحيد تخطو إلى الامام . فقد اتجه الجميع إلى " رع " إله الشمس، باعتباره الخالق والأكبر في آن واحد . وجعلوا اسمه مشتركاً مع أسماء المعبودات الأخرى، " الإله سوبك رع "، " آمون رع "، " تحوتى رع " وبتاح رع ". إن كل هؤلاء إله واحد هو " الإله رع ". وإن " رع " هو الذى خلق " تمرى " أى مصر أى الوجود كله. لأن مصر كانت بالنسبة لهم هى الوجود كله، وإن كان " رع " قد خلقها بمساعدة الآلهة الأخرى .

نخلص مما سبق، إلى أن الفكر الدينى، وإن كان قد اتجه منذ نهاية عصر الدولة القديمة، إلى وحدة الخالق، إلا أن هذه الفكرة لم تستطع أن تتخلص تماماً من فكرة تعدد الآلهة. وعلى الرغم من أن " رع " كان الإله الأوحد والأكبر، إلا أنه قد عجز وحده عن أن يخلق الوجود .

أما الخطوة الحاسمة فى هذا الاتجاه نحو وحدانية الخالق، فقد اقترب منها " اخناتون " إلى حد كبير، عندما أشعل ثورته الدينية فى تل العمارنة ^(١) .

ويمكن أن نوجز فيما يلى المبادئ الأساسية، التى قامت عليها " دعوة اخناتون " الدينية، والتى تشكل دون أدنى شك، أول اتجاه فى التاريخ الإنسانى نحو التوحيد .

١ - تركز حياة أتون على " فكرة الماعت "، أى ما يمكن ترجمته بالحقيقة أو العدل أو الأصول . فقد طلب " اخناتون " من الناس أن يجعلوا الحقيقة نصب أعينهم، وأن يسموا الأشياء بأسمائها، وأن يبعدوا عن النفاق والمداينة . ^(٢)

١ - عبدالعزيز صالح، المرجع السابق ص ٣٥٥ - ٣٧١، أحمد ميمرى المرجع السابق ص ٣٠٠ - ٣٢٩ وثروت عكاشة، المرجع السابق ص ٢٤٨ - ٢٥٨

٢ - سرى فيما بعد أن هذا لمبدأ كان به أثر كبير على الاتجاهات الفنية التى مثلتها " مدرسة العمارنة "، أو " اخناتون "، أو " مشرق الشمس "

٢- كان "أخناتون" يمقت تصوير الإله، على أى صورة من الصور، سواء كانت إنسانية أو نباتية أو حيوانية، أما قرص الشمس، والذي تبعث أشعته الحياة فى كل الكائنات، فهو رمز للإله الواحد .

٣- كان "أتون" الإله الواحد، الذى لا شريك له. وعلى الرغم من أن هذا الوصف كان يطلق، على عدد غير قليل من الآلهة، ومنها الإله امون، إلا أن الجديد الذى أتى به "أخناتون"، هو تحريم عبادة أى آلهة أخرى غير "الإله أتون".

٤- إن "أخناتون"، وحده، "ابن أتون"، الذى كلفه بعبادته. أما بقية البشر فيعرفون "الإله أتون"، من خلال عبادتهم لابنه ورسوله "أخناتون". ولعل هذا المبدأ الأخير، كان العقبة التى حادت "بأخناتون" عن الوصول الى حقيقة الأزل، أى الله الواحد الأحد. كما أنها كانت من أهم الأسباب التى أدت الى عدم استمرار دعوته فيما بعد.

٥- لم تكن الدعوة الدينية التى بشر بها "أخناتون"، دعوة لمصر وحدها، بل كانت دعوة للعالمين . إذ أن "أتون" هو خالق كل شيء .

٦- ولما كانت الشمس بضيائها هى رمز "أتون"، فمن غير المنطقى أن يعبد فى معابد وفى أبهاء تنتهى بهيكل قليل الضوء . ومن ثمة كانت معابده عبارة عن بهو مفتوح على السماء، حتى ينعم المتعبدون فيه بدفع الشمس ونورها .

أوجزنا فيما سبق، الأسس التى قامت عليها الدعوة الدينية "لأخناتون"، والتى تمثل دون شك ثورة فى الدين، عصفت الى حين بالتقاليد الدينية القديمة، التى ظل "كهنة رع" حفاظاً عليها منذ بداية التاريخ الفرعونى^(١).

وعلى الرغم من أن "أخناتون" لم تقوده خطاه، الى وحدانية الخالق فى صورتها الكاملة، إلا أنه أحدث ثورة كان لها آثار بعيدة المدى على الآداب والفنون فى العصور التى أعقبته. كما أنها حفرت بصماته، على تاريخ الإنسانية جمعاء، منذ أن ردد دعوته لأول مرة وحتى يومنا هذا^(٢).

١- أحضر لمرشد من التفصيل الدراسة القيمة التى تسمىها الفصل التاسع من مؤلف روستيد، السابق الذكر، ص ٤١٧ - ٤٥٩
٢- Melikman , Saun , Revolution in Egypt - Striving Women and Other Mysteries, Herald Tribune, March 1-2, 1997, Gardiner , op .cit. especially pp212-245. Pendlebury Ed & el -Amaru , London 1935, Sandman , M, Texts from the time of Akhenaten , Brussels 1938

أما الثورة الفنية التي واكبت الثورة الدينية والتي تجسدت في "مدرسة تل العمارنة"، فقد تركت أثراً لا يمكن أن ننسى في الفن، فقد دفعته دفعة قوية نحو الواقعية والخيال والحيوية. ومن الأمثلة على ذلك :

١- رأس تمثال "تحتمس الثالث" بالمتحف المصري بالقاهرة، وهي من الجرانيت الوردي، تضيئ وجهه ابتسامته الخفيفة تقطر سحراً وجمالاً.

٢- تماثيل "الملكة نفرتي" ، سواء ما هو موجود منها في متحف برلين، أو تلك التي لم تكتمل رؤوسها والتي يوجد أحدها بالمتحف المصري .

٣- تمثال "توت عنخ آمون" الخشبي، الذي يعكس ريعان شبابه بشكل لا تصدقه العين. ويوجد هذا التمثال بمتحف القاهرة .

٤- اللقوش البارزة على جدران معبد الدير البحري، والتي تسجل ازدهار التجارة الخارجية في عهد "الملكة حتشپسوت". لقد تفوق الفنان على نفسه، خاصة في تسجيل الملامح الذاتية " لملكة بونت " التي يثنى جسمها، من ثقل ما يحمله من لحم وشحم، كما يظهر إبداع الفنان ومهارته، في تصوير قصة ولادة "حتشپسوت" من صلب "الإله رع".

لقد وصل الفن في عصر الدولة الحديثة ذروته الثالثة، خاصة خلال النصف المتأخر من عصر الأسرة الثامنة عشر وأوائل عصر الرعامسة، سواء في النحت البارز أو الخفيف أو التصوير على الجص. كما بلغ الفن ذروته فيما يعرف "بالفنون الصغيرة"، والمثل الأعلى لها محتويات مقبرة "توت عنخ آمون". ويرى الكثير من الخبراء، أن جمال الخطوط وليونتها التي تميزت بها "مدرسة العمارنة"، لا يدانيها فن آخر في العالم. فضلاً عن هذا، فإن فنون هذا العصر، تعكس بصورة صارخة مظاهر البذخ والثراء الذي شهده هذا العصر. ويبدو ذلك جلياً في الحلى والأقراط والأساور والعقود.

ويظهر الاتجاه الواقعي الذي سيطر على "مدرسة العمارنة"، في الصور التي تظهر "توت عنخ آمون"، بنعم بصحبة أسرته، في جلسة طبيعية، وابنته تجلس على الأرض تأكل بطة.

أن من يرى الآثار الفنية لهذا العصر، يشعر شعوراً قوياً أنها ليست غريبة عليه، لأنها أقرب ما يكون إلى ذوق الإنسان المعاصر والقيم الجمالية التي تسيطر على مزاجه الفني^(١).

رابعا : ولعل من أهم سمات عصر الدولة الحديثة، النفوذ الكبير الذي كان لبعض سيدات الأسرة الثامنة عشر، الثلاثي لعبا دوراً فذاً في بعث روح الوطنية والمقاومة في هذه العائلة العظيمة، التي كان لها شرف تحرير التراب الوطني من سطوة الهكسوس، ثم بناء صرح الامبراطورية .

وهذه " كلمة موجزة عن بعضهن " :

١- الملكة " تتى شري"، جدة " الملك أحمنس الأول " التي ظل وفيها لذكرها حتى آخر سني حياته، وأقام لها أثرا كبير في " أبيدوس " ووضع به لوحة أبقي عليها الزمن، لتحكى قصة وفاءه لذكرها .

٢- الملكة " إع حوتب"، أي " القمر مطمئن"، أم " الملك أحمنس الأول " والتي يبدو أنها لعبت دوراً رئيسياً في حرب التحرير، وكان لها أثناء حياة ابنها، المقام الأول، إذ كتبت عنها في لوحة الكرنك :

" امدحوا سيدة البلاد، وسيدة جزر البحر الأبيض لاسمها محترم "
" في جميع البلاد الأجنبية، وهي التي تضسع الخطط للناس . "
" زوجة ملك وأخت ملك وأم ملك...هي العظيمة القديرة، التي تهتم "
" وتضطلع بشئون مصر- وهي التي جمعت جيشها وحملت "
" الناس، وأعدت الهاربين . ولدت شتات المهاجرين وهدأت ساحل "
" بالصعيد من خوف، وأخضعت من كان فيه من عصاه، الزوجة "

"الملكة "إع حوتب" لها الحياة".

١- ثروت عكاشة، سبق ذكره ١٩٩٠، ص ٣١٦-٣٣٦. وكذلك كتاب نفس المؤلف عن البحث والتصوير ، وقد سبق ذكره .
ص ٧٠٠ ٧٢٢ وكذلك Gardiner, pp. 219-220

٣- " الملكة أحمس نفرتارى"، التى تزوجت من أخيها "كاس"، ثم من أخيها "أحمس الأول"، وظل نفوذها كبيراً حتى عهد الملك "أمنحوتب الأول". ولسبب غير معروف، بدأ المصريون يقدسونها منذ أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر وحتى الأسرة العشرين.

٤- "الملكة حتشبسوت"، ابنة الملك "تحوتمس الأول"، والملكة "أحمس نفرتارى". كانت قوية الشخصية، لا حدود لطموحها. ورثت الصفات القوية الفذة التى اتسمت بها سيدات هذه العائلة. أصرت على حقها المقدس فى "عرش تامرى" وأمرت أنصارها بأن يروجوا لقصة بنوتها من "آمون رع". حكمت مصر بحزم، وظلت صاحبة الكلمة العليا، حتى قدر "الملك تحوتمس الثالث"، أعظم الملوك العظماء، الانتصار عليها. وعلى الرغم من إصراره على اقتلاع كل آثارها من على أرض مصر، إلا أنه لم يفلح فى جعل تاريخ مصر يكف البصر عنها، وظل معبدها الخالد فى الدير البحرى، يحفظ للإنسانية كل تاريخها^(١).

ومن الجدير بالذكر، أن المرأة، وإن اختلفت عن الرجل، إلا أن كل منهما يكمل الآخر، وكانت الشرائع والعقائد السائدة، منذ فجر التاريخ، تعامل المرأة والرجل على قدم المساواة، وتقر للمرأة نفس الحقوق المقررة للرجل. بل ويذهب بعض الدارسين المعاصرين، إلى أن المرأة الفرعونية، قد تمتعت بحقوق، لم تتمتع بها امرأة فى أى عصر من العصور حتى اليوم^(٢).

١- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٢١٦-٢١٨ وص ٢٢٨-٢٢٩ ومن الجدير بالذكر أن "جاردنر" أصر على وصف الملكة حتشبسوت "بأنها كانت ديكتاتورة مستبدة أسوأ".

Gardiner, op cit, pp. 175-188, especially, p. 182.

Desroches Noblecourt, christiane, La Femme au Temps des Pharaons, stock / Laurence Pernoud, * Paris, 1986

المبحث الثالث

الأحوال الاقتصادية في عصر الدولة الحديثة

نعرض في هذا المبحث لموضوعين أساسيين، أولهما النظام الاقتصادي في عصر الدولة الحديثة، وثانيهما أهم ملامح الأحوال الاقتصادية في هذا العصر.

أولاً : النظام الاقتصادي في عصر الدولة الحديثة:

تمتع المواطن العادي، من حيث المبدأ، بكافة الحقوق المدنية كما تمتع بالحرية الاقتصادية بصفة أساسية . حقاً، لقد تعرض المواطن البسيط للظلم أحياناً، وتعرض لبعض مظاهر الاستغلال أحياناً، كما عانى كثيراً من الحاجة والعوز وشظف العيش، خاصة خلال فترات الانتقال والتدهور، أو عندما كانت البلاد تعاني من أزمات اقتصادية، بسبب قصور النيل أو لأي سبب آخر.

وعلى الرغم من وجود قدر كبير من التفاوت في الثروة والدخل بين طبقات المجتمع، خاصة في أواخر عصر الدولة الحديثة، إلا أن هذا التفاوت لم يكن يتبعه تقسيم طبقات المجتمع إلى سادة وعبيد، كما كان عليه الحال في ظل الحضارات الأخرى، مثل الحضارتين الإغريقية والرومانية^(١)، حيث كانت صفات الحرية والعبودية تكتسب بال ميلاد. أما في مصر، فلم تكن هناك مواقع قانونية أو اجتماعية أو عرقية، تحول بين الإنسان العادي ومزاولة النشاط الاقتصادي الذي يرغب فيه، أو تحول بينه وبين الارتقاء إلى أعلى مناصب الدولة، بما في ذلك اعتلاء عرش مصر^(٢).

وقد سبق أن رأينا، كيف تأكدت هذه الحقوق في عهد الدولة الوسطى، بعد

الثورة الاجتماعية الدامية التي أنهت عصر الدولة القديمة، وأعلنت من قيمة الفرد

١- كان الملك " امنمحات الأول " من أصل نوبي، ويرجح انه اغتصب العرش من الأسرة الحادية عشر، كما سبق أن رأينا.
٢- لم يكن الرقيق سوى عنصر من عناصر الذمة المالية للسيد، الذي كان له أن يتصرف في عبده كما يشاء، سواء في ذلك التصرفات القانونية مثل البيع، أو غير القانونية، مثل حق اذهاق روح العبد. أنظر في ذلك: مصطفى السيد وأحمد رشاد موسى، مقدمة من علم الاقتصاد، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٣، وصوفي أبوطالب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، سبق ذكره، ص ١٩٥٠ وعبدالمعظم بدر، تاريخ القانون، القاهرة ١٩٥٠.

وحقوقه. كما سبق أن رأينا، أن الملكية في مصر الفرعونية، كانت دائماً ملكية مقيدة، وأن الملوك كانوا يراعون كقاعدة عامة، العدالة أو " الماعت " في حكمهم وما، يصدره من قوانين، وفي معاملتهم لرعائهم .

ولكن ما هي طبيعة النظام الاقتصادي الذي عرفته الدولة الحديثة؟

يبدو لنا أن ذلك النظام، كان أقرب إلى نظام الاقتصاد الحر المودع، الذي يسمح بحق الدولة، ممثلة في الملك، في التدخل على نطاق واسع في النشاط الاقتصادي، كما يوفر لها بعض الحقوق ويحملها ببعض الالتزامات . وتوضح فيما يلي ما سبق إجماله:

١- كان الملوك، يحتكرون بعض الأنشطة الاقتصادية، التي تمثلت أساساً في الصناعات الاستخراجية، خاصة مناجم الذهب . كما كان عمال الملك يقومون، بالكثير من الأنشطة الاقتصادية لحسابه الخاص، مثل استغلال الأراضي الزراعية المملوكة له، أو رعاية ثروته الحيوانية، أو القيام ببعض الأنشطة الصناعية مثل صياغة الذهب..... وغير ذلك.

٢- كانت الدولة ، ممثلة في شخص الملك، تقوم بالإشراف على الزراعة والري، وصيانة منشآت الري، وتحديد مواعيده. فضلاً عن هذا، فإن الدولة كانت تحدد أحياناً المساحة التي يتعين زراعتها ببعض المحاصيل، كما كانت تنظم حق المزارعين من الانتفاع ببعض الأراضي الزراعية .

٣- ضبط وحماية المعاملات والأسواق من الغش، خاصة الغش في الأوزان والمكاييل.

٤- توفير الاستقرار الضروري للنشاط الاقتصادي، داخل البلاد وفي كافة أرجاء الامبراطورية .

٥- التدخل أحياناً لتقديم بعض المساعدات لمحدودي الدخل أو الفقراء، خاصة في أوقات الأزمات الاقتصادية .

أما الفرد، فكان من حقه مزاوله النشاط الاقتصادى الذى يروق له، فى نطاق شرائع الدولة وتقاليدها. فكان من حقه مزاوله أى حرفة، أو التوقف عن حرفة كان يباشرها. إذ لم تعرف مصر نظام الطوائف المغلقة، الذى قام عليه النظام الاقتصادى فى أوروبا فى العصور الوسطى. كما كان من حقه تملك العقار والمنقول، والتصرف فى ملكه فى حدود القانون. كذلك فإن من المؤكد أن هذا العصر، قد عامل المرأة والرجل على قدم المساواة .

ثانياً : تطور الأحوال الاقتصادية فى عصر الدولة الحديثة :

مكنت سيطرة مصر واتساع نطاق إمبراطوريتها ، من جلب خيرات هذه البلاد التى بدأت تتدفق على خزانها، حتى فاضت بالذهب والفضة وجميع ما فى العالم من ثروة وفن .

وقد انعكس هذا الثراء والرفاهية وما نعمت به مصر من أمن وسلام بعد بناء الإمبراطورية، فى التحسن الواضح فى مستوى رفاهية الملوك وأبناء الشعب . ومنذ عصر "أمنحتب الثالث" (١٣٩٧ - ١٣٦٠) كانت حياة الرفاهية والنعيم والمتعة والدعة نمط الحياة فى القصور الملكية، وكذلك حفلات الطرب والرقص التى لم تعد قاصرة على الملوك، بل عممت كافة طبقات الشعب. ويصف أحد المؤرخين هذا العصر فيقول :

" اتجهت الحياة الاجتماعية كلها نحو الدعة والاستمتاع بالحياة، وكانت "

"أسيرات الحرب خير معوان على ذلك ، فلم تقتصر حفلات الطرب "

"والرقص على القصور أو منازل كبار الموظفين، بل شمل ذلك جميع "

"الطبقات، ونشأت فى طيبة مشارب الجعة، وفيها المغنيات والراقصات "

" المحترفات ، وكان العمال وغيرهم من طبقات الشعب يقبلون على "

"هذه المشارب " .

ثم يستطرد المؤرخ ويضيف :

"ولا نستغرب بعد ذلك، أن يعم خطر هذه المشارب، فنقرأ في بردية من "البرديات، تحذير مدرس للتلاميذ من ارتيادها، أى مشارب الجعة، " وأصفاً لهم ما يجرى فيها من أعمال تنافى الخلق الكريم ^(١)."

ويؤكد ما وصلت إليه مصر من رخاء وانتعاش خلال عصر الدولة الحديثة، ما تركه هذا العصر من آثار، خاصة القصور وبيوت موظفي الدولة وعامة الشعب والطبقة العاملة. وكان البيت ولو صغيراً لأحد العمال ، يمثل البيت الضروري لإنسان متحضر. كما تعكس زينته قدراً ملحوظاً من الإحساس بالفن والجمال ورقة الذوق. كذلك من أهم الدلائل، على ارتفاع مستوى الحياة في هذا العصر، شغف غالبية المصريين بالزهور، والتشجار استخدامها، خاصة في زينة النساء والترحيب بالضيوف، الأمر الذي دفع كثيراً من السكان إلى بذل عناية فائقة بتربيتها، كجزء لا يتجزأ من حديقة المنزل. ويبدو ذلك واضحاً في آثار عصر "توت عنخ آمون" والصور والجداريات التي لا تكاد تخلو واحدة منها من رسم لزهور ^(٢).

بل ويؤكد أحد الباحثين أن المنزل النمطي للطبقات المتوسطة في هذا العصر في العمارة، كان يتمثل في "فيلا" تقام على مساحة مستقلة من الأرض، تحيطها بعض المباني التابعة للتخزين والطبخ ومبنى للمركبة (chorito) ومكان للعبادة (chapel). وكانت "الفيلا" تنقسم عادة إلى ثلاثة أقسام ، قسم لاستقبال الضيوف ومنطقة وسطى للمعيشة وفي خلف الدار حجرات النوم. وكانت تخدم الفيلا غرضين: تنسيق التصميم وسهولة المعيشة والتحرك . modulator and harmonic design system ^(٣) . وتعكس الزخارف الداخلية وزخارف الوجهات، عناية وتذوق للقيم الجمالية، واكتمال عناصر الهندسة المعمارية.

١ - أحمد مبرى، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٠.

٢ -

Badawy, Alexander, op. cit., p26.

٣ - كان أصحاب المنزل يحصلون على المياه من النيل أو من بئر خاص ، أما مياهها فكان يلقى بها في الصحراء . أنظر في ذلك Badawy , op, cit, p 25-28 . بل وتدل بعض الآثار، أن مصر عرفت في عصر الدولة الوسطى، بعض نظم الأولية لنصرف الصحي، للتحلص من مياه الأمطار من المدن . عبدالعزیز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره ، ص ١٨٨-١٨٩

ولكن هذا الرخاء لم يدوم. ففي أواخر عهد الاسرة الثامنة عشر، بدأ تدهور أحوال مصر الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من محاولات " حور محب " إصلاح أحوال البلاد الداخلية ، وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلها " رمسيس الثاني " لإصلاح أحوال البلاد واستعادة مجدها الامبراطورى. وعلى الرغم من أن محاولة " رمسيس الثالث " السير على نفس الدرب، قد أسفرت عن بعض النجاح وتحسنت أوضاع البلاد الداخلية كما استعادت نفوذها الخارجى. إلا أن هذا النجاح لم يدم طويلا . إذ عاد التفكك من جديد ، وتردت مصر فى قاع الفوضى والانهيار . وأخذ الخراب يستشرى فى جذور شجرة الحضارة، وبدأت شمسها تنحدر نحو المغيب، ولم تفلح بقطة ' العصر الصاوى " فى أن تعيد إلى هذه الشجرة جذوة الحياة مرة أخرى ، أو تحول بين مصر ومصيرها المحتوم .

ونعرض فيما يلى لبعض مظاهر التدهور:

١- الصراع من أجل العرش : كان من أهم عوارض وأسباب الانهيار . بداية الصراع على الملك ، وماتبع ذلك من كثرة المؤامرات داخل البلاط الملكى . وكان من أشهر هذه المؤامرات الملكية المؤامرة التى دبرتها " الملكة تيبى I" إحدى زوجات "رمسيس الثالث" لقتله ، بعد أن تبين أنه أختار لولاية العهد ، أحد أولاد زوجة أخرى . وقد عاون تيبى " بعض كبار موظفى البلاط، كما حاول بعض قضاة التحقيق دفع التهمة عنها^(١).

٢- انهيار العدالة وتفشى الفساد بين القضاة : فقدت المحاكم أهميتها فى أواخر عصر الدولة الحديثة، وأستحوذ الكهنة على سلطة الحكم فى المنازعات، تحت ستار الادعاء بأن كل شكوى أو جريمة يجب أن يترك الحكم فيها للإله. فإذا اتهم شخص آخر بالسرقه، كان على كل منهما أن يضع ورقة بها دعواه أمام تمثال الإله فى المعبد للفصل فى الأمر. وكان الكاهن وحده يبلغ أطراف الدعوى حكم الإله .

١ أحمد حسن، المرجع السابق، ٣٧٧ - ٣٧٨ و ٣٨٠

وكان الحكم دائما لصالح الطرف، الأكثر قدرة على إرضاء ورشوة الكاهن. وفي إحدى القضايا الشهيرة التي تؤكد فساد القضاء، أن ثلاثة من القضاة المكلفين بالتحقيق في مؤامرة اغتيال "رئيس الثالث"، قضوا الليل مع اثنين من ضباط الشرطة، يعاقرون الخمر مع النساء في منزل أحد المتهمين . وبعد أن اكتشف تواطؤهم، حولوا إلى المحاكمة وصدرت عليهم الأحكام، فأثر أحد القضاة الانتحار بعد أن سمع الحكم عليه^(١).

٣- أزمة اقتصادية كبرى : وكان من أهم مظاهر هذه الأزمة الطاحنة، نقص المعروض من السلع، خاصة الحبوب مثل القمح والشعير، التي شحنت في الأسواق وأخذت أسعارها في الارتفاع، خاصة في عهد الأسرة العشرين. فقد ارتفع سعر غرارة القمح من "دين" واحد من النحاس، إلى خمسة "دين" في عهد "رئيس التاسع"، أما غرارة الشعير فوصل ثمنها إلى ثمانية "دين".

ومع ارتفاع الأسعار، تفاقمت مشكلات صغار الموظفين والعمال، حتى عز عليهم أن يجدوا ضروريات الحياة، أو ما يسد الرمق. واشتدت محنة العمال، خاصة عمال المعابد والمقابر، بسبب عدم حصولهم على مستحقاتهم، الأمر الذي دفعهم إلى الإضراب عن العمل عدة مرات، فكانوا يتظاهرون وهم يصيحون "نحن جوع". وعندما تدخل "الوزير" "تو" "To" لاعطاء العمال المضربين خمسين غرارة من القمح من مخازن "معبد الرمسوم"، اعتبر كبير كهنة "رع" تصرف الوزير "جريمة كبرى"^(٢).

٤- انهيار هيئة الدولة: شهد هذا العصر، اشتداد الخلاف بين حكام الأقالييم، وتمردهم على سلطة الملك. بل لقد بلغ الأمر حد إعلان بعضهم استقلاله عن الملك، كما تجرأ أحد وزراء "رئيس الثالث" على الثورة على ملكه. وكان مركز الثورة مدينة "أتريب"، أو بنها حاليا.

١- المرجع السابق، ص ٢٧٨.

٢- تعرف إحدى البرديات القديمة "بردية الاضراب"، وقد نشرها "جاردنر" في كتابه. Gardiner A, Remesside Administrative Documents, London 1948 وقد ترجمت هذه البردية ترجمت أخرى، كان منها ترجمة "إدجرتون" W.F. Edgerton التي نشرت في عام ١٩٥١، أنظر: أحمد مخرى، المرجع السابق الذكر، ص ٢٨١-٢٨٣ وكذلك كتاب "جاردنر" الذي سقت الإشارة إليه، ص ٢٨٨.

وقد رأينا فيما سبق، كيف فقد الملك الكثير من سلطاته فى أواخر أيام حياته، حتى تجرأت إحدى زوجاته على التآمر عليه بمعاونة رجال بلاطه. وكان من أوضح مظاهر انهيار الدولة، تفشى الفساد والرشوة بين موظفيها، وانتشار سرقة مقابر الأفراد ثم مقابر الملوك، حتى أصبحت ترتكب نهاراً، ويعلم بها المسئولون عن حراستها من موظفى الدولة. فقد عرف سارقوا المقابر، كيف يضمنون سكوت هؤلاء المسئولين، عن طريق رشوتهم. وتحفل وثائق هذا العصر، بإخبار هذه السرقات الكبرى للمقابر والأموال الأفراد، وكيف كان الجار يذبح جاره. باختصار : لقد بلغت هذه الجرائم من التفشى قدراً لم تعرف مصر مثيلاً له من قبل^(١). ومن المؤسف، أن سرقة كنوز المقابر، قد سرقت معها جزء هام من تاريخ مصر.

٥- استحواذ الكهنة على الثروة والسلطة : كان تولى العرش ملوك ضعاف خلال فترة حكم الأسرة العشرين، فرصة ذهبية للكهنة، خاصة " كهنة آمون رع "، للاستحواذ على قدر كبير من الثروة القومية. بل وصل الأمر إلى أن الملوك أنفسهم كانوا يقدمون لهم العطايا لكسب رضائهم، كما سنرى فى حينه. وفى نفس الوقت، زاد نفوذهم السياسى بشكل خطير، حتى أصبحوا يتحكمون فى مقدرات البلاد، واحتكار سلطة الحكم فى القضايا المدنية والجنائية، كما امتد نفوذهم ليشمل تعيين الموظفين وسلطة جمع الضرائب المقررة على المواطنين لصالح الدولة.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك، سلطة الكاهن الأكبر "أمنحوتب" فى عهد "رمسيس التاسع". فقد كان كبير الكهنة فى جميع المعابد المصرية. كما كان فى نفس الوقت المشرف على خزائن الملك وحامل أختامه. كما كان من حقه جباية أموال وضرائب " الإله آمون ". وقد اعتمد " أمنحوتب " فى ذلك على كتبة المعابد وليس موظفى الدولة المختصين بجمع الضرائب. وكانت الإيرادات المتحققة تدخل خزائن المعابد ولا تمر على خزائن الملك.

1- Peet , T.E., The Great Tomb Robberies of The Twentieth Dynasty, Oxford, 1930". and Gardiner , op. cit , pp. 298-299

وتدل آثار هذا العصر، أنهم كانوا يظهرون في الصور على قدم المساواة مع الملوك. وإن كانت الوثائق تؤكد أن السلطة الحقيقية كانت في أيديهم لا في يد الملوك خاصة في جنوب مصر^(١).

ووصلت المأساة فصلها الأخير، عندما قفز " الكاهن حريحور "، إلى العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين، أو " أسرة الكهنة " لأول مرة في تاريخ مصر. وكانت هذه الأسرة أسرة دينية لقراراتها صفة القدسية^(٢).

٦- كثرة الأجانب في البلاد : رأينا فيما سبق، كيف ترتب على تقوية العلاقات بين ملوك الحقبة المتأخرة من عهد الأسرة الثامنة عشر وحكام غرب آسيا، بداية جلب الأجانب، إلى مصر للمساهمة في تطوير الحرف والصناعات المصرية. ومع تعمق الصلات بين مصر وهذه المنطقة ازدادت هجرة الآسيويين إلى مصر.

وخلال عهد الأسرة العشرين، كثر عدد الأجانب في وظائف البلاط، كما أشتد نفوذهم كما أخذ الملوك الضعاف، بعد أن تدهورت الثقة بينهم وبين أبناء الشعب، في الاستعانة بالجنود المرتزقة لحمايتهم ضد أبناء البلاد. بل لقد وصل نفوذ الأجانب في هذا العصر، أن حاول أحدهم وهو " إرسو " السوري الأصل، اغتصاب عرش مصر^(٣).

وفي نفس الوقت الذي شهد تسرب الوهن إلى أوصال مصر، كانت بلاد آشور وبابل وفارس تقوى، وتحاول أن تنزع من مصر السيادة على الشرق الأدنى وتجارة البحر المتوسط. كما استطاع الدوريون والآخيون الاستيلاء على جزر كريت وبحر إيجه، وأصبحت قوافل التجارة في الشرق الأدنى عرضة لهجمات اللصوص وقطاع الطرق.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد أسباب الانهيار. ويرى البعض أن تعرض البلاد لغزوات " شعوب البحر "، وهم قبائل هنود أوروبية عاشت في كل أرجاء المنطقة فسادا، وحاولت أكثر من مرة غزو مصر.

Gardner, op cit , p 299

١ - أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٨١-٣٨٢ وكذلك :

٢ - ثورب عكاشة، الفن المصري القديم، الجزء الأول، ص ١٧٣

٣ - أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٦٩

ولكننا نرفض هذا الرأي. لأن هذه الغزوات، أو ظهور هذه "البروليتاريا الخارجية" على مسرح الأحداث ومحاولتها انتهاك قدسية أراضي مصر، إنما كان نتيجة لتدهور مصر داخلياً وتقلص نفوذها خارجياً، ولم تكن سبباً لهذا التدهور.

ونعتقد أن السبب الأساسي لثردى أحوال مصر، إنما يرجع إلى تولى العرش فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر، ملوك شغلوا بأمور أخرى، غير مصر وإمبراطوريتها وشعبها. أنغمس أحدهم فى ملذاته وحريمه وخمره، والآخر فى فلسفته ودعوته وأتباعه التى تمجد "أتون"، كما سبق أن رأينا، ملوكاً أكتفوا بأن يعيشوا عالية على مجد الغابرين من أبائهم وأجدادهم، يسرفون فى العطايا والهبات وتبديد ثروات البلاد، ونسوا أو تناسوا مسئولية الخلق والإبداع، كما تناسوا أو نسوا مسئوليتهم نحو رعاياهم.

وهكذا بدأ أبناء مصر، بعد أن أخذ الفقر والظلم يطحنان أوصالهم، يعتزلون الأقلية المسيطرة، بعد أن شعروا أنهم غرباء فى وطنهم. وهكذا انهارت الثقة بين الأقلية المسيطرة والأغلبية المغلوبة على أمرها. وبدأت الأقلية، ممثلة فى الجالسين على العرش، يستعينون بالجنود المرتزقة، لكى يوفرُوا لهم الحماية من أى اعتداء محتمل للأغلبية التى بدأ يصعب عليها أن تجد ما يسد الرمق.

ومع ظهور مجموعة من الملوك الضعاف على مسرح الأحداث، فى عهد الأسرة التاسعة عشر والأسرة العشرين، ازدادت الأحوال تدهوراً، وعمت الفوضى البلاد، وانهار صرح الإمبراطورية، وأخذت المأساة تسرع الخطى نحو قمتها.

المبحث الرابع

الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية

كانت الزراعة، بمفهومها الواسع، أى الإنتاج الزراعى والحيوانى والثروة السمكية، أهم عناصر الثروة القومية والمصدر الأساسى للدخل القومى، كما كانت المورد الأساسى، إن لم يكن الوحيد، لغذاء السكان. كما كانت الزراعة توفر فرص العمل لغالبية سكان مصر فى هذا العصر .

ونتيجة لما سبق، كانت الزراعة تحظى برعاية واهتمام ملوك مصر، كما كانت تخضع لتوجيه وإشراف الدولة. فكان من بين موظفيها، المشرفون على صوامع الغلال ومحاصيل الأقاليم، والمشرفون على الثروة الحيوانية، والمشرفون على مصايد الأسماك وعلى قطعان الماعز والغزلان والحمير.

فضلاً عما سبق، اهتمت الدولة اهتماماً بالغاً بالنيل إلى حد التقديس، كما كانت تبذل جهوداً رائعة، لتنمية وتطوير وصيانة مشروعات الري. فقد كان النيل مصدر الخير كما كان مصدر الشر، وكثيراً ما ترتب على الفيضانات العالية أو قصور النيل، إصابة البلاد بالفقر، وقد يصل الأمر إلى حد القحط والمجاعة، كما حدث مثلاً فى عهد "سنفرو" أحد ملوك الدولة القديمة^(١).

ولهذا، كانت الدولة تفرض عقوبات صارمة، على كل من يتسبب، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فى الإضرار بمنشآت الري، أو يتعدى على حرمة النهر المقدس^(٢).

وقد شهد عصر الدولة الحديثة بصفة خاصة، ظهور ملوك حرصوا على تنمية الزراعة وتنوع الحاصلات الزراعية، من خلال جلب النباتات والحيوانات والطيور التى لم تكن معروفة فى مصر، من البلاد المجاورة. وهذه بعض الأمثلة :

١ - أنظر الفصل الخامس بعصر الدولة القديمة من هذه الدراسة.

٢ - ينضح من بعض الوثائق أن الدولة قامت بجهد رجل على قدميه، لأنه سرق من المخازن الحكومية بعض الأخشاب والخيال، التى كانت ضرورية للقيام بأعمال صيانة وحفظ جسور بعض قنوات الري. أنظر : بوى، المرجع السابق، ص ٦٤-٦٥.

أولاً : "الملكة حتشبسوت" : قادت هذه الملكة بعثة تجارية إلى بلاد "بنت"، في السنة التاسعة من حكمها حوالي عام ١٥٠٤ قبل الميلاد. وكانت الملكة تهدف إلى إقامة علاقات متعددة مع هذا الإقليم، وكانت البعثة مكونة من خمس سفن شراعية كبرى، اتجهت من طيبة شمالاً في النيل، حتى إذا ما بلغت وادي "طميلات"، سارت في قناة تخترق البحيرات المرة، حتى وصلت إلى البحر الأحمر، ومنه اتجه الأسطول جنوباً إلى بلاد "بنت".

وقد عاد الأسطول محملاً بكثير من المنتجات الزراعية النادرة وغيرها، مثل أشجار الكندر والعطور والمر والأباتوس والقرفة والعاج والكحل والبلسم والراتنج والتوتية الزرقاء للتكحل. هذا بالإضافة إلى الذهب والفضة واللازورد والفيروز والأصداف والعاج والكحل، ومجموعة من الكلاب والزراف والقردة. وقد جلبت هذه البعثة بعض الحيوانات النادرة، ومنها الشيران والزراف والفهود والكلاب والقردة والنسائيس، وكذلك بعض جلود الحيوانات. وقد اتضح من بعض الوثائق، أن الملكة قد أمرت فعلاً بزراعة بعض الأشجار العطرية التي جلبتها، أمام معبدها بالدير البحري^(١).

ثانياً : "تحتمس الثالث" : أبدى اهتماماً شديداً بالزراعة المصرية. وكان يأمر رجاله المنتشرين في أرجاء إمبراطوريته الواسعة، بجلب النباتات إلى مصر وكان من بينها الرمان والعنب، وكثيراً من الأزهار، مثل اللوتس الأزرق والزنبق، أو السوسن الأبيض، والبنجر والأقحوان والياسمين. كما جلب بعض الحيوانات مثل الشيران والخيول والأغنام الآسيوية، كما جلب إلى مصر بعض الطيور ومنها الدجاج.

كما أقام تحتمس الثالث "حجرة للنباتات"، في إحدى قاعات بهو الأعمدة بمعبد الكرنك بالأقصر. وتدل النقوش والصور التي سجلت لهذه النباتات، اتسامها بدرجة عالية من الدقة والروعة، بحيث أصبحت مرجعاً هاماً لعلماء النباتات والحيوان المعاصرين^(٢).

١- أنظر فيما سبق، ولهم بطير، المرجع السابق، ص ٢٩٦ - ٢٩٧. وتوجد رسومات لما جلبته "حتشبسوت" على السطح الأول لمعبد "الدير البحري"، أنظر : عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
٢- ولهم بطير، المرجع السابق ذكره، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

ثالثاً : "الملك سبتي الأول" : أصدر مرسوماً ملكياً بتوقيع عقاب شديد على كل من يسلب راعياً ويتسبب في فقد أو هلاك ماشيته، وبضرورة تعويضه عن الماشية المفقودة. كما توعّد الراعى السارق بالهلاك على الخازوق واسترقاق زوجته وأولاده. كما توعّد من يشتري الماشية المسروقة برد مائة مثلها. كما فرض عقوبات صارمة وعنيفة على المعتدين على حرمة أملاك المعابد ومراعيها^(١).

كما اهتم ملوك هذا العصر اهتماماً بالغاً بالثروة الحيوانية والداجنة، وكذلك الثروة السمكية، وكانوا أول شعوب الأرض الذين استأنسوا النحل لإنتاج العسل كما يتضح فيما بعد.

١- الثروة الحيوانية والداجنة والثروة السمكية:

عرف المصريون عبر تساريخهم الطويل، بحبهم الشديد الطيور والرفق بالحيوان. فكانوا يطعمونها بأيديهم، بما في ذلك الثماسيح، والتي كانوا يعتبرونها من الحيوانات المقدسة. ويؤكد ذلك الكثير من وثائق العصر التي تبين في وضوح تام، مدى اهتمام الملوك والأفراد بالثروة الحيوانية والداجنة. ومن الطيور التي عرفوها البط والوز والدجاج والحمام.

وكان المصريون أول من عرف التفريخ الصناعي للبيض، إذ لم يكن معروفاً في البلاد الأخرى. وكانوا يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار، ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب وغيرها أثناء الليل. ومن الغريب، أن الكثير من المصريين، ظلوا محافظين على معامل التفريخ في الريف حتى الوقت الحاضر، دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر على الرغم من مرور آلاف السنين^(٢).

فضلاً عما سبق، فقد اعتنى المصريون بالثروة السمكية، وكان يقوم بالصيد صيادون محترفون، يزاولون الصيد في النيل والبحرين الأبيض والأحمر وبعض البحيرات الداخلية.

١- عبد المريز صالح، المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

٢- بوى، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

وكانت حصيلة صيد الأسماك، تمثل مصدر أساسى من مصادر الغذاء فى مصر فى تلك العصور، خاصة بالنسبة للطبقات الفقيرة. وتدل بعض الوثائق التى ترجع إلى هذا العصر، على وفرة السمك وإسهامه بنسبة كبيرة فى غذاء المصريين، كما كانوا يكتثرون من أكله فى الاحتفالات^(١). ومن الغريب، أن السمك كان محرماً على رجال الدين، لسبب غير معروف^(٢).

٢- عسل النحل :

كانت النحلة من أوائل الحشرات التى نجح الإنسان فى استئناسها والاستفادة منها، وذلك فى عصور ما قبل التاريخ قبل أن يعرف كيف يبدون تاريخه ويسجل أحداثه. وقد حدث هذا لأول مرة على أرض مصر. وكان الفراعنة يعتبرون العسل غذاءً مقدساً يقدمونه قرباناً للآلهة، كما كانوا يداوون به المرضى ويستخدمون شمع العسل فى إنارة المعابد وتحنيط الموتى. كما كانت النحلة علماً يدرس فى المعابد، ويدرسه الكهنة، حتى يعرفون كيف يمكن الاستفادة منه فى الطب والتشريح. وقد استمرت حياة النحل سرّاً مقدساً، يتداوله أحفاد الفراعنة من أقباط مصر، جيلاً بعد جيل حتى عهد قريب، وإلهم يرجع الفضل فى استمرار تربية النحل ثم انتشارها بين جميع شعوب الأرض.

إن تدل النقوش المنحوتة على جدران معبد "أسر رع" بأبى صير، على أن المصريين القدماء قد قطعوا شوطاً كبيراً فى هذا السبيل. فكانوا من بين البشر، أول من أسكن النحل مساكن من صنع الإنسان، صنعوها من القش والطين، على هيئة أسطوانات تشبه جزوع الشجر، يضعونها فوق بعضها فى شكل هرمى. ومن الغريب أن هذه المساكن لا زالت مستعملة فى تربية النحل فى ريف مصر حتى يومنا هذا^(٣).

١- فى أحد الاحتمالات، قدم عمر ستة آلاف سنة لبحر عشرة آلاف شخص، من الذين حضروا فى اليوم الأول من أيام الاحتمال، هذا بالإضافة إلى ما قدم بعد ذلك، للمدعوين الذين حضروا فى أيام الاحتمال التالية. ويتضح من هذا الوثيقة، أن معمار مساكن فى الورت من لحوم الدواجن والطيور قدم لهم المدعوين

٢- بى، المرجع السابق، ص ٢٥٤

٣- وهى التى تعرف الآن بالخلابا البلدية.

كما يستفاد من النقوش القديمة ، أن قدماء المصريين ، قد توصلوا إلى طرق فنية متقدمة في إنتاج العسل وخبثه وتنقيته . ومن الأمور التي تدعو للعجب ، أنهم عرفوا ما يسمى " بالتحالة المرتجلة " ، وهي أحدث الطرق الفنية المعاصرة لاستغلال المناحل . إذ كانوا يضعون خلايا النحل فوق السفن على هيئة هرم ، ثم تبدأ السفن بعد ذلك رحلة طويلة من أعالي الصعيد ، حيث يبدأ موسم تزهير النباتات مبكراً . ثم تقف السفن في محطات محددة لمدة كافية ، يقوم النحل بجمع الرحيق من الأزهار في المنطقة التي ترسو فيها السفينة ، بعد ذلك تتجه السفينة ببطء شمالاً . حتى تصل إلى مدينة " منف " ، وعندئذ تكون الخلايا قد فاضت بالعسل في موسم الفيض . وفي " منف " يقوم النحالون بقطف العسل من الخلايا وبيعه في أسواق المدينة . ثم يتجهون شمالاً في النيل ، ليجمعوا العسل من مناطق الدلتا بنفس الطريقة حيث يبدأ موسم التزهير متأخراً ، ثم يعودون مرة أخرى إلى " منف " بعد أن يكونوا قد جمعوا عسل الدلتا ليبيعه في أسواق المدينة ، ثم يعودون بعد ذلك من حيث أتوا^(١) .

هذه الرحلة العجيبة تدل دلالة قاطعة على معرفة عالية ، بالكثير مما يعرفه الإنسان المعاصر عن عالم النحل .

هذا ، ونعرض فيما يلي لبعض النظم الخاصة بالزراعة في عصر الدولة الحديثة :

أولاً : ملكية الأراضي الزراعية .

تؤكد وثائق هذا العصر ، أن الملكية الفردية كانت ركيزة الاستغلال الزراعي وإن تعددت أنواعها . فبالإضافة إلى ملكية الملوك للأراضي الزراعية ، وجدت الأوقاف الدينية الخاصة بالمعابد والمقابر^(٢) . كما وجدت ملكية الأسرة وملكيات الأفراد ، سواء كانوا رجالاً أو نساء^(٣) .

١ - أنظر لمريد من التوصل مجلس الشورى ، لجنة الشؤون المالية والاقتصادية ، حفظ وصيانة وثيقة الثروة الزراعية في مصر ، القاهرة ١٩٩٧

٢ - صدر مرسوم ملكي في عهد الملك "أحموتب الثالث" بهدم من وقف بعض الأراضي لمعبد ملحدن "عصيرة" أمحوتب ابن حابر" وزير الأشغال العامة والكاتب الأعلى للجيش ، وأحد حكماء هذا العصر . ومن هذا ينصح أن عطايا ومسابات الملوك ، لم تكن قاصرة على معابد ومقابر الآلهة ، بل شملت أيضاً هبات وعطايا لمقابر بعض كبار رجال الدولة

٣ - تشير الوثائق أنه كان من حق المرأة استغلال الأراضي الزراعية والتعاضد بمسبها أو من سوب عنها ، بشرط أن تكون من بين الورثة ، وإن يوافق بقية الورثة على ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن ملكية الملوك للأرض الزراعية أو غيرها من عناصر الثروة، إنما كانت ملكية خاصة، ولم تكن ملكية عامة للدولة. إذ لم يكن هناك فصل بين شخصية الملك والدولة كشخصية معنوية، بل كان الملك هو الدولة. ولذا لم تكن ملكية الملوك في تلك العصور، تختلف عن الملكية الخاصة للملوك في العصر الذي نعيشه.

ثانياً : نمط توزيع الثروة القومية، خاصة الثروة العقارية:

يتضح من وثائق عصر الدولة الحديثة، أن الشطر الأعظم من الأراضي الزراعية خاصة الأراضي الزراعية الخصبة، كانت ملكاً خاصاً لفراغة مصر. فضلاً عن هذا فقد استأثر كهنة المعابد، وبصفة خاصة، كهنة معبد " آمون رع "، وكبار رجال الدولة وحكام الأقاليم ورجال الجيش، بنسبة كبيرة من الأراضي الزراعية، أما تصيب الأفراد من عامة الشعب في ملكية الأراضي الزراعية فكان محدوداً.

وعلى الرغم من أن الأوقاف الدينية في مصر الفرعونية، ترجع إلى عهود موغلة في القدم، إلا أن ملوك الدولة الحديثة وبصفة خاصة ملوك الفترة المتأخرة من هذا العصر، قد أسرفوا في هباتهم، وعطاياهم لكبار رجال الدين، على أمل كسب ولائهم^(١). كذلك شملت الهبات والعطايا رجال الجيش، الذين تمتعوا بمنزلة رفيعة في هذا العصر، نظراً لما بذلوه من جهد وما أقدموا عليه من تضحيات، من أجل إعلاء صرح الإمبراطورية المصرية. لهذا حرص ملوك هذا العصر، خاصة الملوك الذين أنتموا بنزعتهم العسكرية، مثل الملك " تحتمس الثالث "، وبعض الرعامسة، مثل الملك " رمسيس الثاني"، على أن يكفلوا لرجال الجيش كرامة العيش وكرامة المظهر. ومن الجدير بالذكر أن عدد رجال الجيش قد بلغوا نحو ٦٥٠ ألف جندي في عهد الملك " رمسيس الثاني"^(٢).

١- وتأكيدها حرص بعض الملوك على إرضاء كبار رجال الدولة لكسب ولائهم، وسواء كانوا من رجال الدين أو من الدوطين، حضر " الملك اسحوتب الثالث " إعلان واقعه بعض الأراضي لمعد ملحق بمقبرة " اسحوتب ابن حايو "، الذي كان أحد عليا القوم في عصره.

٢- وقد استنتج برزى من هذا، أن عدد سكان مصر قد بلغوا في ذلك العصر نحو ١٢ مليون نسمة. أنظر برزى، المرجع السابق ذكره، ص ٤٧- ٤٨.

ولكى يتضح مدى الاختلال الحاد فى توزيع عناصر الثروة القومية، بين فئات المجتمع المختلفة فى هذا العصر، نعرض فيما يلى بعض المعلومات المتاحة عن عناصر الثروة المخصصة للأوقاف الدينية، وبعبارة أخرى للكهنة :

١- بلغت الأراضى الزراعية المخصصة للأوقاف الدينية نحو ١٢-١٥ ٪ من جملة الأراضى الزراعية فى مصر فى ذلك العهد. وبلغ عدد القائمين على استغلالها من العامة والأرقاء نحو ٣٠٧٦١٥ عاملاً. وتدل بعض وثائق العصر على أن الملوك كانوا يحرمون على موظفيهم، الاستعانة بالعاملين فى الأوقاف الدينية، فى أى أعمال تخص موظف الدولة، أو حتى فى أعمال خاصة بالقصور الملكية. وبالإضافة لهذه الأراضى الزراعية، شملت الأوقاف الدينية الكثير من الحدائق فى كافة الانحاء ، بما فى ذلك الواحات المصرية.

٢- بلغ دخل معابد مصر فى ذلك العصر نحو مائة ألف مكيال من الغلال، كما استأثرت المعابد بخيرات ١٦٩ بلداً فى مصر، وخارج حدودها.

٣- يتضح من بردية "هاريس"، وهى من أهم وثائق عهد الملك "رمسيس الثالث"، أن نصيب "معابد الآلهة آمون رع" فى طيبة وحدها من المعادن النفيسة وغيرها، بلغ ما يعادل ٦٢ كيلو جرام من الذهب ونحو ١١٨٩ كيلو جرام من الفضة، ونحو ٢٨٥٥ كيلو جرام من النحاس^(١).

٤- قدرت الثروة الحيوانية الخاصة بمعابد "الآلهة آمون رع" بنحو ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية، وكان من بين هذا العدد نحو ٢٨٣٣٧ رأساً أهداها الملك "رمسيس الثالث" للكهنة دفعة واحدة.

٥- كانت المعابد تملك أيضاً نحو ٨٨ سفينة ونحو ٥٠ ترسالة لاصلاح وصناعة السفن.

١- ذكرت بعض المصادر أن الملك "رمسيس الثانى"، اعطى "معابد آمون" نحو ١٨٥ ألف "عزارة" من الحبوب، ونحو ٣٢ ألف كيلو جرام من الذهب ومليون كيلو جرام من الفضة. أنظر فى ذلك، ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص ١٧٣. ويذكر هذا المؤلف أنه اعتمد فى هذه البيانات على ما ورد فى بردية "هاريس".

بالإضافة إلى ما سبق، فكثيراً ما منح ملوك هذا العصر المعابد والمقابر الكثير من الأرقاء من أسرى الحرب، لكي يعملوا في الحقول والمناجم والمحاجر المملوكة لهم. وكثيراً ما كان الملوك، يعفون الأوقاف الدينية، خاصة أملاك معابد الآلهة من الضرائب.

هذا ويجب ملاحظة ما يأتي :

١- أن ما سبق لا يمثل حصراً شاملاً دقيقاً لملكية كافة المعابد والمقابر في ذلك العصر، إنما يذهب بصفة أساسية على أملاك كهنة " الإله آمون رع" دون غيره من الآلهة.

٢- لم يكن الأمر في ذلك العصر قاصراً على هبات الملوك للمعابد، إذ كان أفراد الشعب وخاصة عليّة القوم يخصصون الأراضي الزراعية وبعض الحيوانات وبعض العمال أو الأرقاء لخدمة المعابد أو لتقديم القرابين^(١).

ومن بين الملوك الذين اسرفوا بشكل ملحوظ في عطاياهم للكهنة، رغبة في كسب ولائهم للعرش، الملك "رمسيس الثالث". ففي عهده حظى كهنة "امون رع" بالقصيب الأكبر من غنائم الحرب ومن الخراج والاسرى. وقدرت مساحة الاراضى الزراعية المخصصة للأوقاف الدينية في عهده، بنحو ٧٥٠ ألف فدان، كما بلغت ثروتهم الحيوانية نحو نصف مليون رأساً من الماشية، بالإضافة إلى بعض عناصر الثروة الأخرى مثل الغلال والمعادن النفيسة التي كانوا يحصلون عليها^(٢).

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على الاسراف في الهبات و العطايا لكبار كهنة المعابد، ما يأتي :

١- تضخم ثروة الكهنة واستثمارهم بنسبة كبيرة من الثروة القومية والدخل

القومى. ونظراً لما كان يتمتعون به من مزايا عديدة، عمد بعض فراعنة العصور

١ - يرى بعض المؤرخين أن هبات الملوك والأمراء للأعراض الدينية، إنما كانت تصب أساساً على ما يعرف بالأراضى "الشرقية" أو تلك التي تتطلب الاستصلاح، الأمر الذى شجع في استصلاح الاراضى وتوسيع الرقعة المعمورة وبتوهم الربا انظر في ذلك نوى المرجع السابق، ص.

٢ - انظر لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع: احمد محمى المرجع السابق ذكره، ص ٣٧٦، ص ٣٧٨ وعاد. العربى صالح، الشرق الادنى القديم، المرجع السابق الذكر، ص ٣٥٦ ونوى، المرجع السابق، ص ٤٦ ٤٨ وحاشية رقم (١) ص ٤٨

المتأخرة، إلى ربط ابنائهم بالمعابد أو تعيين ابنائهم رؤساء لكهنة "الإله آمون"، وتعيين بعض الأميرات في منصب كبيرات الكاهنات للتبطل في معابد "آمون رع".

٢- اقتران هذا الثراء، باطراد زيادة نفوذ الكهنة، حتى أصبحوا في حقيقة الأمر المصدر الحقيقي للسلطة، خاصة في أواخر عهد هذه الدولة^(١). ومن المؤكد أن ثروات الكهنة قد تراكمت عبر احقاب طويلة، ولم تكن في حقيقة الامر نتيجة عطايا أو هبات ملوك عصر الدولة الحديثة وحدهم. وفي نهاية الأمر لم يعد في وسع الفراعنة الانتقاص من هذه الثروة أو من هذا النفوذ.

٣- استنزفت هذه العطايا والهبات موارد الدولة، حتى أصبحت خزائن ملوك الفترة المتأخرة من عصر الدولة الحديثة شبه خاوية، الأمر الذي أدى إلى مزيد من التدهور في سلطة ونفوذ هؤلاء الملوك.

وفي الوقت الذي تضخمت فيه ثروات ونفوذ عليا القوم، كانت الطبقة العاملة لا تستطيع الحصول على ما يكفل لهم حياة كريمة. بل لقد بلغ الأمر حد عجزهم عن الحصول على ضروريات الحياة، عندما تفاقمت أزمة مصر الاقتصادية في أواخر عصر الدولة الحديثة^(٢).

ثالثاً: حماية الملكية الفردية :

يتضح من كثير من الوثائق، أن الدولة كانت حريصة كل الحرص على توثيق التصرفات الناقلة للملكية أمام موظف مختص. كما كان من الضروري تسجيلها بمكتب تسجيل الوثائق. فضلاً عن هذا، كان لابد من اثبات هذه التصرفات، في سجلات إدارة المساحة، حتى يمكن إثبات الملكية وللرجوع إليها عند الاقتضاء، أي عند التنازع على العقار أمام القضاء.

بالإضافة إلى ما سبق، فغالباً ما كانت تشهر التصرفات العقارية، على لوحات

حجرية، توضع على حدود العقار.

١ - انظر في ذلك، جاردنر، بردية "الأحزاب" التي سبقت الإشارة إليها

٢ - أدى تدهور احوال مصر الاقتصادية، خلال الفترة المتأخرة من عصر الدولة الحديثة إلى انهيار هيبة الملوك، ووصول الأمر حد قيام أحد ورراء "ذلك رمسيس الثالث" بثورة ضد ملكه، وكان مركز الثروة مدنية "التريب"، حالياً "بها"، كما كثرت في هذا العصر مؤامرات رجال القصر بهدف قتل الملك نفسه، انظر، برزى المرجع السابق ذكره، ص ٦٧-٦٨ وعبدالعزير صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٢٦٧-٢٦٨.

كما كان هناك سجلات للضرائب فى إدارات بيت المال، يرجع إليها فى متابعة التصرفات المتعلقة بالعقارات. كما كان يستشهد بهذه السجلات فى إثبات الملكية. ويبدو أن الدولة، قد اعتادت تحصيل بعض الرسوم على إجراءات نقل الملكية منذ عصر الدولة الوسطى، وفى عصر الدولة الحديثة.

وتحقيقاً لاستقرار الملكية الزراعية، كان طول البقاء على الأرض وسداد المستحق عليها، يعتبران من شواهد ملكيتها. أى أن القانون المصرى القديم قد أقر مبدأ تملك الأرض بوضع اليد أو التقادم.

ومن الجدير بالذكر أن القانون كان يفرض عقوبات صارمة على الكتيبة العموميين، الذين يزورون مستندات، أو يضيقون أو يلغون بعض البنود فى مستندات التصرفات التى يقومون بتحريرها أو بتوثيقها. وكان العقاب فى هذه الحالة هو قطع يد مرتكب الجريمة^(١).

ويتضح من الوثائق التالية، الأهمية البالغة التى أعطاهها ملوك هذا العصر لحماية الملكية وضبط التصرفات الخاصة بها، باعتبارها العنصر الأساسى فى الثروة الزراعية. وفى مرسوم ملكى أصدره أحد ملوك هذا العصر، بتكليف أحد كبار موظفى الدولة بأعباء الوزارة، نقرأ ما يأتى :

"...إذا قدم أى إنسان شكوى إلى الوزير، تتعلق بالحقول، وجب على "

"الوزير أن يستدعيه شخصياً، وبعد ذلك يستمع إلى مدير المزارع"

"وهيلة المساحين. ويمكن أن يمهل (الشاكى) شسهرين، إذا كانت "

"أرضه فى الصعيد أو فى الدلتا. أما إذا وقع حقله قريباً من العاصمة "

"الجنوبية (أى طيبة) ومن البلاط أمهله ثلاثة أيام فقط، وفقاً للقانون. "

"فالوزير ينبغى أن يفهم مشكلة كل متظلم، وفقاً لهذا القانون الذى فى "

"يده، وإن يتدب محكمى المنطقة ويوفدهم، حتى يقرروا له شخصياً "

"حال أحياءهم. "

١ - عبد الرحيم صدقى محمد حسنى، القانون الجنائى عند المراجعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ ص ٣٩.

" كما ينبغي أن تقدم إلى الوزير، كافة الوصايا ليوقعها بنفسه. "

" والوزير هو الذى يباشر حصص الأراضى^(١) فى كل الأماكن، وإذا "

" قال هناك أن حداً متنازع عليه، وجب التثبيت أولاً من وجوده "

" تحت ختم الموظف المسئول هناك، ثم يحتجز من وضعوا أيديهم "

" عليه من المجلس البلدى. أما إذا كانت هناك حالة شاذة^(٢)، هى "

" ومتعلقاتها، فلا ينبغي النظر فيها. "

وقد ورد فى نفس الموسوم الملكى، كشرط لقبول الشكوى ما يأتى :

" ... ويتعين على كل فرد أن يقدم شكواه مكتوبة، ولا يسمح له "

" بالشكاية الشفوية. وكل من يتظلم لفرعون يجب على الوزير^(٣) أن يبلغ "

" عنه بعد أن يقدم عريضته^(٤). "

رابعاً : طرق استغلال الأراضى الزراعية :

كثيراً ما كان يقوم مالك الأرض بزراعتها بنفسه هو وأولاده^(٥). وكان يهتم بذلك اهتماماً كبيراً، وإذا اضطرت الظروف للسفر بعيداً عن الأرض، غالباً ما كان يكتب لأولاده ليؤكد ضرورة اهتمامهم بالأرض كما سبق أن رأينا.

كما عرفت مصر فى تلك العصور، نظام تأجير الأرض لمستأجريها. وكان عقد الإيجار ينصب فى أغلب الحالات، على سنة زراعية، تنحصر بين محصولين زراعيين متتاليين. وكان يقوم بكتابة عقود الإيجار، كاتب عمومى على دراية بالقانون، ويقوم بالتوقيع عليها مع بعض الشهود. وكان عقد الإيجار يتضمن مساحة الأراضى المؤجرة ومدة عقد الإيجار، ويحدد قيمة الإيجار المتفق عليه، وما إذا كان سيدفع عيناً أو نقداً.

١ - أى حصص الإيجار أو حصص المصايد، طبقاً لما ذكره عبدالقادر صالح، الأرض والعلاج فى مصر العربية، المرجع السابق.

٢ - ذكره، ص ٦.

٣ - أى غير مسجلة طبقاً لتفسير المرجع السابق ذكره.

٤ - طبقاً لما أصدره المرجع السابق الذكر.

٥ - المرجع السابق الذكر، ص ٣٦.

٦ - اعتمد العلاج من زراعة الأرض، خلال تلك الحقبة من تاريخ مصر العربية على بعض الأدوات الزراعية التى لا تختلف اختلافاً يذكر عن مثيلاتها المستخدمة حتى اليوم. ومن بين هذه الأدوات العنق والعمدة والمحرث والمجمل والمندرة والمطبة والبورج، وكانت تصنع أساساً من الخشب. أما آلات الرى فكان من أهمها الشادوف والظنور والساقية، أبطر وليس غطر. - المرجع السابق الذكر، ص ٥٩ - ٧٠.

كما كان العقد يتضمن وصفاً للأرض المؤجرة، وهل هي أرض خالية أو بها أشجار. كما كان يحدد موقعها تحديداً دقيقاً، ويذكر الاسم الذي اشتهرت به. ولا شك أن مثل هذا التحديد الدقيق، قد قلل إلى حد كبير من احتمالات النزاع والخصومة بين الأفراد. كما كان الغالب الأعم، أن يقدم المؤجر للمستأجر البذور كقرض، ليضمن زراعة الأرض وجودة المحصول. وأحياناً كان مالك الأرض يقرض المستأجر بعض أدوات الزراعة أو الثيران لحرث الأرض.

ويلاحظ، أن المقترض كان يتعين عليه أن يدفع فائدة للمقرض، وإن هذه الفائدة كانت مرتفعة جداً، يبلغ متوسطها ٥٠ ٪ وأحياناً كانت تصل إلى ١٠٠ ٪ من أصل القرض. وأحياناً كان القرض يقترب برهن بعض الأشياء التي تؤول ملكيتها للمقرض، إذا عجز المقترض عن الوفاء بدينه .

وإذا تسلم المستأجر البذور من المالك، ولم يقم بزراعة الأرض، وجب عليه دفع الإيجار كما ينص العقد، كما كان يتعين عليه أن يعيد البذور أجر إلى صاحبها. أما إذا حدث وكان الفيضان منخفضاً ولم يستطع المستأجر الانتفاع بالأرض، تعين إعفاؤه من دفع الإيجار، بشرط إعادة البذور إلى المالك. كما يجوز في هذه الحالة للمستأجر أن يمد عقد الإيجار عاماً آخر، تعويضاً له عن عدم إمكان استغلال الأرض في العام السابق.

وكان عقد الإيجار يتضمن عادة شرطاً جزائياً، على من يخل بأحكامه. وأحياناً كان يتم زراعة الأرض، وفقاً لنظام المشاركة أو المزارعة بين المالك والمستأجر في زراعتها. وفي هذه الحالة يلتزم المؤجر بعدم التعرض، ويلتزم المستأجر بأن يؤدي إليه الإيجار، خالصاً بعد جمع المحصول، وفي المكان الذي يحدده المالك. كما يتفق في العقد على أيهما المسنول عن دفع ضريبة الأرض.

وكما كان الأفراد يستغلون الأرض، إما عن طريق الإيجار أو نظام المشاركة، كانت الدولة والقصر الملكي والمعابد، تؤجر حصصاً من أراضيها تختلف مساحتها باختلاف طوائف المستأجرين. وكان المستأجر يستأجر الأرض عادة لمدة معينة تنتهي بتهاية عقد الإيجار. ولكن في كثير من الحالات كان يمكن توارث عقد الإيجار برضاء

الطرفين. وتشير بردية " فيليور " والتي ترجع إلى عصر "الرعامة"، أن الأرض التي كانت مملوكة لمعابد أو أفراد، وآلت إلى البلاط الفرعوني، قد أعيد تقسيمها إلى حصص بعضها كبير وبعضها صغير. وكان المسئولون عن زراعة هذه الأراضي من طوائف مختلفة، فمنهم الكهنة والموظفون والجنود والصناع كما كان منهم الخدم. ومن هؤلاء من كانوا ذكورا أو إناثا. ويبدو أن هذه الأرض كان لأصحابها حق الانتفاع بها، إما أن يزرعوها بأنفسهم أو يؤجروها للغير.

خامساً : أهم المحاصيل الزراعية^(١) :

عرفت مصر في عصر الدولة الحديثة الكثير من الحاصلات الزراعية، التي ورثتها عن العصور السابقة. وفي نفس الوقت حرص بعض ملوك هذا العصر على جلب الكثير من النباتات والحيوانات والطيور التي لم تكن معروفة في مصر، من الدول المجاورة، كما سبق أن رأينا. وهذه كلمة موجزة عن أهم الحاصلات الزراعية في ذلك العصر -

١- المحاصيل الحقلية :

وكان أهمها القمح والشعير بأنواعهما المختلفة. أما الذرة الرفيعة فهناك خلاف حول تاريخ زراعتها في مصر، وإن كان الراجح أنها كانت تزرع في عصر الدولة القديمة واستمرت زراعتها بعد ذلك. أما الذرة الشامية، فلم تعرفها مصر إلا بعد الفتح العثماني.

٢- البقول والأعلاف :

أشتهرت مصر بزراعة البقول منذ عصر ما قبل الأسرات، وكان من أهمها الفول والعدس والحمص والتمرس واللوبيا والبسلة والجلبان. ويبدو أن مصر قد عرفت الحمص والتمرس في عصر الدولة الحديثة، بعد جلبها من الخارج.

أما الأعلاف فكان أهمها البرسيم الحجازي، ويبدو أن مصر لم تعرفه إلا في أواخر عصر الدولة الحديثة، بعد امتداد الإمبراطورية المصرية إلى غرب آسيا.

١ - المرجع سابق الذكر، ص ٥١ - ص ٥٢

٣- النباتات الزيتية :

وكان أهمها الكتان والخس والهجليج والخروع والقرطم والزيتون والعرعر. وتدل بعض الوثائق أن "رمسيس الثالث" قد اهتم بزراعة الزيتون، وأقام مزرعة كبيرة لزراعته حول معبد الشمس في مدينة "أون"، أو عين شمس الحالية. ويعتقد البعض أن تسمية حى الزيتون بالقاهرة بهذا الاسم، ترجع إلى العصور القديمة. ومن المناطق التى اشتهرت بزراعة الزيتون القليم الفيوم. كذلك يبدو أن العرعر لم يعرف إلا فى عصر الدولة الحديثة.

٤- نباتات الصباغة والدباغة :

عرف المصريون القدماء صناعات الصباغة والدباغة، كما تقدموا فى عمليات تثبيت الألوان المستخدمة فى الصباغة، باستخدام الأملاح والأحماض. وأهم الألوان التى استخدموها فى صبغة الملابس هى الأزرق والأخضر والأحمر والأصفر والبني. وأهم النباتات التى استخدمت فى الصباغة كانت الحناء والقرطم والسنت والرمان والنيلة.

وقد جلب "رمسيس الأول"، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر، بعض النباتات من غرب آسيا، لزراعتها فى مصر. وكان من بينها شجرة الحناء التى زرعت فى حديقة معبد الكرنك بطيبة. وقد عرفت مصر الرمان لأول مرة فى عصر الدولة الحديثة. أما السنت فلم يعثر على آثاره إلا فى آثار العصر الفرعونى المتأخر والعصر الرومانى.

كذلك تفوق المصريون فى دباغة الجلود، واعتمدوا فى ذلك على بعض النباتات، وثمار شجر السنت وبعض النباتات الصحراوية.

٥- المحاصيل البستانية :

أحب المصريون القدماء الفاكهة حيا كبيرا، واعتنوا بها عناية فائقة، وأكثروا من زراعتها، كما تحفل آثارهم بها. أما الخضر فقد اعتمدوا عليها بصفة أساسية

فى غذائهم. كما كان المصريون مغرمون بزراعة الحدائق وتنسيقها، كما عنوا بتربية الأزهار وقدموا بعضها.

أما أهم الفواكه التى عرفوها فكانت تخيل البلح وتخيل الدوم وتخيل العرجون. وكذلك التين والعنب والرمان والزيتون والتوت واللوز والجوز .

٦- محاصيل الخضر :

عرفت مصر منها البصل والخس والكرفس والبقدونس والفجل والكسرات والخبيزة واللفت والشبث والبسلة والحماض والترنج والرجلة والسلق والكرنب والبطيخ والشمام والفقوس والخيار وقرع الكوسة.

٧- الألياف النباتية :

وكان أهمها الكتان بأنواعه والبردى، أما القطن فلا نعتقد أن مصر الفرعونية قد عرفتته.

وكان الكتان والبردى من النباتات المقدسة. وكان المصريون القدماء يعتقدون أن "الإله أوزوريس"، قد كفن فى نسيج من الكتان بعد موته، وكان الكهنة يرتدون الكتان الأبيض ويعتبرونه رمزاً للطهارة. كما اعتقدوا أن الزوارق المصنوعة من البردى تحمى ركب أليم من التماسيح.

٨- الأشجار الخشبية :

وكان أهمها الجميز والسنت والصفصاف والأكل والبرساع والهجيج والنبق والمخيط. كانت أشجار الجميز^(١) والسنت والصفصاف والطرفاء والبرساع والنبق، من الأشجار التى قدسها المصريون القدماء، لسبب أو آخر.

٩- الأزهار :

عشق المصريون القدماء الزهور خاصة فى عصر الدولة الحديثة الذى شهد ازدهار أحوال مصر الاقتصادية. وكانوا يقدسون بعضها ويتزينون بها، خاصة النساء، ويعتبرونها رمزاً للترحيب بمن يحيونهم. وقد شارك فى هذا الحب والعشق للزهور،

١- قلبي المصريون شجرة الجميز، لاعتمادهم أن هذه الشجرة التى تمت فوق قبره، كانت تصم "الإله أوزوريس"، ولأنها كانت الرمز الطاهر لحياة أوزوريس التى لا تموت. انظر: برستيد، المرجع السابق، ص ٦٠

الحكام والمحكومون. وكانت أهم الزهور التي عرفتھا مصر اللوتس، سواء في ذلك اللوتس الأبيض واللوتس الأزرق، أما اللوتس الأحمر فقد جلبه الفرس لمصر نحو عام ٥٢٥ قبل الميلاد.

وقد احتلت هذه الزهرة مكاناً بارزاً في حياة المصريين القدماء وتاريخهم وعمارتهم. كما تغنوا بها في احتفالاتهم وأعيادهم. ويندر أن نجد في تاريخ أي أمه، أثر لزهرة، مثل الأثر الذي تركته زهرة اللوتس في حضارة مصر الفرعونية. كما عرف المصريون القدماء القرنفل والأقحوان والعنبر وورد الزينة، هذا بالإضافة إلى زهور بعض الأشجار. وكانت الزهور تستخدم في صناعات العطور والأدوية .

سادساً : إنتاجية الأرض:

يؤكد الكثير من المؤرخين، أن أرض مصر الخصبة، كانت تخرج من المحاصيل الزراعية، ما يحقق لها الاكتفاء الذاتي، إذا ما استثنينا فترات الانتقالات والكوارث الطارئة، مثل قصور النيل في بعض السنوات. بل يؤكد هؤلاء المؤرخين أن مصر كانت تحقق فائضاً في الإنتاج الزراعي، تقدمه لمساعدة بعض الدول المجاورة، كما حدث في عصر الرعامسة عندما قدمت مصر العون لحليفتها دولة الحيثيين، التي كانت تعاني من قلة المحاصيل الزراعية^(١) .

أما بالنسبة لإنتاجية وحدة المساحة، فنادر ما نتحدث عنها وثائق هذا العصر. ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن إنتاجية الأراضي في ذلك العصر، لم تكن تختلف كثيراً عن متوسط إنتاجية وحدة المساحة في العصر الحديث، قبل إدخال الوسائل الحديثة في الزراعة^(٢).

١ - أدى نقص الإنتاج في دولة الحيثيين إلى ارتفاع حاد في أسعار الحلال، فقرر بعض بحر ٤٠٪ زيادة على الأسعار العادية
٢ - ذكر البعض أن إنتاجية الثاء "وحدة المساحة في ذلك العصر" قد بلغت خمس عرائر في الأراضي العادية وشعر خمسة عرائر ومصع في الأراضي الحيدة، وشعر عشرة عرائر في الأراضي المتميزة . وتتحقق إنتاجية وحدة المساحة إلى أقل من عرائر وشعر وربع " وية " وكانت الوبية تنظم ١٦ حفاة وتساوي الحفاة ٤,٧٨٥ لواءً أنظر في ذلك عبدالمعز صالح ، الأرض والفلاح في مصر الفرعونية ، نشر ضمن الأرض والفلاح في مصر على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٨، ص ٤٩

سابعاً : ضريبة الأراضي الزراعية :

يتضح من بعض الوثائق التاريخية، وإن لم يكن ذلك بصفة مؤكدة، أن ضريبة الأراضي الزراعية كانت تقدر بنسبة خمس الإنتاج الزراعي^(١)، شأنها في ذلك شأن أغلب الضرائب الأخرى، مثل ضريبة التجارة أو إنتاج مصائد الأسماك أو المحاجر أو المراعي أو الضريبة على التجارة الخارجية العابرة. وكانت الضريبة تؤدى عينا في الغالب الأعم، في شكل بعض المنتجات أو القيام ببعض الخدمات مثل زراعة أرض الملك، أو المساهمة في إقامة المعابد والمقابر والترع وإقامة الجسور والسدود. ويذكر بعض المؤرخين أن الحكومة كانت تجبر الفلاح أحيانا على القيام ببعض الأشغال العامة، ولكنهم يسلّمون في نفس الوقت بأن الدولة لم تكن تتصرف في ذلك، وأن الفرد لم يكن يجبر على ذلك الأمر في حياته. ولاشك أن تكليف المزارعين بهذه الخدمات، والذي كان يتم عادة خلال موسم الفيضان عندما يتعذر عليهم زراعة الأرض، وقد وفر لهم فرصة عمل، كما كان يعتبر في نفس الوقت سدادا للضريبة.

كما يتضح من وثائق هذا العصر، أن الملوك كانوا يراعون اعتبارات العدالة والتيسير عند فرض الضريبة أو تحصيلها. فغالبا ما كان سعر الضريبة يختلف تبعا لدرجة خصوبة الأرض، وتبعا لحجم فيضان النيل. ورغبة في التيسير على الممول كانت الدولة تقبل أداء الضريبة على دفعات. كما كانت تتنازل أحيانا عن كل أو جزء من الضريبة، بصفة مؤقتة أو دائمة، إذا كان هناك مبررا لذلك. وحتى يتم تحديد الضرائب بطريقة عادلة، كانت الدولة تكلف بعض موظفيها بإعداد تقارير دورية عن منسوب مياه النيل، حتى تأخذ ذلك في الاعتبار عند تحديد سعر الضريبة.

١- يفهم من بعض الوثائق التي ترجع إلى "عصر الرعامسة" أن الأراضي الزراعية فيما بين الفيوم والمياه كانت تؤدى ضرائب عينية تتراوح ما بين ٥/١، ٧/١، ١١/١ من إنتاج الأرض. تبعا لدرجة خصوبة الأرض. كما ورد في سمر التكوين من التوراة أن الدولة كانت تحصل على خمس المحصول، أما كأيثار للأرض أو كصبيبة عليها، خلال سنوات القحط التي عاصرها يوسف عليه السلام

وفى وثيقة ترجع للقرن الحادى عشر قبل الميلاد، ونتيجة لسنوات القحط العنيفة التى نجمت عن قصور النيل، قرر حاكم أسبوط التنازل عن الضرائب المتأخرة، بل وقرر صرف معونات من الغلال المملوكة للدولة، لكل أهل الإقليم دون استثناء. كذلك يتضح من بعض الوثائق، أن الدولة كثيراً ما كانت تعفى الأوقاف الدينية والأراضى المملوكة لرجال الجيش، من الأعباء الضريبية.

وكانت الضرائب تدفع مباشرة للدولة. وفى بعض الأحيان كانت بعض الضرائب تدفع إلى مؤسسات المعابد والأوقاف الدينية، التى كانت تقوم بدورها بتوريدها إلى خزائن الملوك. وكان الموظف المكلف بتحصيل الضريبة، يقدم للممول صكاً موثقاً عليه، بما يفيد بتحصيل الضريبة واسم الممول، والمدة التى حصلت الضريبة عنها. ثم يقوم الموظف المختص بتاريخ الصك (١).

وبالإضافة للضرائب الزراعية، كان أهل الريف يخضعون لبعض الضرائب الأخرى، مثل ضريبة جلود المواشى، ومقابل الانتفاع بقنوات الري والآبار، وضريبة التخيل والأشجار. كما كانت الدولة تفرض الضرائب على منتجات الصناعات الريفية، كنسبة من إنتاج عسل النحل أو الزيوت أو الجعة أو النبيذ، كما كانت تفرض ضرائب على الحيوانات والطيور وعلى مصايد الأسماك. وكذلك كانت هناك ضرائب على منتجات حرف الغزل والنسيج ومنتجات الجلود (٢).

ومما سبق يتضح مرة أخرى، مدى استقرار فكرة "المعاش" أو العدالة فى ضمير ملوك وحكام مصر الفرعونية.

١ - كان يحصل الضرائب يحصلون على نسبة منها، قدرت بحوالى ٦٪ من المبرمة المدفوعة، وذلك مقابل القيام بتحصيلها، نرى، المرجع السابق الذكر، ص ٥١ - ٥٤.

٢ - عبدالعزیز صانع، المرجع السابق ذكره، ص ٤٨ - ٥٠، وكذلك محمد بكر إبراهيم، صفحات مشرفة من تاريخ مصر القديمة، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢١٦.

ثامناً : الوضع القانونى والاجتماعى والاقتصادى للفلاح :

ذهب أحد المؤرخين المعاصرين، إلى أن الرق كان شائعاً بين الفلاحين فى مصر الفرعونية^(١)، وإلى أن المجتمع الزراعى المصرى فى تلك الحقبة من تاريخ مصر، كان مجتمعاً بدائياً بسيطاً^(٢) .

وكن من المؤكد أن هذا رأى قد حاد عن الصواب، كما يتناقض تماماً مع الرأى السائد بين جمهور مؤرخى مصر الفرعونية، كما يعارض تماماً مع الوثائق التاريخية الفرعونية.

إذ من المسلم به، أن الفلاح وغيره من عامة الشعب، كان يتمتع بكافة الحقوق المدنية^(٣) والاقتصادية التى يتمتع بها الإنسان الحر. فكان له حق تملك الأرض، وحق استئجارها، وكان عقد الإيجار يرتب حقوقاً والتزامات على كل من طرفيه. كما كان من حق الشخص أن يزاوِل النشاط الاقتصادى الذى يروق له، وإن يغير حرفته، فى حدود القانون وشرائع الدولة ونظامها العام. كما كان عقد العمل، يرتب التزامات على كل من طرفيه، حتى لو كان أحد طرفى العقد فرعون نفسه أو كهنة المعابد. وقد ترتب على عدم حصول عمال المقابر فى عصر الدولة الحديثة، على مستحقاتهم، قيامهم بالتظاهر والإضراب عن العمل، حتى حصلوا على هذه المستحقات، كما سبق أن رأينا.

أما تقسيم المجتمع إلى طبقات، تبعاً لتفاوت حظها من الثروة والدخل، فكان يقوم على أسس اقتصادية، ولم يكن له أى علاقة بفكرة الحرية والعبودية. ويدعم هذا الرأى، ما سبق ذكره عن تأكيد المؤرخين، أن مصر لم تعرف فى كل تاريخها الملكية الاستبدادية، بل كانت الملكية فيها دائماً ملكية مقيدة.

وقد سبق أن رأينا، كيف ترتب على الثورة الاجتماعية، التى شهدتها عصر الانتقال الأول، إعلاء قيمة الفرد وحقوقه فى عصر الدولة الوسطى، وكيف حددت رسائل "الفلاح النصيح" طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومسئولية الراعى نحو الرعية.

١ - كان الفلاحون يملكون عالية سكان مصر.

٢ - أنظر المبحث الأول من هذا الفصل والخاص بفلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة.

٣ - أنظر ما سبق ذكره عن فلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة .

بل يحفل تاريخ مصر الفرعونية بأمثلة لأشخاص من عامة الشعب، لم يعرف الدم الملكي الأرزق الطريق إلى شرايئهم، ارتقوا إلى أرفع المناصب، بما فى ذلك عرش مصر الفرعونية. كما تؤكد الوثائق التاريخية، أن المتميزين من أصحاب الحرف، مثل النحاتين والمصورين والمهندسين المعماريين، قد ارتقوا إلى أعلى مناصب الدولة. بل لقد قدس شعب مصر بعض هؤلاء، إلى حد عبادتهم.

وتدل المعلومات المتاحة، أن القرية الفرعونية، كانت تخضع عادة لسلطة ونفوذ أحد كبارها، ممن يتمتعون بقدر من الثروة العقارية، يتراوح بين مائة وألف فدان من الأرض. وكان قصر هذا الكبير، يمثل المركز الرئيسى للنشطة الاجتماعية والاقتصادية والتجارية فى القرية. كما كان هذا الكبير وأعوانه، يقومون مقام رجال الأمن فى القرية، ويعتبرون حلقة الوصل بين أهل القرية والسلطات الحكومية. وفى هذا يشبه مركز كبير القرية الفرعونية، مركز العمدة فى القرية المصرية المعاصرة.

وعلى الرغم من أن بعض كبار القرى، كانوا يستغلون حاجة الفلاح، وقد يشتركون منه المحصول بثمن بخس، أو يرغمونه على القيام ببعض الأعمال، إلا أنهم كانوا يفخرون، صدقاً أو كذباً، بعدالتهم ورعاية أهل القرية. ويقول أحدهم :

"ولقد قدمت الخبز لكل جائع وكسوت العارى ولم اغتصب شيئاً "

"من ملك الغير ولم أنطق إلا بالحق ولم اتحدث إلا بالخير "

"...وما خشى أنسان على نفسه فى منطقتي، ممن هو أقوى "

"منه حولاً أو أعز نفراً"

ولكن من المؤكد أيضاً، أن الفلاحين كانوا من أقل فئات المجتمع حظاً فى الثروة والدخل. وكان أغلبهم يعتمد على إستئجار الأرض من ملاكها مقابل مبلغ معين، أو يقومون بزراعته طبقاً لنظام المزارعة. ولكن كان هناك أقلية من الفلاحين، يمتلكون الأرض التى يزرعونها.

وعلى الرغم من أن مستوى معيشة الفلاحين قد تحسن خلال عصر الدولة الحديثة عموماً، إلا أن مستوى معيشتهم قد تدهور بشكل ملحوظ، فى أواخر عهدها،

خاصة خلال فترة حكم الأسرة العشرين، نتيجة الأزمة الاقتصادية وتدهور أحوال البلاد في هذه الحقبة. كذلك تؤكد بعض الوثائق، أن الفلاحين وعمال المقابر، قد تعرضوا لكثير من أوجه الظلم والاستغلال من أصحاب الأراضي، خاصة في الأراضي المملوكة للمعابد. ويصور النص التالي ما أصاب الفلاح من شقاء وتعاسة :

" ألا نذكرون كيف يكون المزارعون عندما يحصل المحصول "
"..... الدودة تلتهم نصف المحصول وعجل البحر يأكل "
"النصف الآخر، كما أن هناك كثير من الفيران في المحصول "
"..... والجراد يفتش، والقطعان تسأكل والطيور تسألي "
"على البعض.... وأسفاه على الفلاح، وما تبقى بعد ذلك "
"يوضع في الجرن ويسرقه اللصوص، والماشية تموت من كثرة "
"التعب ومن العمل الشاق ... وفي هذه اللحظة يأتي الكلبة "
"ويحصلون الضرب ومعهم التوبيخ يحملون العصي." (١) .

١- أحمد مبرى، المرجع السابق، ص ٣٧٦-٣٨٤ وعبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ٢٦٣-٢٦٨.

المبحث الخامس

تطور الحرف والصناعات

شهد عصر الدولة الحديثة، خاصة عصر الأسرة الثامنة عشر، توسع وتطور ملحوظ في بعض الصناعات القديمة، كما شهد ظهور صناعات جديدة لم تكن معروفة من قبل . ونعرض فيما يلي لأهم الصناعات في عصر الدولة الحديثة .

إنتاج الخبز :

من الصناعات القديمة في مصر . وكان هذا أمراً طبيعياً، فالخبز أحد ضروريات الحياة . وكان المصريون القدماء يحبون أكل الخبز إلى حد كبير، الأمر الذي دفع "هيرودوتس" إلى وصفهم بأنهم "أكلوا الخبز"^(١).

وقد ارتقت هذه الصناعة بشكل ملحوظ في عصر الدولة الحديثة، كما كثرت أنواع الخبز . فلى "بردية هاريس"، ورد ما يفيد أن مصر عرفت في عهد "رمسيس الثالث"، ثلاثين نوعاً من الخبز . إذ كانت هذه الصناعة، تواكب متطلبات كل عصر . ففي قائمة المأكولات المطلوبة في رحلة قام بها أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشر، وجدت أنواع من الخبز والكعك، لم تكن معروفة أو شائعة الاستعمال في العصور السابقة .

وقد تأثرت هذه الصناعة بالمؤثرات الأجنبية في عصر الدولة الحديثة، خاصة المؤثرات الآشورية، الواحدة من الشام وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى . وكان الأمراء الذين انتشروا خارج مصر، في العصر الامبراطوري، يقبلون على "الخبز الكبير الجيد"، المصنوع من حبوب "زرت"، أما الجنود فكانوا يفضلون الخبز السوري المصنوع من القمح، مثل النوع الذي عرف "بخبز كلشت"^(٢).

١- كان الخبز عنصر أساسي في الوجبة الغذائية، التي توضع في القبر مع الميت، ليأكلها في العالم الآخر . هذا بالإضافة إلى الخبز والورق ولحم البقر . وللمنظر، المرجع السابق، ص ٢٤٢-٢٤٥ . وبعد آلاف السنين، لا زال الخبز حتى يومنا هذا، العنصر الأساسي في الوجبة الغذائية، والمصدر الأساسي للبروتين والدهون والطاقة بالنسبة لسبة كبيرة من السكان .

٢- كانت كثرة أنواع الخبز، انعكاساً لما عرفته مصر من رخاء وازدهار في هذا العصر .

كذلك تدل آثار عصر الدولة الحديثة، أن المصريين كانوا يخبزون الخبز أحياناً، ومعه القثاء لينضج بسرعة، وهي طريقة لازالت شائعة في الريف المصرى حتى اليوم.

وكان المصريون القدماء، يقدسون الخبز، ويسمونه " عيشاً " وهو اللفظ المستعمل حتى الآن. ومن الطريف أيضاً، أن "بتاو"، وهو من الأسماء الهيروغليفية للخبز المصنوع من الذرة، لازالت هي الأخرى مستعملة في الريف حتى اليوم. (١)

صناعة الجعة :

كانت الجعة من المواد الغذائية الأساسية، التي حرص عليها المصريون حرصاً شديداً في كافة العصور منذ العصر الحجري الحديث .

وكانت صناعة الجعة، من الصناعات التي ازدهرت بشكل كبير، في عصر الدولة الحديثة، خاصة عند ظهور مشارب أو حانات عامة لشرب الجعة. وكانت هذه الحانات، تحفل بالأغاني والأناشيد والرقص، ويقبل المصريون على ارتيادها (٢). هذا على الرغم من أن الطبقات المحافظة، كانت ترفضها، كما كان المدرس يحذر تلاميذه من ارتياد هذه الحانات ، لأن ما يجري بها يناقض الأعراف والأخلاق القويمة.

يقول الحكيم أنى :

" ولا تفرط في شرب قدر كبير من الجعة . فأتيت إذا تكلمت "

"خرجت عبارة أخرى (غير التي نريدها) من فمك . وإنك "

"تسقط فنتهشم أعضائك ولا يمد إليك أحد يده".

ويقول معلم لتلميذه :

" بلغنى إنك أهملت دراستك . وإنك تتسكع من طريق لآخر. " وأن

رائحة الجعة قد أبعدت الناس (عنك) . وإنها قد ساقطت " روحك

إلى الهلاك ".

١ - ولهم بطير ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٤٦ - ٢٥٠

٢ - كانت البيرة سبيل في هذه الحانات أنهاراً مختلطة بالأغاني والأناشيد في جو من المرح والبهو، المرجع السابق، ص ٢٤٩

صناعة النبيذ :

من الصناعات التي عرفتھا مصر منذ العصر الحجري الحديث . وتحفل آثار مصر القديمة، بالكثير من النقوش والصور، التي تبين في وضوح طرق صناعة النبيذ، الذي تعددت أنواعه بشكل ملحوظ، والتطورات التي طرأت على طريقة تصنيعه. وهذه الطرق لا تختلف في أساسياتها، عن تلك المستخدمة في تصنيعه في الوقت الحاضر.

وقد شهدت هذه الصناعة تطورات هامة، كما ازدهرت في عصر الدولة الحديثة، كما زاد إقبال الناس على شرب النبيذ، خاصة في الأعياد والاحتفالات الخاصة. ويتضح من النقوش التي وردت على جدران المقابر، والتي تمثل شرب النبيذ في هذا العصر، إنه كان يشرب في أقداح أنيقة أو في كؤوس، بعضها كان يصنع من الذهب أو الفضة. وكان الخدم من الفتيات والغلمان، يقدمون أقداحه إلى الضيوف ومعها مناشف من الكتان الجيد. وغالباً ما كان الحفل ينتهي بكثير من الهرج والمرج. وكانت ائمة أو قتيينات النبيذ، خاصة "النبيذ الملكي"، تفعل وتختتم بأختام رئيس البساتين في القصر الملكي^(١). وكان من بين ملوك العصر الذين اهتموا بهذه الصناعة، "الملك رمسيس الثاني"، فقد عمل على تلميحها حول عاصمته الجديدة في شرق الدلتا. كما كان منهم "الملك رمسيس الثالث"، الذي اهتم بتنمية هذه الصناعة في الواحات وفي مصر العليا والسفلى، كما أعطى اهتماماً خاصاً لنوع خاص من الكروم، كان يسمى "كاتى بكى" لإنتاج النبيذ الحلو^(٢).

وكان يوجد بهذا العصر ما لا يقل عن ستة أنواع من النبيذ، منها الأبيض والأحمر والأسود. وكان "النبيذ المربوطى"، من أحسن الأنواع، نظراً لطبيعة التربة في هذا الإقليم، والذي اشتهر بحلاوة عتيه ولونه الأبيض. كما كانت أنبذة الأسكندرية وقفت من أجود الأنواع.

والى جانب نبيذ العنب، عرفت مصر نبيذ البلح (العرقى) .

١ - كان الختم يشير إلى نوع السيد واسم المنتج ودرجة الجودة واسم الملك الذي تم الإنتاج في عصره .

٢ - ولهم نظيره المرجع السابق، ص ٢٥٠ - ٢٥٤ . ٢٥٧ .

صناعة تجفيف الفاكهة :

عرف المصريون أيضاً، طرق تجفيف الفاكهة لتخزينها لوقت الحاجة إليها .
ومن بين هذه الفاكهة العنب الذى كان يجفف ويتحول إلى زبيب، والبلح والجميز
والثين والنبق وحب العزيز^(١) .

صناعة الزيوت :

كانت صناعة الزيوت من الصناعات القديمة فى مصر الفرعونية . ولكن عصر
الدولة الحديثة شهد تطور هذه الصناعة، وزيادة إنتاجها نظراً لازدهار تجارته فى هذا
العصر، خاصة زيت الخروع.

وكانت أهم الزيوت المعروفة زيت الكتان والخس والقرطم والسهم والخرع
والهجليج والحنظل والزيتون . وعلى الرغم من أن الزيتون كان يزرع فى مصر فى
هذا العصر، إلا أن إنتاجه لم يكن يكفى حاجة البلاد منه . وقد أدى ذلك إلى زيادة
واردات مصر من الزيوت، خاصة الزيوت المستخرجة من خشب الأرز وثمار العرعر
والصنوبر واللوز والزيتون .

وكان الزيت يستخدم فى الغذاء والتدليك والإضاءة والتلوين وإنتاج بعض
العطور، كما استخدم الزيت فى بعض الطقوس الدينية وفى علاج بعض الأمراض^(٢) .
وكان الزيت يوضع عادة فى آنية من المرمر .

صناعة الغزل والنسيج :

عرفت مصر حرفة الغزل والنسيج فى عصور ما قبل التاريخ وخلال العصور
اللاحقة كما سبق أن رأينا . ولكن هذه الصناعة تطورت بشكل ملحوظ فى عصر الدولة
الحديثة . وفى عصر الأسرة الثامنة عشر، عرف الصناع المصريون الرسوم الملونة
على الأقمشة أثناء عملية النسيج . وكانت الأقمشة تلوّن بأشكال دقيقة بديعة، كما
كانت تزين باستخدام الحروف الهيروغليفية .

١ - عشر على الربيب الأسود والنبق فى قبر " توت عنخ آمون "، كما وجد البلح المجفف والنبق وحب العرير فى مقابر مطية
مرجع إلى عصر الدولة الحديثة . أنظر، ولیم بطر، المرجع السابق، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٢ - لارالى الزيت يستخدم فى بعض الطقوس الدينية فى الكنائس، فيما يعرف بـ " المسحة المقدسة " ولیم بطر، المرجع السابق،

صناعة الصباغة :

عرف المصريون القدماء الصباغة والتلوين منذ أقدم العصور، ولا زالت الآثار المصرية محتلفة بجمال ألوانها حتى اليوم. وكانت الأصباغ المصرية تستخلص عادة من مواد نباتية توجد في البيئة. (١)

وكان من بين هذه النباتات ، الحناء والقرطم والسنت والرمان والنيلة، التي استخدمها المصريون في هذا العصر للحصول على الأصباغ .

وقد اهتم ملوك عصر الدولة الحديثة، خاصة في عصر الرعامسة، بجلب شجرة الحناء من الخارج لزراعتها في مصر. وكان من بين هؤلاء "رمسيس الأول"، الذي أمر بغرس شجرة الحناء في حديقة معبد الكرنك، ويبدو أنها كانت من الأشجار المقدسة. كما أدخل الرمان إلى مصر في عهد "تحتمس الثالث"، وكان قد تم جلبه من سوريا.

وقد تبين من التجارب الحديثة التي أجريت لمعرفة مدى ثبات الألوان المستخدمة في الصباغة، أن هذه الألوان قد اتسمت بالثبات ولم تؤثر فيها الأحماض، الأمر الذي يدل على أن المصريون القدماء كانوا على دراية ببعض أصول الكيمياء (٢).

(١) وأهم الأصباغ التي عرفت في هذه العصور هي:

١- صبغة الأرجيل Archil، وهي صبغة أرجوانية تستخرج من بعض الطحالب البحرية، التي توجد على صخور البحر المتوسط.

٢- صبغة القنات Alkanet، وهي صبغة حمراء تستخرج من نبات "صماء الغول"

٣- صبغة فوة الصباغ Madder، وهي صبغة حمراء، تستخلص من جذور نبات الفوة.

٤- القرمز Kermes، وهي صبغة حمراء تستخلص من إناث الحشرات القرمزية الجمعة، التي توجد على شجرة الطوط الدائم الإحصار

٥- النيلة الزرقاء Woad، وهي صبغة زرقاء تستخلص بالتحمير من أوراق شجرة النيلة البرية ولا زالت الصباغة باستخدام النيلة موجودة في بعض المناطق الريفية حتى الآن. فعند حدوث رقاة في إحدى الأسر، فإن بعض النسوة من أقرباء النوف، يصنعون ملابسهم وأحياناً وجوههم بنون النيلة الأزرق حرقاً على الميت

(٢) ولهم بطير، المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٥، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

وعرف المصريون أيضاً، تثبيت ألوان القماش بغسله في محلول الشب . كما استخدموا في الحصول على الألوان وتثبيتها بعض المواد الطبيعية ^(١) . وقد بلغت هذه الصناعة درجة عالية من الرقى والمتانة، التي تدعو إلى القفر والإعجاب حتى اليوم ^(٢) .

صناعة الجلود :

كانت من بين أوائل الصناعات التي ابتدعها المصريون وبرعوا فيها . وكان من أهم منتجاتها قرب الماء والغرائر والنعال الخفيفة و أعطية المقاعد . كما كانت الجلود تستخدم في صناعة العربات الحربية والدروع، وفي أغراض عديدة أخرى . كما كانوا يصنعون منها حبلاً تقطع إلى اشربة رفيعة جداً، ثم تجدل فتصبح حبلاً متينة . وكان من أجمل منتجات هذه الصناعة، الجلود المثقبة التي تشبه الشباك وكانت تغطي به المقاعد والأرائك . كما كانت هذه الجلود ، تلبس فوق الملابس للتيلية للوقاية من البرد .

وكانت المنتجات الجلدية التي تستعملها الطبقات الفقيرة، أشد صلابة ومتانة من تلك التي يلبسها الأغنياء ، الأمر الذي يدل على استجابة الصناع لأنواق وحاجات المستهلكين .

وعلى الرغم من أن صناعة الجلود وتجهيزه ودبغه، كانت من الصناعات القديمة، إلا أنها شهدت درجة ملحوظة من التطور والرقى في عصر الدولة الحديثة . وقد تفوق صناع هذا العصر في صناعة الدباغة إلى حد كبير . وكان أهم الألوان المستخدمة في الدباغة هي الأخضر والأحمر والأصفر، واستخدم في الحصول على هذه الألوان منتجات نباتية ^(٣) .

(١) وفقاً لطرق الآتية .

١ غلوط من المساميت والحررة الصغراء المحروقة للحصول على اللون الأحمر، عدة أنواع من المعرة للحصول على اللون الأصفر وكانوا يستخدمون الرمح الأصفر أو أصفر الملك للحصول على لون أصفر جيد، استخدام الملاحيت أو التوتية وسسلات البحر الخضراء والحاس، للحصول على اللون الأخضر ، استخدام كربونات النحاس الزرقاء للحصول على اللون الأزرق، أما اللون البني، فكانوا يحصلون عليه باستخدام عدة أنواع من القرفة، السانج للحصول على اللون الأسود، أما اللون الأبيض فكانوا يحصلون عليه باستخدام سفوف الجير، ولحم بطير المرجع السابق، ص ٩٣-٩٥-٢٦٠-٢٦٢

(٢) بزي، المرجع السابق، ص ٢٥٧ - ٢٦٩

(٣) بزي، المرجع السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧، وليم بطير، المرجع السابق، ص ٢٦٠-٢٦٢

منتجات الخشب :

اعتمدت هذه الصناعة على الأخشاب المحلية في بداية الأمر . ولكن نظراً لعدم جودة أغلب هذه الأشجار ، فإن هذه الصناعة قد تطورت ببطء شديد ، حتى بدأت مصر تستورد الخشب الجيد ، مثل خشب الأرز والصنوبر والكدر والأبنوس والزان ، من البلاد التي كانت تربطها بمصر علاقات تجارية .

ويتجلى الإبداع الفنى فى صناعة الأثاث، خاصة الأثاث المطعم، الذى اتسم بدرجة عالية من الإتقان، ومعرفة دقيقة بخصائص المواد الخام التى تستخدم فى صناعته. كما اتسمت منتجات هذه الصناعة، بدرجة عالية من تناسق الأجزاء والأبعاد، كما كانت فى غاية الرقة والجمال .

ولعل خير شاهد على ذلك الأثاث الجنائزى الذى وجد فى مقبرة تتوت عنخ آمون^(١) الذى بهر العالم، ولازال يعتبر من أجمل وأدق ما صنع الإنسان على مر العصور^(٢) . ولعل هذا يفسر، اتجاه الكثير من علماء "المصريات" المعاصرين، على تسمية هذه المنتجات ومثيلاتها، بالفنون الصغرى . وكان من بين منتجاتها، الأقداح والكؤوس الذهبية والمطعمة بالجواهر والمقاعد والأقنعة والتوابيت .

صناعة السلال والحصر :

من الحرف التى عرفت بها مصر منذ العصر الحجرى، كما عرفوا المكناس والمراوح والغرابيل. وكانت تصنع هذه المنتجات، من سعف النخيل ومن لحاء نبات البردى ومن البوص أو القاب.

وقد شهدت عصور الدولة الحديثة، تقدم وتطور هذه الصناعات، وتعدد استعمالاتها، كما كانت من بين الصادرات المصرية إلى الدول المجاورة، نظراً لما كانت تتسم به من جودة ودقة ومثانة الصنع^(٣) .

١- برى، المرجع السابق، ص ٢٦١-٢٦٣ و ذلك .

Winlock , H E , the Treasures of the Egyptian Princesses, New York, 1945

٢- برى، المرجع السابق، ص ٢٥٧-٢٥٩ .

صناعة الفخار والموزايكو والزجاج :

من المعروف، أن مصر عرفت صناعة الفخار، منذ بداية العصر الحجري. وقد ازدهرت صناعة الفخار الملون في مواطن حضارة هذا العصر، خاصة في جرزا التي عرف أهلها " بشعب الفخار الملون " كما سبق أن ذكرنا.

وبعد تجارب طويلة، عرفت مصر صناعة الأواني الفخارية المصقولة، ثم عرفت كيفية دهان الأواني الخزفية باللون الأزرق أو باللون الأخضر، وكان ذلك يتطلب درجة عالية من المهارة في التسخين تحت درجة عالية، لا تنقص ولا تزيد، لمدة طويلة نسبياً.

ثم عرف المصريون بعد ذلك، صناعة الزجاج الأزرق واللازوردى، ولكن لم يكثر إنتاج الزجاج وانتشار استعماله في شتى الأغراض، إلا في عصر الأسرة الثامنة عشر. وقد وجدت آثار تدل على أن المصريين عرفوا تطعيم الزجاج بالموزايكو الملون، في عصر هذه الأسرة ^(١).

ويذهب بعض الدارسين، إلى أن المصريين تعلموا صناعة الزجاج، من الصناع الماهرين الذين جلبهم إلى مصر، ملوك الأسرة الثامنة عشر من الشام ^(٢).

حرفة لعب الأطفال :

وكان من بين الحرف التي ازدهرت في عصر الدولة الحديثة، حرفة صناعة لعب الأطفال. ويتضح من آثار هذا العصر، أن الحرفيين أنتجوا الكثير من لعب الأطفال، وكان لكل سن من سنوات الطفولة لعب تناسبه. وكان من بين هذه اللعب الدمي والعرائس التي كانت تصنع من الخشب والعاج والطين والجلد والحجر

١- بزي، ص ٢٦٣، وقد تقدمت صناعة الموزايكو لإحداث الإبداع في مدينة الإسكندرية في العصور الإغريقية والرومانية

٢- بزي المرجع السابق، ص ٢٨٠.

كما كان يراعى فى صناعة هذه الألعاب، القوة الشرائية للأسر المختلفة^(١).

الصناعات المعدنية :

عرف المصريون القدماء، عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعاً من الأحجار والصخور، ولكن الخبراء يؤكدون أنهم لم يستخدموا منها إلا تسعة أنواع فقط. وكان من بين هذه المعادن الذهب والفضة والنحاس والمنجنيز والزرنيخ والقصدير، ثم الحديد والبلاتين. ولكن لم يكثر استخدام الحديد إلا فى عصر الأسرة الثانية عشر. كما حصل المصريون على القصدير النقى فى عهد هذه الأسرة. وكان بعض هذه المعادن يستخدم فى صناعة الحلى والأواني والأقداح والكؤوس، كما استخدم الذهب، أو الخشب المصفى بالذهب، فى صناعة التوابيت والأثاث الجنائزى فى المقابر الملكية فى عصر الدولة الحديثة. كما كانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب. وعلى الرغم من أن المصريين عرفوا الحديد فى عصور ما قبل التاريخ، إلا أن استخدامه فى الصناعة لم ينتشر إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشر. وكان المصريون يصهرون المعادن فى قوالب مفتوحة، أو يحولونها بالطرق إلى صفائح رقيقة. وقد حقق الصانع المصرى درجة مهارة فائقة، كما سبق أن رأينا. وقد استخدمت طريقة الطرق للحصول على رقائق المعادن، التى كانت تستخدم فى كساء التماثيل والأثاث المصنوع من الخشب. كما استخدم النحاس فى صناعة الأسلحة والسلاسل.

١ - وكان من أمتع الألعاب المصرية القديمة، لعبة من العاج، تمثل فرقة أقزام راقصة يعلى أفرادها مسرح صغير، ويقودهم رئيس يقوم بضبط الإيقاع وكان يتصل بقواعد الأقزام، حيوط منية يمكن الأطفال من تحريك أفراد الفرقة كلما أرادوا كما وجدت لعب فى شكل حيوانات يمكن تحريكها، ومنها مساح يمكن تحريك قدمه، وكذلك ضفدعة يمكن تحريك جسمها، وقطة خشبية من عس النورق، وقطة ذات عيين مطعمتين وفك متحرك، وأخرى تمثل رجلاً مدعوراً يجرى خلفه كلب. ومن أطرف الدمى، واحدة تمثل قردة لمشط شعر أبتها. أنظر فى ذلك عبدالعزيز صالح، الأسرة المصرية فى عصورها القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٠٢-١٠٣.

وقد عرف المصريون لحام المعادن باستخدام المعدن نفسه، في صناعة الحلى والأواني والأدوات النحاسية في عهد الأسرة التاسعة عشر .
الصناعات الاستخراجية :

اهتم ملوك هذا العصر ، خاصة الملك "سيتي الأول" اهتماماً بالغاً بالصناعات الاستخراجية، خاصة مناجم الذهب في الصحراء الشرقية. ويتضح من البردية المعروفة " ببردية مناجم الذهب "، المحفوظة بمتحف " توربين " بإيطاليا، والتي تمثل أقدم خريطة جغرافية معروفة في التاريخ، حيث على الرسم يتوضح الطرق المختلفة التي تؤدي إلى المناجم، كما تضمنت هذه الخريطة بعض المعلومات التي تساعد على معرفة هذه الطرق.

وقد قام "سيتي الأول" بزيارة منطقة المناجم، ثم أمر بتوفير الرعاية للعاملين كما أمر بحفر كثير من الآبار في الصحراء، لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم، مثل منطقة بئر وادي عياد. هذا وقد أقام هذا الملك قرية ومعبداً للعبادة للعاملين بهذه المناطق. كما أمن الطريق الصحراوي الذي يبدأ جنوب أدفو، ويخترق الصحراء الشرقية إلى جبل الزبارة على ساحل البحر الأحمر، حيث توجد مناجم الذهب.

وقد سار "رمسيس الثاني" (١٢٩٠ - ١٢٢٣) قبل الميلاد، في سياسة أبيه فواصل الاهتمام بتأمين استغلال مناجم الصحراء الشرقية.

ويتضح من رسائل تل العمارنة، الخاصة بفترة حكم "أمنحوتب الثالث" بالذات، إن إنتاج مصر من الذهب خلال عصر الدول الحديثة كان وقيراً، لدرجة أن أحد حكام منطقة الشام، أرسل يرجو أمنحوتب الثالث أن يرسل له ذهباً، مدعماً هذا الطلب بقوله "أن الذهب كالتراب في مصر".

وتدل المعلومات المتاحة، أن الصناعات الاستخراجية، وكان أهمها استخراج الذهب، كانت احتكاراً حكومياً^(١).

١ - أحمد فخرى " المرجع السابق " ص ٣٤٣ - ص ٣٤٥ وهوى، المرجع السابق ذكره، ص ٩٥.

صناعة السفن :

من الصناعات التي ورثها عصر الدولة الحديثة عن العصور السابقة . ولكن الشيء المؤكد أن هذه الصناعة قد سجلت درجة مرموقة من التطور والتقدم، كما توسعت إلى حد كبير في عصر الدولة الحديثة .

وكان من أهم أسباب ازدهار هذه الصناعة خلال تلك الحقبة، اتساع أرجاء الإمبراطورية، وحرص ملوك هذا العصر، خاصة بعض ملوك الأسرة الثامنة عشر، على دعم نفوذ مصر العسكري في كافة أرجاءها، وتأكيد سيطرتها في البحرين الأحمر والمتوسط، خاصة الساحل الفينيقي وبعض الجزر ومنها كريت وقبرص، وكذلك لتأمين تجارتها الخارجية مع إقليم غرب آسيا وبلاد بونت .

ونتيجة لما سبق، زاد عدد الترسات البحرية، الأمر الذي مكن من بناء أسطول بحري، يمكن من السيطرة على تلك المناطق دون منازع^(١). وكانت مصر تعتمد على الخشب الجيد المستورد في صناعة السفن.

ولعل خير دليل على ما حققته هذه الصناعة من تقدم، ما أقدم عليه "تحتمس الثالث"، خلال مرحلة الإعداد لحملته العسكرية التي كانت تهدف إلى توسيع نطاق الإمبراطورية المصرية حتى منطقة الفرات، إذ قام بتصنيع أجزاء السفن الضرورية لهذه الحملة في "ميناء جبيل" بالشام، ثم حملها براً على عربات إلى "قرقميش"، حيث تم تركيبها، لتحمل جيشه الكبير عبر الفرات .

ويؤكد أحد المؤرخين الثقات، أن هذه كانت أول مرة تحمل فيها سفن براً لمسافة نحو ٢٥٠ ميل، كما كانت أول مرة تستخدم فيها السفن لعبور نهر واسع كنهر الفرات وهي محملة بقوة عسكرية كبيرة^(٢).

١- كان "كهنة آمون" يملكون وخدمهم نحو ٥٠ رسالة لبناء السفن.

٢- أحمد محري، المرجع السابق، ص ٢٨١، وعبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأول القديم، المرجع السابق ذكره، ص ٢٢٣، وانظر أيضاً :

Faukier 1946 , p 19 and Badawy .A , op. cit , pp 15 - 20 , 25 - 28 , 31 - 33 , 38 - 46, Gardiner , op. cit, p 195, and Save-Hodbergh, the Navy of the Eighteen Egyptian Dynasty, Upsalla. 1944. .

البناء والتشييد :

٩- صناعة البناء : تطورت بشكل ملحوظ، واكتملت عناصرها المعمارية لدرجة غير مسبوقة، خاصة في عهد "أمنحوتب الثالث". وتؤكد آثار هذا العصر من قصور ومعابد ومقابر وبيوت، بما في ذلك بيوت عامة الشعب، ما كانت تتمتع به مصر من رخاء شمل كافة الطبقات فضلاً عن هذا فإن هذه الآثار تؤكد اكتمال العناصر المعمارية في هذه المنشآت التي كان يراعى فيها الجوانب الصحية والمعيشية والجمالية . إذ كانت تسمح بدخول الشمس، كما كانت تسمح بالتمتع بنسيمات الشمال، كما كان يراعى فيها التنسيق المعماري والقيم الجمالية.

وتؤكد آثار هذا العصر أيضاً، خاصة معابد الإله التي نحتت بالألوان في صخور جنوب مصر، أن المصريين هم فعلاً أعظم بقائين عرفهم التاريخ الإنساني لقد شهد عصر الدولة الحديثة بعض التطورات الهامة في صناعة البناء والتشييد، كما شهد قدراً ملحوظاً من الإبداعات كما يتضح مما يلي :

٩- تألق معابد الآلهة إلى جانب المعابد القديمة ، تلك المعابد التي كانت تنحت في قلب الصخر ، وتمثل جزءاً لا يتجزأ من البيئة الطبيعية التي أختيرت لإقامة صرح هذه المعابد. ويبدو ذلك الإبداع في صورته المثالية في الكثير من معابد الآلهة، خاصة:

١/٩- معبد الملكة حتشيسوت ، والمعروف بمعبد الدير البحري أو ديرة المعابد الفرعونية قاطبة. إذ يبهر من يرى هذا المعبد، تلاقى خطوطه، مع خطوط الجبل القائم وراءه، ويكون جزءاً لا يمكن فصله عن الجبل. فقد خلع جمال المعبد وقديسه الروحية على الجبل مسحة رائعة من السحر. لقد استطاع المهندس العبقري " سننموت " (١)

الذي صممه، أن يزاوج بين تصميمه المعماري الفذ وجمال الطبيعة المهيبة، فأكسب

١- من المؤسف أننا لا نعرف الكثير عن مهندسى المصور الفرعونية . وكان من بين القلائد الذين كشف عنهم تاريخ مصر الفرعونية المهندس "أمنحوتب" ، المهندس الذى صمم مجموعة "أنك زوسر" الهرمية والمهندس "إمسي" الذى شيد الصرحين الرابع والخامس للملكة حتشيسوت الأولى ، معبد الكرنك ، والمهندس "حابوسنب" الذى بنى مقبرة " الملكة حتشيسوت" ، والمهندس "أمنحوتب بن حبو" الذى شيد المعبد الجدارى للملك "أمنحوتب الثالث" . وقد جمع هؤلاء المهندسون بمراكز اجتماعية ممتازة كما شغلوا وظائف كبرى في الدولة، بل أن "أمنحوتب" أصبح إماماً يعبد في المصور اللاحقة . نورت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص ٣٥٠ ، وكذلك :

المعبد الجبل شيئاً من قدسيته، كما خلق نوعاً من الألفة الرائعة بين المعبد والبيئة الطبيعية، حتى بدا المعبد وكأن الطبيعة المتسامية قد هيات هذا الموقع ليقام فيه المعبد، حتى أصبح من المستحيل تصور هذا المكان الرائع دون المعبد في وسطه. لقد ترك "سندرموت" للإنسانية عملاً خالداً، قد يستحيل تكرار مثله في أى عصر من العصور .

٢/١ - معبد أبو سميل، الذى شيده رمسيس الثانى، إذ يكاد يتحقق الإندماج الكامل المهيّب بين المعبد والجبل. إذ يرى الناظر عناق رالع بين المعبد والطبيعة، وكأن الطبيعة تحتضنه كجزء لا ينفصم عنها، وكل منهما يكمل الآخر ويضفى عليه سحراً وروعة وقدسية ورهبة.

وقد حقق البنائون فى هذا العصر كل هذا الإعجاز المعمارى ، على الرغم من التقاليد الدينية الصارمة ، التى كانت تفرض نفسها دائماً على حرية المهندس المعمارى. لقد ارتبطت التقاليد المعمارية منذ نشأتها بالتقاليد الدينية، الأمر الذى قيد إلى حد كبير من حرية المصمم المعمارى فى الخلق والإبداع.

وعلى الرغم من كل هذه التقاليد ، فقد استطاع المهندسون فى هذا العصر تحقيق إنجازات معمارية حققت دون شك الأغراض الدينية ، والتى كانت تهدف دائماً إلى صيغ المعابد بهالة من القدسية والغموض والمهابة والخوف.

إن الضوء فى المعبد لا يهدف فقط إلى إنارتة ، بل لبعث الحياة فى تمثال الإله. إذ كان المهندسون يعملون على أن يصل ضوء الشمس إلى حرم المعبد، وأن يمس الضوء تمثال الإله وحده، حتى يبقى كل ما حوله فى ظلام دامس، ليضفى على الإله الغموض والرهبة . وكان الضوء يتسلل إلى تماثيل الإله، من نوافذ صغيرة فى أعلى الجدران ، عند نقطة التقائها بالسقف أو من السقف ذاته . وأن تحدث هذه الإضاءة فى مواعيد محددة من العام ، لتخلق فى الإنسان خشوعاً لهذا الإعجاز العبقري.

فضلاً عما سبق كان المعبد يبنى، بحيث يضيق من الداخل تدريجياً. فكلما توغل الإنسان فيه وجد جدرانه تتقارب ، وأرضيته تعلو ، فى حين يقل ارتفاع سقفه،

مما يزيد المعبد غموضاً وظلاماً ورهبة . ويبدو ذلك جلياً في بهو الأعمدة في " معبد الكرنك " . إذ يلاحظ أن مستوى أرض المعبد كله تأخذ في الارتفاع تدريجياً ابتداءً من الصرح حتى قدس الأقداس، كما ينخفض السقف في الوقت نفسه ابتداءً من بهو الأعمدة حتى قدس الأقداس. وهكذا يتدرج الضوء من إشراقة الشمس الساطعة في الفناء الخارجى، إلى عتمة بهو الأعمدة، ثم إلى ظلام دامس عند قدس الأقداس، الأمر الذى يحرك في النفس رهبةً وشعوراً بالغموض ، كلما اقتربت خطى الإنسان من مقر الإله. ولعل هذا يفسر جزء من عظمة "الكرنك " الفريدة .

٢- تعدد الأعمدة وتيجانها. فقد ظهر العمود الذى يمثل زهرة البردى المتفتحة والعمود المضلع والعمود الأسطوانى. كما ظهرت الأعمدة المخيمية التى تشبه وتد الخيمة ، كما ظهرت الأعمدة المربعة "الأزورية" والمربعة المحذبة "الحتورية" الأسطوانية .

وقد أكد الكثير من خبراء الهندسة المعمارية ، ومن بين هؤلاء العلماء الفرنسيين الذين صاحبوا حملة بونابرت إلى مصر عندما زاروا طيبة ، أن الأعمدة المصرية هي أصل الأعمدة الأغريقية والرومانية^(١). وعندما زار "شامبليون" الكرنك وراعه ما رأى قال:

"وأخيراً زرت بعض الآثار - الكرنك - فتمثلت لى عظمة "
"الفراعنة جمعاء على أكمل ما يتخيل خيال مبدع، وجسبى "
"أن أضيف أنه ليس ثمة شعب بين الغابرين والمعاصرين "
"قد بلغ فى فن العمارة ما بلغه قدماء المصريين من روعة "
"لا تدانى وجلال لا يضارع، ويكاد يكون ما عملوه لا يصدر إلا "
"عن عمالقة ارتفعت هاماتهم إلى مائة من الأقدام"^(٢).

١- ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص ٤١٦ - ٢٩٦.

٢- ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص

وقد صاحب ارتفاع العمارة، ارتفاع فنون النحت والتصوير. لقد كانت العمارة في مصر الفرعونية عموماً ، قطب الرمح الذى قامت عليه جميع الفنون الأخرى، التى أخذت منذ ظهورها تمضى مساندة للعمارة، لتحقيق فن معمارى خالد. ففي الآثار المصرية تتجلى مصرية الفن المعمارى ، ولعل هذا يفسر سيطرة المسحة الهندسية على التماثيل والصور .

ويرجع الفضل فى هذه النهضة الرائعة فى فنون البناء والتشييد، إلى ملوك الأسرة الثامنة عشر، ثم ملوك عصر الرعامسة ، الذين كان شغلهم الشاغل إقامة المباني الهائلة ، هذا على الرغم من أنهم ضحوا بنقاء وبساطة خطوط وزخارف الأسرة الثامنة عشر ، من أجل الضخامة والثقل المفرط لما شيده من أبنية وما نحتوه من تماثيل^(١).

ولكن، وعلى الرغم من كل هذه الإنجازات، فإن جانب الخلق والإبداع فى عصر الدولة الحديثة، لا يمكن أن يقارن بعظمة الخلق والإبداع الذى اتسم بها عصر الدولة القديمة، والتى تمثلها فى شموخ أزلى أهرام الجيزة.

التخصص وتقسيم العمل فى الصناعة :

غالباً ما كان العامل يكتسب مهنته بالوراثة عن أباءه وأجداده، وكانت الحرف تتجمع كل منها فى طائفة مثل حرفة التجارة والتنجيد وتلميع الأثاث.

بل كان التخصص وتقسيم العمل، يحدث فى داخل الحرفة الواحدة. ومن الأمثلة على ذلك وجود نجار لصناعة المناضد والصوان، وآخر لصناعة الأبواب والنوافذ. كما كان هناك فصل بين عملية تلميع الأثاث ودهانه وبين صناعة الأثاث. كذلك كانت صناعة التماثيل تنقسم إلى عدة تخصصات، فكان هناك من يتخصص فى قطع كتلة الحجر، كما كان هناك الصانعون أو الفنان الذى يعتمد على الأرميل فى تشكيل التماثيل.

وقد أبدى قراعنسة مصسر، ومن أشهرهم فى هذا الصدد "رَمْسِيس الثانى" ، اهتماماً

كثيراً بالزحمة والمثاليين الذين كانوا عادة يتبعون القصر أو المعابد أو أحد كبار رجال الدولة^(١).

ولكن يجب أن يكون واضحاً، أن مصر لم تعرف، نظام الحرف المغلفة الذي ساد في العصور الوسطى. فقد كانت الحرف مفتوحة لكل من يرغب في مزاولتها، والسوق هو في النهاية الذي يحكم على مدى كفاءته وجودة إنتاج الشخص.

وكان عمال الصناعة يمثلون طبقتين مختلفتين. الأولى طبقة العمال المهرة المتخصصين، وكانوا يتمتعون بمركز اجتماعي متميز سمح لهم أن يصنعوا تماثيل لأنفسهم، كما كان للبازين منهم مصاطب جنائزية. وقد شكل هؤلاء الطبقة البرجوازية منذ عصر الدولة الوسطى، وكانوا فوق كل هذا يحظون برعاية الملك. أما الطبقة الثانية من العمال فكانت خليطاً من المصريين وأسرى الحرب والمساجين^(٢).

١ - محمد بكر ابراهيم، المرجع السابق، ص ١٥٦

٢ - نروث عكاشة، المرجع السابق، ص ٢٤٢

المبحث السادس التجارة الداخلية والخارجية

نتناول في هذا المبحث "التجارة الداخلية" ثم "علاقة مصر الاقتصادية" بالدول المجاورة .

أولا : التجارة الداخلية

بذل ملوك الدولة الحديثة ، جهودا مستمرة ، لتأمين الأسواق الداخلية وكفالة استقرارها ، ولضبط الأسواق وحماية المعاملات .

لقد سبق أن رأينا، أن التنظيم الإدارى والقانونى الذى كان سائدا فى عهد الدولة الحديثة، كان يستلزم توثيق وتسجيل وشهر التصرفات التى ترد على العقارات والممتلكات الأخرى . كما كان يتعين ختم كافة الوثائق الخاصة بالتصرفات الخاصة بالعقارات . وكان وراء ذلك رغبة الدولة فى المحافظة على الثروة العقارية من ادعاءات المدعين، كما كانت تهدف إلى ضبط وحماية المعاملات واستقرارها .

ومع ذلك، وحماية للمتعاملين مع "المالك الظاهر" ، أقر التنظيم القانونى القائم فى هذا العصر، أن وضع اليد على العقار لمدة طويلة، يمكن الاعتماد به فى اقرار الملكية^(١).

كما كانت التشريعات السائدة فى عصر الدولة الحديثة، تضع عقوبات صارمة، بل عقوبات مفرط فى قسوتها أحيانا، لكل من يخل بأمانة التعامل فى الأسواق . وكان التشريع القائم يحكم بقطع اليد، على من يرتكب جريمة التطفيف فى الكيل أو الميزان، أو يزيّف الأختام أو العقود أو يقوم بغش المتعاملين معه . كما كانت الدولة تفرض نفس العقوبة، على من يغير فى نصوص السجلات العامة .

هذا، وقد استمر استعمال الأختام فى العصور اللاحقة . فكانت الصناديق والحقائب والرسائل، وكذلك الجرار والابواب تربط بالحبال ثم يوضع قدر من الصلصال على العقد، ثم تختم بالختم ، للقضاء على الغش فى التعامل .

كما انتشرت ظاهرة وضع الأختام على بعض أوعية النبيذ، وكان الختم يميز نوع النبيذ واسم المنتج وتاريخ العصر الذى أنتج فيه، وقد شمل ذلك أنواع النبيذ الملكية الفاخرة.

ويؤكد بعض الباحثين، أن الشعور بضرورة محاسبة النفس، قد احتل حيزاً من عقل المصرى وتفكيره، فى عصر الدولة الحديثة، خاصة فى عصر أختاتون، نتيجة تأثير القيم النبيلة، التى اقترنت بعبادة "أتون"^(١)، الأمر الذى ترك أثراً محموداً على سلوك الأفراد و ما ينشأ بينهم من معاملات .

وكان الملوك وموظفى الدولة، يحرصون دائماً على نشر الأمن والطمأنينة، بين الناس^(٢) ويقومون بالرقابة المستمرة على الأسواق.

دعم وتنمية التجارة الخارجية :

رأينا فيما سبق ، أن ملوك الدولة الحديثة، وبصفة خاصة الملكة "حتشبسوت" والملك "تحتمس الثالث" قد عملوا على التوسع فى علاقات مصر الاقتصادية بالدول المجاورة وخاصة بلاد "بكت"، ودول الساحل الفينيقي وبلاد ما بين النهرين، فضلاً عن جزر البحر المتوسط مثل قبرص وكيريت، وإيران والأنضول .

ومن أهم ما أقدمت عليه الدولة الحديثة لتحقيق الأهداف السابقة:

- ١- تنظيم موانئ الساحل الفينيقي، وتأمين حصول هذه الموانئ على حاجتها من المواد الغذائية مثل الخبز بأنواعه، وزيت الزيتون والنبيذ والعسل والبخور . حتى أصبح من الأمور المعتادة ، تردد سفن مصر مستمرة ، على موانئ الساحل الفينيقي .
- ٢- ترسيخ نفوذ مصر فى كافة أرجاء الإمبراطورية بالقوة العسكرية، ثم من خلال العلاقات الاجتماعية وعلاقات المصاهرة، مع أمراء وحكام دويلات غرب آسيا وبلاد الرافدين، والعناية بتأمين طرق التجارة.

١ - برعى، سبق ذكره، ص ١٨٦، ص ١٩٨.

٢ - برعى، سبق ذكره، ص ١٨٥.

٣- انتشار موظفي الدولة وضباط وجنود الجيش والمواطنين العاديين المصريين في كافة أرجاء الإمبراطورية، الأمر الذي أدى إلى دعم وتقوية الصلات التجارية بين المصريين والتجار الأجانب من أبناء المستعمرات^(١).
ومن أهم الأهداف التي سعت مصر إلى تحقيقها من خلال علاقاتها الاقتصادية الخارجية، ما يأتي :-

١- توفير حاجة الأسواق المصرية من بعض السلع التي لا تتوفر داخل البلاد، مثل الأخشاب الجيدة والزيوت والجلود والبخور والفضة والعاج والزيوت وجلود الحيوانات.

٢- تنمية وتطوير الزراعة والحرف المصرية . فقد حرص ملوك هذا العصر، خاص الملك " تحتمس الأول " والملكة " حتشبسوت " والملك " تحتمس الثالث "، على جلب النباتات والأشجار والحيوانات والطيور، هذا بالإضافة إلى بعض المنتجات الصناعية، التي اشتهرت بها بلاد الشام، مثل الأواني والكوش، كما سبق أن رأينا في الفصول السابقة.

٣- ولتحقيق الأهداف السابقة الذكر، عمل بعض الملوك على جلب الصناع المهرة من منطقة الهلال الخصيب. إذا اتسم عمال هذه المنطقة، بدرجة عالية من المهارة والذوق في إنتاج بعض المنتجات الصناعية. وكان بعض ملوك مصر في هذا العصر، يفضلون جلب هؤلاء الصناع، على اقتضاء الجزية المالية في الممالك التي كانت تدبر لهم بالطاعة والولاء ومن المؤكد أن هؤلاء الصناع، قد اضموا على المنتجات والتماثيل المصرية، مسحة من الرق لم تكن معروفة من قبل^(٢).

١ - أهم الوثائق التاريخية في هذا الشأن مجموعة "رسائل العمادة"، ونقوش رسوم معابد ومقابر عصر الدولة الحديثة، خاصة ميدى الكرنك والدير البحري، انظر أيضا: عبد العزيز صاغ، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، ص ٢٢٤
٢٤٢، وأحمد مرسى، المرجع السابق، ص ٢٦٦ - ٢٩٥، خاصة ص ٢٨٢ ٢٨٣ و٢٨٨ ٢٨٩
(٢) صبحي الشاروني، من السمات في مصر القديمة وبلاد النهرين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٦٧ - ٢٦٨

٤ - تصدير المنتجات المصرية لهذه الأسواق، سواء فى ذلك المنتجات الزراعية أو الصناعية أو بعض المواد الخام. ومن بين السلع المصرية التى كانت تحرص الإمارات المجاورة على استيرادها، المنسوجات الكتانية والنبيد والغلال . وقد اتسم ملوك منطقة الهلال الخصيب، برغبتهم الشديدة فى الحصول على ذهب مصر ، الذى كان وفيراً جداً فى هذا العصر، لاستخدامه فى صناعة الأواني والكؤوس وبعض العجلات الحربية التى كانت تصلىح بالذهب .

وفى بعض الأحيان ، كانت مصر تمد يد المعونة لبعض الإمارات المجاورة ، كلما مرت هذه الإمارات بأزمات اقتصادية ، نتيجة قصور إنتاج هذه البلاد من الغلال ، كما سبق أن ذكرنا .

ومن بين الأهداف التى سعوا إلى تحقيقها خلال هذا العصر من التوسع فى المبادلات التجارية والاقتصادية الخارجية ماأتى :

١- استيراد الكثير من السلع من الجنوب ومن منطقة الشام وجزر البحر المتوسط. وكان من الأمور المعتادة تردد سفن مصر بصفة مستمرة على موانئ الساحل الفينيقي :

١/١- اهتمام الملكة "حتشبسوت" بالجنوب وبلاد بونت لاستيراد الجلود والأخشاب وغير ذلك من سلع المنطقة .

١/٢- تركيز اهتمام "تحتمس الأول" ومن تبعه من الملوك، باستثناء "حتشبسوت" على المنطقة الممتدة من فلسطين إلى الشام إلى نهر الفرات وجزر البحر المتوسط، مثل قبرص وكريت (١) .

٢- وكان ملوك هذه المنطقة، يتسمون برغبة شديدة فى ذهب مصر، الذى كان وفيراً، يفرض استخدامه فى صناعة العجلات الحربية المصنوعة بالذهب ، أو فى صناعة الأواني والكؤوس الذهبية والحلى.

١- يحتمل أن مساعدة مصر لكريت فى تطهير هذه الجزيرة من قلوب الكسوس ، كانت من الأسباب التى قوت علاقة مصر بها، للدرجة أن "الملكة إيج حوتب" ، إحدى ملكات الأسرة الثامنة عشر ، كانت تسمى نفسها ملكة كريت . أحمد مخرجى، المرجع السابق ذكره، ص ٢٦٨، أحمد مخرجى، المرجع السابق، ص ٢٧٥ ٢٨٤

٣- حرص مصر على استيراد النباتات والأشجار والحيوانات التي لم تكن معروفة في مصر لتربيتها. وهذا ما فعلته "حتشبسوت" في الجنوب من بلاد بونت "وتحتمس الثالث" بالنسبة من ممالك غرب آسيا. وكان من بين ما تم استيراده من هذه البلاد وإدخاله مصر، الدجاج والرمان .

١/٣- أمرت حتشبسوت بنقل بعض الأشجار من بلاد بونت ^(١) لزراعتها في حديقة معبدها .

٢/٣- أمر تحتمس الثالث رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوانات أو فواكه أو زراعات . وتحفل جدران معبد الكرنك بصور ما كانت تجلبه مصر من هذه الحيوانات والنباتات ^(٢) .

١ - كانت تشمل الصومال وجنوب بلاد العرب.

٢ - أحمد مرسى، مصر الفرعونية، الطبعة الثانية، القاهرة، أكتوبر ١٩٦٠، الناشر مكتبة الأجلال المصرية، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

ملحق

مقتطفات من بردية " الحكيم أبيدور "

مقتطفات من بردية " الحكيم ابيدور ":

وفى بصر فاحص يسرح الحكيم نظرة على حياة سكان وادى النيل المنظمة يوجد كل شئ فى ارتباك . " لقد وقف دولاى الحكومة على التقريب . إن قوانين ساحة القضاء قد ألقى بها فى مهب الريح ، والناس يمشون فوقها فى الأمكنة العامة ، والفقراء يفضونها فى وسط الشوارع " . وفى الواقع يصل الرجل الفقير (بهذا) الى قوة التأسوع الإلهى، إن إجراء منازل الثلاثين (قاضياً) والقديم (المحترم) قد اقتضح. وفى الواقع (الرحمت) ساحة القضاء العظيمة والفقراء يذهبون ويجيئون فى المنازل العظيمة (محاكم القانون) (٩٠٦-١٢) "أما عن ساحة القضاء (الرائعة) فى الواقع، فإن كتابتها قد حملت بعيداً ، والمكتب الخاص الذى كان موجوداً قد كشف للعيان ... فى الواقع، فتحت مكاتب المصالح وحملت كتاباتها بعيداً ^(١) (وعلى ذلك) يصبح عبيد الأرض سادة (عبيد الأرض) . وفى الواقع، يذبح الموظفون ، وكتاباتهم تحمل بعيداً. الويل لى لتعاسة هذا الزمن . والواقع، أن كتاب (المحصول) ، ترفض كتاباتهم ، وحنطة مصر ملك تعطى لأى قادم " (٩٠٦-٩) " أنظروا : إن مجالس الأقاليم فى البلاد تطرد من البلاد ، وال... تطرد من البيوت الملكية " (٩٠٧-١٠) .

إن انحلال الحكومة هذا، يرجع سببه إلى حالة عنف وحرب داخل البلاد. إن الرجل يضرب أخاه من أم واحدة . ماذا يجب أن يصنع ؟ " أنظروا : إن الرجل يذبح أخيه، بينما هو (الأخ) (يهجره) لينفذ أعضائه. هو " (٣٠٩) " إن الرجل يعتبر ابنه عدواً له " (٥٠١) " يذهب رجل ليحرق ، حاملاً درعه... وفى الواقع ... الرامى بالقوس على استعداد، إن العنف فى كل مكان . لا يوجد رجل الأمس " (٢٠٢) " أنظروا الرجل (الذى يظفر) بسيدة نبيلة كزوجة ، وأبوها يحميه، وذلك الذى دون (مثل هذه الحماية)، أنهم يذبحونه، (٩٠٨-٨) " إن الدم فى كل مكان، لا يوجد (انعدام) للموت، إن أكفان (الميت) تتحدث، قبل أن يأتى المرء بالقرب منها، " (٦٠٢) . " أنظروا: إن رجسلاً

١- كان هذا على الأخص فطياً من وجهة النظر المصرية التى تنصف بحسب العظام إن سحب الكتابات والسجلات من المكاتب العامة لأجل الحصول على أدلة أو الرجوع إلى ما فيها كان له قواعد على برصمها . ولقد بقيت لديها القواعد ، التى

قلائل خارجين على القانون يحاولون سلب أرض الملك . أنظروا : إن الناس يحاولون القيام بثورة ضد اليوراييس^(١) (الشعبان المقدس) ... الذي يقيم السلام في القطرين " (٤-٢،٧) . " وفي الواقع ، إن فيله (وطنية) هما (ممتلكات) مصر العليا ، و(لكن) الحرب الوطنية لا تدفع خراجاً " (٣-١٠،١١) .

وإلى هذه الحالة من انحلال النظام والثورة في الداخل، تضاف أهوال الغزو الأجنبي . "وفي الواقع، توجد الصحراء في البلاد . وأقاليم (مصر) أتى عليها التخريب . وحاملو الأقواس يأتون إلى مصر " (١٠،٣) . " وفي الواقع ، إن مستنقعات (الدلتا) في كل الأنحاء غير مخبوءة . ومع أن مصر السفلى تلخر بطرقها العامة المطروقة، ماذا يجب أن يفعل؟ ... أنظروا : إنها في يد أولئك الذين لم يعرفوها ، كأولئك الذين عرفوها . إن الآسيويين ماهرون في صنعة المستنقعات " (٤-٥،٨) .

وبعد أن أصبحت فريسة للفوضى الداخلية والثورة، وعاجزة أمام غزوات الآسيويين على تخوم الدلتا الشرقية، فإن ممتلكات مصر تدمر، وعمليات البلاد الاقتصادية تتوقف . " أنظروا، كل مهرة الصناع، انهم لا يعملون . إن أعداء البلاد افقروا حرقها . أنظروا ، إن ذلك الذي حصد الحصاد لا يعلم شيئاً عنه، وذلك الذي لم يحصد يملأ مخازن غلاله . عند ما يقع الحصاد، فإنه لا يبلغ عنه . إن الكاتب (يكسل في مكتبه، لا يوجد عمل لأجل) يديه فيه " . (٩-٦،٨) . " وفي الواقع ، عندما يفيض النيل، لا أحد يحرق لأجله (النيل) . وكل إنسان يقول : لا نعلم ماذا حدث في البلاد " ، (٢،٣) . أنظروا : لقد تربكت الماشية تشرد . لا يوجد أحد يجمعها معاً كل إنسان يحضر لأجل نفسه، هذه التي وسمها باسمه " (٩-٢،٣) . وبما أن اللحم يتوارى، على هذا النحو ، فإن الناس يأكلون الأعشاب ويبتلعونها بالمياه " وفي الواقع، أصاب الحنطة الفناء في كل جانب . والناس يحرمون من الملابس و(العمود) وزيوت الطيب . كل الناس يقولون : " لا يوجد شيء منها . إن الحرب الأهلية لا تدفع ضرائب . وقد يسير يوجد من (الحنطة) والفحم الحجري ... " (٢) شغل مهرة للصناع لكنه : ما هي الخزانة دون مواردها؟ " (٣-١٠،١١) .

١- يوراييس : الكتابة اليونانية لاسم القسا (عرب)، نقابله من العربية عريد، وهو «حبة عظيمة تأكل الحيات (الدمري) المرحوم»
٢- وفي هذا ذكر ثلاثة أنواع من الخشب

وفى مثل هذه الأحوال الاقتصادية، فى الداخل، تتدهور التجارة الخارجية وتتوارى . " الناس لا يبحرون صوب الشمال إلى (بيلوس) فى هذا الزمن . ماذا نصنع بخشب السدر اللازم لمومياواتنا، بالتحية التى يدفن بها الكهنة وبالنزيت الذى يحنط به (الأمراء) حتى إلى كفيثو^(١) . إنها لا تعود بعد الآن . ويندر وجود الذهب وقد انتهت كل الحرف .. ياله من أمر عظيم ، إن أهل الواحات (لايزالون) يأتون حاملين محصولهم للأعياد ١ " (٣، ٦-٩) ^(٢) .

مثل هذه الأحوال ، يمكن توقعها، لأن الأمن العام للناس والسلع التجارية قد زال. " ولو أن الطرق تقوم عليها حراسة، إلا أن الناس يجلسون فى الأدغال إلى أن يأتى المسافر الذى دهمه الظلام حتى يستولوا على ما يحمل . إن ذلك الذى معه يؤخذ منه . وتكال له الضربات بالعصا، ويذبح بقسوة " (٥، ١١ - ١٢) " والواقع ، أن البلاد تدور (نظام الأشياء ينقلب) كما تفعل عجلة صانع الفخار . إن ذلك الذى كان لصاً هو سيد الثورة و(الرجل الغنى) هو (الآن) شخص التهب " (٢، ٨ - ٩) " وفى الواقع ، حطمت صناديق الأبنوس وكسر خشب اللبخ الفاخر إلى قطع من (خشب الحريق) (٣، ٤ - ٦) . وفى الواقع ، إن البوبات والمعد و (الحيطان) قد حرقن " (٢، ١٠) وكما فى اغنية عازف القيثارة ويأس كاره البشر ، فإن إمدادات الموتى تنتهك ولا تهدف لغرض " . انظروا ، ولو أن المرء يدفن كنسر (ملكى) على النعش فإن ذاك الذى كان الهرم يخفيه (الضريح) أصبح خاوياً (٧، ٢) . وحتى عندما لا تحترم القبور الملكية ، فإن الناس لا يبذلون إلا القليل من الجهد لبناء قبر ، وفى الواقع ، كثير من الموتى يدفنون فى النهر ، والجدول هو قبر . ومكان التحنيط "أصبح جدولاً" . (٢، ٦ - ٧) . " وأولئك الذين كانوا فى مكان التحنيط يلقى بهم على الأرض المرتفعة " (بدلاً عن قبر) (٤، ٤) " انظروا : إن أصحاب القبور يطردون على الأرض المرتفعة " .

١- تنطق كفيثو ، كفتور (كما اقترح شيلبرج أولاً) أى كريت .

٢- هذه الملحوظة الأخيرة هى بالطبع تهكمية، بالإشارة إلى الحقيقة الواقعة وهى أن التجارة الوحيدة مع العالم الخارجى التى تركت لمصر هى تاج الواحات الضليل الذى كان لا يزال يتسرب

وهكذا ، كما يوحى تشبيه دولاب صانع الفخار ، فإن كل شيء انقلب رأسا على عقب . وقد أتت على الأحوال الاجتماعية ثورة تامة . وفي أطول سلسلة من النقطات - وكلها متشابهة التركيب ، في الوثيقة - يستعرض الحكيم الأحوال التي طرأ عليها التغير ، فيما يتعلق بأفراد معينين وطبقات المجتمع . وكل نقطة تقابل ما كان ، بما هو الآن . " انظروا : إن ذلك الذي لم يكن لديه زوج من الثيران فإنه (الآن) مالك قطع ، وذلك الذي لم يكن يخذ ثيران محراث أن يتسول لنفسه هو (الآن) صاحب قطع . انظروا : أن ذلك الذي لم يكن لديه حنطة هو (الآن) صاحب مخازن غلال ، وذلك الذي اعتاد أن يجلب الحنطة لنفسه فإنه (الآن) يعمل على صرفها (من مخزنه الخاص) " (٩ ، ٣ - ٥) انظروا : إن صاحب الثروة (الآن) يمضي الليل عطشان (بدلا من إقامة الولائم) ، وذلك الذي اعتاد لنفسه ثملاته هو الآن صاحب كؤوس (فياضة) انظروا : إن أصحاب الحلل أصبحوا (الآن) في أسماك ، وذلك الذي لم يكن ينسج لنفسه هو (الآن) مالك التيل الرقيق " (٧ ، ١٠ - ١٢) . وهكذا ، يسير الحكيم من مقابلة إلى الأخرى . وفي مثل هذه الحالة ، فإن المجتمع يسير إلى دمار . " الرجالة قلة ، وذلك الذي يطمر زميله في الأرض ، موجود في كل مكان " (٣ ، ١٣ - ١٤) " يوجد تضروب في النساء ولا يوجد حبل في (أطفال) . إن خلوم (خالق الإنسان) لا يصنع (الناس) بسبب حالة البلاد " .

وفي الخراب العام ، فإن التدهور الخلقى يجيء بين ثنياه ، ولو أنه لا يؤكد على أنه سبب التعاسة العامة . " إن رجل الفضائل يسير في حداد بسبب ما حدث في البلاد " (١ ، ٨) . ويقول آخرون " لو كنت أعلم أين يوجد الإله ، إذن لكنت قدمت القرابين إليه " (٥ ، ٣) . " وفي الواقع توجد (الاستقامة) في البلاد (فقط) في اسمها هذا ؛ وما يفعله الناس في الرجوع إليها هو الجور " (١) (٥ ، ٣ - ٤) . ولا عجب في أنه يوجد يأس عام " في الواقع قد زال المراح ، إنه لا يصطنع بعد الآن ،

(١) إن وضع لفظ " استقامة " يرجع إلى ربه ، وبالمثل إلى عبته كثيرا كقصر لفظة المستعملة هنا " جور " (اسم) . من يصرح الأهرام بمساعدة ، فإن وضع اللفظ يناسب النص مناسبة رائعة ولكن جازدر يذكر أن الآثار الموجودة هي " العر " لا تتوافق مع هذا اللفظ ، ولا تنصص طبعه النص الأصلي المطابق

انه التلهد ذاك الذى يوجد فى البلاد ، يختلط بالأنواح " (٣ ، ١٣ - ١٤) " وفى الواقع ، (يقول) العظيم والوضيع : أتمنى أن اموت ، وصغار الصبية يقولون : لكنى أرجو أنه لا يوجد أحد يحفظ لى حياتى " (٤ ، ٢ - ٣) " وفى الواقع ، كل الماشية الصغيرة ، تبكى قلوبها ، إن الماشية تلهد بسبب حالة البلاد " (٥ ، ٥) " إن الحكيم لا يمكنه أن يرى هذا كله ، دون شعور منه بأن الكارثة العامة تؤثر فيه ، ايضاً تأثيراً عميقاً ، ويرجو انتهاء كل شيء . " إنى لأرجو أن تحل نهاية الناس ، وألا يوجد حمل ، أو ميلاد . أو دلو أن البلاد تكف عن الضوضاء ، والصراع لا يكون له وجود بعد الآن " (٥ ، ١٢ - ١٦) . ويبلغ به الأمر أن يرجع باللائمة على نفسه ، لأنه لم يحاول أن ينقذ الموقف قبل ذلك . " ليتنى أعليت صوتى فى ذلك الوقت ، حتى يمكن أن يخلصنى من الألم الذى أوجد فيه " (٦ ، ٥) " الويل لى للتعاسة فى هذا الزمن ! " (٦ ، ٨) .

هذه هى الصورة القالمة التى يصورها الحكيم المصرى . ويجب أن يعتبر هذا الاتهام ، الذى يشغل ، كما قلنا ، ثلثى الوثيقة على التقريب كما هى محفوظة ، انه يعرض الأحوال التى سادت مصر فى زمن محدد كل التحديد . إن العلاقة الوثيقة فى اللغة والفكر ووجهة النظر بين عجالة أبور هذه ، والكتيبات الاجتماعية الأخرى - المعروف أنها تنتمى إلى عصر الاقطاع - لا يترك مجالاً للتساؤل فيما يتصل بتاريخ وثيقتنا . إن حالة مصر ، التعسة التى يصورها الحكيم لا يد أنها كانت توجد فى الحقبة الغمضة التى لا يعرف عنها إلا القليل ، تلك التى سبقت مباشرة عصر الاقطاع (الدولة الوسطى) .

وكما يمكن أن يتصور من الحزن البالغ الذى يرى فيه أبور تعاسة الزمن فإنه لا يرضى بأن يترك جيله فى هذه الحالة التى لا رجاء فيها . إنه ، الآن ، يتحول إلى الوعظ ويحض مواطنيه أولاً أن يحطموا أعداء الملك . وتبدأ خمس نطقات قصار (١٠ ، ١١ - ١١) بالكلمات : " حطموا أعداء المقر ذى الجلال " (مقر الملك) ، ولو أن

البردية ، متناثرة الأجزاء في هذه المرحلة لدرجة بالغة حتى أنه لا يمكن أن يحدد في وضوح ما كان يجيء بعد كل ترديد للأمر . ويتبع هذا ثمانية أوامر متشابهة ، على الأقل ، وكل واحد يبدأ بكلمة " تذكر " (١٠ ، ١١ - ١٢ ، ١٠) ويدعى كل الناس لمواصلة القيام بالشعائر المقدسة بالنيابة عن الآلهة . إن هذه المجموعة الثانية من المواعظ يكتنفها غموض ، لا يلى يتزايد ، كلما ازدادت حالة البردية متناثرة الأجزاء سوءاً . ومن نهاية فراغ كبير^(١) ، تبرز أهم عبارة في حديث الحكيم بأجمعه ، وهي واحدة من أهم العبارات في مدى الأدب المصرى كله .

(١) الجزء الأخير من ص : ١١ .

فى هذه النقطة الرابعة ، يتطلع الحكيم إلى إصلاح البلاد ، دون ريب كنتيجة طبيعية للنصائح عن الإصلاح التى وجهها إلى قلوب مواطنيه . إنه يرى الحاكم المثالى الذى يتشوق إلى مجيئة . إن ذلك الملك المثالى حكم مصر ، مرة بوصفه إله الشمس ، رع . وعندما يتذكر الحكيم ذلك العصر الذهبى فإنه يعقد مقابلة بينه وبين الحكم الجائر الذى وقعت البلاد بين يديه . " إنه يبرء أوار الذهب . يقال إنه راعى ^(١) كل الناس .. لا يوجد سوء فى قلبه . عندما تكون قطعاته قليلة ، فإنه يمضى النهار فى لم شملها ، إذ أن قلوبها تنقد ^(٢) . لئنه كان قد تبين خليقتها فى الجيل الأول . عند ذلك كان ليضرب السوء . وكان قد مد ذراعه ضده . وكان قد ضرب (بقرته) وإرثهم ... أين هو اليوم ؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من النوم ؟ انظروا ، " إن قوته لا ترى " (١١ ، ١٢ - ٦) .

وبينما لا يوجد عنصر خبرى ، دون ريب ، فى هذه العبارة ، فإنها صورة للحاكم المثالى ، للوالى القويم الذى " لا يوجد فى قلبه سوء " ويسير هنا وهناك أشبه 'براع' يجمع قطعاته التى نقصت ولأخذ منها العطش . لقد قام هذا الحكم القويم ، الذى يشبه حكم داود ، ويمكن أن يقوم مرة أخرى . إن عنصر الأمل فى أن مجيء الملك الصالح قريب ، لا يتطرق الخطأ إليه فى الكلمات النهائية : " أين هو اليوم ! هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم ؟ انظروا : إن قوته لا ترى " وبهذه النقطة الأخيرة ، يضيف المرء ، دون طواعية ، " حتى الآن " . إن مغزى الصورة الخاص هو فى واقعة معينة - إذا لم تكن خاصة بالبرنامج الاجتماعى فعلى الأقل بالمثل العليا الاجتماعية - هى أن الحلم الذهبى الذى يراود مفكرى هذا العصر السحيق كان قد تضمن الحاكم المثالى الذى لا تشوب خليقته شائبة وله أغراض خيرة ويتحدث على خاصيته ويحميهم ويحطم الأشرار . وسواء أكان مجيء هذا الحاكم قد تنبأوا به أم لم

(١) أو " راعى قطع " . يطلق على إله الشمس راعى قطع ، شجاع ، يسوق ماشيته " ، فى إنشود للشمس ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (راجع ما يلى فى الفصل التاسع) وهذا ، كما يظهر لى ، يجعل من الحلق ثمان النتيجة التى وسيل إليها جاردنر (مستنداً إلى أسباب أخرى) من أن هذه العبارة وصف لحكم رع .

(٢) من المرجح أن معنى هذا ، عطشى ، وربما كان الوصف رمزاً للمجموعين . وارن : قلوب المادية (تبقى) .

بقتبأوا ، فإن رؤسا خليفته وعمله قد رفعها هنا عاليا ، دون أن يتسرب إلى ذلك خطأ ، الحكيم القديم - رفعها بمحض الملك العالش وأولئك الملتفين حوله حتى يمكنهم أن يروا شيئا من سنانها . إن هذا بطبيعة الحال ، هو الاعتقاد برسول (مسيا) سبق ، بقراءة ألف وخمسمائة عام ، ظهوره بين العبرانيين ^(١) .

(١) إن لا يلى Lange هو أول من لفت النظر إلى خصيصة " انتظار مسيا " في هذه العبارة . ومع هذا ، فإن تفسيره كان أن العبارة تنبأ بصفة قاطعة عن يلى الملك الذى له صفة " مسيا " . وقد عارض جاردير ، بسجاح ، شائع لا يلى فيما يتعلق بالنسب . ومشرحه المستوفى الدقيق ، أصاب الكثير إلى ما يساعدنا على فهم العبارة . ولكن لا يستطيع أى باحث فى السيرة العبرية أن يتبع جاردير فى خطوته التالية وهى أنه باستبعاد عنصر التنوع تحرم الوثيقة من خصيستها التسوية . إن هذا معناه بساطة جلب معنى إنجليزى حديث للفظ (سوء Prophecy) - على أنه (مكس ، Prediction) فى تفسير هذه الوثائق القديمة ، وخاصة الأدب العبرى . واستنتاج جاردير الأخير هو " يجب مرة أخرى أن أؤكد أنه لا يوجد أثر محقق أو حتى محتمل للتنبؤات فى أى جزء من هذه الكتاب " (Admonitions - النصائح من . ١٧) ويذكر فى نفس الفقرة " فلسفة لمية " فى الوثيقة هى " أحوال صلاح الحال الاجتماعية والسياسية " إن هذا ، بطبيعة الحال ، موضوع السيرة العبرية الرئيسى . وعلى أساس أى تعريف للسيرة العبرية مما يتصلب التأمل فى المساوى الاجتماعية والسياسية والنصائح لتحسينها فإن بطلانات ابوروسى سوه (راجع ما يلى فى منتصف الفصل السابع) ومما يتعلق بالعبارة " المساواة " فإن خصيستها " المساواة " لا تعتمد أقل اعتمادا على خصيستها التكهنية . إن جاردير ، بكل تأكيد ، على صواب (صدا لآخر) فى اعتباره الاتهام العلى الطويل غير تكهنى ولكنه وصف لأحوال موجودة فعلا . إن النصائح التى تعقد ، على أنه حال ، تنطلع للمستقبل بصفة قاطعة ، وفيه يتوقع الحكيم أن الناس يعذون أوامرهم . وتأتى العبارة " المساواة " مباشرة بعد هذه النصائح ، وبمفها نأيب للملك بدمج فى صورة نصف ، على حد قول جاردير " فرح ورجاء البلاد فى عصر أسعد " (شرحه من : ٨٧) . وفى الواقع ، فى نفس المعاد جاردير لخصم العبارة " المساواة " " بالعودة إلى لفظ فى آمال مصر المستقبلية " وعلى ذلك فى النهاية " لمس أرضنا ثابتة فى ثلاث حمل تشير بوضوح إلى المخلص المنتظر (وليس بالضرورة المتأخر) " " إن هو اليوم ؟ هل ربما يكون قد أحدثه سنة من يوم ؟ أنظرنا ، إن قوته لا تسمى " (شرحه من : ٨٠) والقوسات قرنا جاردير وما يعيه هو بطبيعة الحال أن "المخلص" ينطلع إليه ولكن ليس بالضرورة يتكهن به . إنه فقط هذا التصور غير المستوفى عن السيرة العبرية " كتكهس " هو الذى يجعل جاردير يصل إلى النتيجة ، " إنه يوجد الكثير من عدم التيقن عن المسألة لكن يعمل الأساس لأية نتائج بعيدة المدى من حيث تأثير المصريين على الأدب العبرى ، (شرحه من ١٥٢) . إن " عدم التيقن " كما يحددها جاردير ، يتعلق بتفسير لا يلى للعبارة " المساواة " على أنها تكهنية ولو أنه ، طبقاً لجاردير ينطلع الجزء الأخير من العبارة " المساواة " إلى " مخلص " يتوقع مجيئه . إن رلها انتظار مسيا عند الانبياء العبرانيين لم تكن فى الكثير العالب إلا رجاء عظيم يرتفع أحيانا إلى مرتبة العقيدة بأن الأمل يتحقق . إنها كانت الرؤيا التى رعبوا فى أن يصيروا إلى ما يأتى بتحقيقها ولم تكن إلا صورة قديمة للنبل الأعلى الاجتماعى الذى بدأ فيما يتضح (إلى الحد الذى يصل إليه علمنا) فى مصر وقطر فى صورة غالبة بين العبرانيين كذلك . إن انغزالا قريلا فى توعه وقدرة على تأمل المجتمع ، طهرنا لأول مرة فى التاريخ فى العصر الاقطاعى فى مصر ، إنشجنا هذه المحاولات الاجتماعية التى أثبتنا على صحتها ، آنفاً ، إذا كانت قصة الأسويين ، بعد فسروى من ديوعها فى مصر ، قد وصلت فلسطين لصعد كياناً لها فى قصة بوسف ، فإنه أكثر من المفضل أن كتيبات ابوروسى ورجال ملطقة دخلت فلسطين وأوحى إلى رجال المثل العليا فى ذلك المكان تصور الملك القديم والمخلص . وربما يجب أن أضيف بأن جاردير فى رسالة معنها إلى - يتعلق عن التكهس كمكون " لنسوة " ولكن كان على أن أعالج دليله كما وجدته فى سفره الذى يدعو إلى الإعجاب .

وفى ذهن الحكيم ، تستدعى المقابلة المروعة بين حكم الملك المثالى وحكم فرعون العائش ، الذى يقف الآن فى حضرته ، أعنف استنكار لملكة وعلى غرار ناثان^(١) ، بعبارة اللاذعة " إنك الرجل " ، فإنه يضع المسؤولية عن كل ما أعاده للذاكرة فى مثل هذا الوضع ، على عاتق الملك .

إنه يقول " الذوق والمعرفة والاستقامة لديك " ، (ولكن) " إنه الصراع ذلك الذى تجلبه فى البلاد ومعه صوت الاضطراب . هاهو ذا الواحد يهاجم الآخر . إن الناس يسرون وفق ذلك الذى أمرت به . و إذا سار ثلاثة رجال فى طريق ، يوجدون اثنين (لأن) أولئك الكثرة يذبحون القله . هل يوجد راعى قطيع يحب الموت (أى من أجل قطيعه)؟ لأى سبب تأمر بالاجابة: " إنه بسبب أن رجلا يحب (ولكن) آخر يكره"....(كلا ، إني أقول) إنك فعلت (هكذا) لتجلب هذه الامور . لقد نطقت بالاكاذيب " (١٢، ١٣-٣) وبعد أن كذب الملك، على هذا النحو، رداً على إجابته المفترضة ، يعود الحكيم لحظة إلى وصف حالة المجتمع الكنيية التى شغل بها فى اتهامه الطويل . ومع هذا ، فإن تقدم فكره يتجه صوب إصلاح الحال فى المستقبل الذى كان ينصح به بعد ختام الاتهام واستنكاره المرير للملك . والآن ، على هذا فإن التعاسة المسنول عنها تندمج فى صورة نهائية من " الفرح والرخا " (٩، ١٣ - ٥، ١٤) فى ثمانية موشحات يبدأ كل منها بمصراع ذى معنى غير محقق إلى حد ما .

وقد أتم الحكيم خطابه الطويل . ويجب الملك الآن فعلا ، ولو أننا لا نستطيع استخلاص اجابته من الشذرات المكسورة فى الصحيفة المهشمة التى تظهر فيها ، ويلى هذا رد موجز من أبور يستهل بما يلى : " ذلك الذى قاله أبور عندما رد على صاحب الجلالة " . إنه رد غامض جداً ولكن يظهر أنه يذكر الملك فى تهكم بأنه لم يفعل إلا ماكان يرغب فيه خمود وعدم ميالة جبل فاسد . وهنا ، كما يوضح جاردنر ، ربما ينتهى العجالة .

(١) إن جاردنر لحط التشابه

كلمة أخيرة ...

ايزيس

ايتها الام الرؤوم يارمز الحب والوفاء والخير
تذرفين الدمع منذ قرون ، تعود إلى عهود
سحيقة، لاتميتها الذاكرة.....لمتى تكفين عن البكاء
ونرى على محياك بسمه للحياه.....

أ.ر.م

الجزيرة ، مدينة المهندسين : خريف ١٩٩٧



المؤلف :

الأستاذ الدكتور أحمد رشاد موسى ، أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة ، ورئيس
لجنة الشؤون المالية والاقتصادية بمجلس الشورى .

١ - تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى عام ١٩٥٤ ، ثم حصل على
دبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى والاقتصاد التطبيقى من نفس الكلية ،
فى عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، وعلى درجة الماجستير فى الاقتصاد (M.Sc Econs.)
من مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية London School of Economics
University of London ، وذلك فى عام ١٩٦٢ ، وعى دكتوراه الفلسفة (اقتصاد)
، من جامعة ريدينج بالمملكة المتحدة (U.K) University of Reading ،
فى عام ١٩٦٧ .

٢ - عين بعد تخرجه بالنيابة العامة ، ثم عمل مندوباً بمجلس الدولة ، ثم معيداً
بقسم الاقتصاد بكلية الحقوق جامعة القاهرة ، ثم مدرساً ، ثم أستاذاً مساعداً ثم
أستاذاً بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

٣ - عضو المجالس القومية المتخصصة ، والمجلس الأعلى للثقافة ، ومقرر لجنة
الاقتصاد بالمجلس الأعلى للثقافة ، ومدير تنفيذى بالمصرف العربى للتنمية
الاقتصادية فى أفريقيا .

٤ - سبق أن شغل منصب نائب ورئيس بنك التنمية الأفريقى A.D.B بانيديحان
بنولة الكويت ديفوار ، كما عمل كمستشاراً وخبيراً اقتصادياً بمنظمة الأمم المتحدة للتربية
والعلوم والثقافة UNESCO ، ومنظمة الأمم المتحدة لتنمية الصناعة UNIDO ،
وبالجهاز المركزى للتدريب والجهاز المركزى للمحاسبات وبمركز التنمية الصناعية
للدول العربية ، وأستاذاً ببعض الجامعات العربية .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٥٨٩ / ١٩٩٧

الترقيم الدولي (4 - 946 - 235 - 977 - I.S.B.N)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٠١٤ - ١٩٩٧ - ٤٥٩٩

يتضمن هذا الكتاب دراسة تحليلية لتاريخ مصر الاقتصادى ، فى عصور ما قبل التاريخ والعصر الفرعونى ، ويعتبر أول دراسة تفصيلية شاملة للتاريخ الاقتصادى لمصر فى هذه العصور ، التى لم تلق حتى الآن ما تستحقه من اهتمام .

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتضمن القسم الأول موضوع وطبيعة المعرفة التاريخية ، وفلسفة التاريخ التى عولج الموضوع من خلالها . أما القسم الثانى فيهتم بتاريخ مصر الاقتصادى فى عصور ما قبل التاريخ ، والتى شهدت فى نهايتها واحدة من أعظم اكتشافات الإنسان فى كل تاريخه ، ولقصد بها اكتشاف الزراعة ، أما القسم الثالث فيتضمن دراسة شاملة لتاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الفرعونى ، وهى الفترة التى شهدت مجموعة من أعظم الانتصارات الحضارية فى تاريخ الإنسانية جمعاء .

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة معرفة ، أهم العوامل التى شكلت تطور مصر الحضارى خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، والتى بدأت منذ حوالى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد الحيد ، وما هو الدور ، خاصة الدور الذى لعبته العوامل الاقتصادية فى تشكيل هذا التطور .



To: www.al-mostafa.com